طبعة جديدة

صموئيل شمعون

عراقي في باريس



منشورات الجمل

رواية

صموئيل شمعون: عراقي في باريس



صموئيل شمعون

عراقي في باريس

رواية

منشورات الجمل

ولد صموئيل شمعون في العام ١٩٥٦ في ناحية «الحبانية» في العراق. غادر بلده في العام ١٩٧٩ حيث عمل مع المقاومة الفلسطينية في بيروت، ثم تنقل بين عمان ودمشق وقبرص والقاهرة واليمن وتونس إلى أن استقر لاجئا في باريس في يناير/ كانون الثاني ١٩٨٥. يقيم في لندن منذ العام ١٩٩٦، حيث أسس في العام ١٩٩٨ مع زوجته مارغريت أوبانك مجلة «بانيبال» التي تعنى بترجمة الأدب العربي إلى الانكليزية، كما يحرر جريدة «كيكا» الالكترونية. بدأ حياته الادبية بنشر القصص القصيرة عام ١٩٧٩ والشعر عام ١٩٨٥ له مجموعتان شعريتان، و«**عراقي في باريس**» روايته الأولى، صدرت بالانكليزية عن Banipal Books في آذار ٢٠٠٥ بعنوان An Iraqi in Paris

صموئيل شمعون: عراقي في باريس، رواية، الطبعة الثانية ٢٠٠٦

الغلاف: نافورة في ساحة الكونكورد، باريس (تصوير: المؤلف)

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany
Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

لذكرى

شريف الربيعي، نيكولا غيوم روايه، ميشيل فرح،

علي عتمان، جان كلود مينغ، صالح العزاز، جيمس نوتون

وأبي

وحدها ورقة الخريف

النائمة تحت المطر

تعرف عطشي

صموئيل شمعون

ملحوظة

«ها أنا وصلت قبلك إلى أميركا»! هتفت أمي ضاحكة ما أن رأتني أنزل من سيارة خالي. كان ذلك في يناير (كانون الثاني) عام ٢٠٠٤، وكنت قد سافرت إلى موديستو في كاليفورنيا للقائها. كانت أمي قادمة من بغداد في أول زيارة لها لشقيقتها المقيمة في أميركا.

«لقد قتلتنا بهوليوود! . إنها على مرمى حجر من هنا. هل تعرف كيف تقود سيارة؟ خذ إحدى سيارات خالك واذهب إلى هناك».

حين اقتربت منها، لاحظت أنها قد أصبحت كبيرة في السن فعلا.

«آه يا ولدي شموئيل». صرخت وهي تحضنني باكية. وفجأة أخذت تحدق فيّ والدموع تغطي وجهها «ماذا حدث لأنفك، إنه ما زال يكبر؟» وبدأت تضحك بعمق. فأخذت أضحك أيضا، ثم قبّلت رأسها وقلت لها وأنا أشير إلى قدميها «أنظري إلى جواربك يا أمي، إنها مليئة بالثقوب، وهي على هذه الحال منذ أن كنت صغيرا». وضحكنا.

«أين كنت طيلة هذه السنين يا ولدي»؟

قبل أن أتفوه بأي كلمة، أضافت أمي «هل تعرف، يا شموئيل، بعد لحظات قليلة من تسميتك، شعرت بحزن شديد وقلت لنفسي اننا، بهذا الاسم الثقيل، نضع الكثير على كتفي هذا الطفل»!

الطريق إلى هوليوود

استيقظت من نومي ونظرت على الفور إلى الساعة المعلقة في الصالة، فكانت السادسة تقريبا. شعرت بالطمأنينة لأن الباص الذي سيقلني من بغداد إلى دمشق ينطلق في التاسعة والنصف. كنت قد جهزت حقيبة سفري الصغيرة قبل أن أنام. نظرت إلى أهلي الذين كانوا ما زالوا نائمين في الغرفة الواسعة، التي كنا نستخدمها للنوم في الليل، وللحياة في النهار، رأيتهم نائمين بكامل ثيابهم العادية على «أفرشة» بالية مفروشة على الأرض الاسمنتية الرطبة. كانت أمي نائمة في وسط الغرفة وإلى جانبها أختاي الصغيرتان نهرين وماري. ومن الجهة الأخرى من الغرفة، كان ينام روبن وجون جنبا إلى جنب، فيما كان أبي نائما فوق كومة من الثياب القديمة في زاوية في عمق الغرفة، وتيدي وشمشون نائمين في الصالة على المقعدين الخشبيين الطويلين. اضطجعت إلى جانب أمي وأخذت أقبّل رأسها وأهمس في أذنها «يام، يام يام، استيقظي يا أمي، عادة ما تكونين مستيقظة في مثل هذا الوقت، فلم ليس اليوم؟ أرجوك استيقظي سأسافر بعد قليل، وربما لن تريني بعد اليوم». ردت أمي بصوت خفيض «هل جننت، إلى أين تسافر يا ولدي»؟ فأجبتها «إلى هوليوود، هل نسيت أحلامي يا أمي؟». فقالت بصوتٍ خفيض وكأنها تسخر مني «انه مسافر إلى هوليوود»! وعادت لتغمض عينيها. فقلت بصوت عال «نعم يا أمي إلى هوليوود، لماذا لا تصدقينني»؟ فلم ترد عليّ. اقتربت من ماري ورحت اقبلها هامسا في اذنها «صباح الخير يا

ماري. . . هلو» لكنها لم تستيقظ، بل سمعت نهرين تقول «أوه يجب ان اذهب إلى المدرسة». هجمت عليها وقبلت وجهها ورقبتها «نهرين، انا مسافر إلى اميركا الان». ابتسمت نهرين الجميلة وقالت «دعني اذهب لأغسل وجهي». قلت لها «وجهك أنظف من الماء يا نهرين». عدت ثانية لأنظر إلى وجه ماري النائمة يا الله كم كنت أحبها، كنت أقول لها دائما «عندما أصبح مخرجا، سأجعلك بطلة أفلامي». فسألتني نهرين «متى تصل إلى أميركا»؟ قلت لها «خلال شهر، وربما شهرين» عندها ردت أمي قائلة «أيها المجنون بعد يومين أو ثلاثة سوف تعود» فألقيت بنفسي فوقها ورحت أقبلها «مستحيل، مستحيل يا أمي، لن اعود مهما كلف الأمر. صدقيني. أرجوك بوسيني قبل أن أسافر، هذا كل ما أطلبه منك». فتحت أمي عينيها وقالت «قرّب رأسك يا مجنون» ثم قبّلتني. اقتربت من أبي ورحت أقبّله ففتح عينيه مبتسما، رسمت له الاشارات التالية: بسطتُ كفي اليمنى وجعلتها تشق الفضاء وأنا أخرج من فمي نفخة قوية، ثم ضربت بسبابتي اليمنى على صدري وبالسبابة نفسها أشرت إلى الأرض. ففهم أبي انني ابلغه بسفري الآن، اليوم (لكني لم أستطع أن أخبره بأننا كنا في يناير ١٩٧٩). ابتسم أبي وخرج من فراشه متجها إلى الحمام ليعود بعد لحظات وقد غسل وجهه ومشط شعره للوراء ليبدو أنيقا في وداعي. عانقته طويلا، ثم رأيته يعود ليجلس في فراشه وينظر اليّ مبتسما طوال الوقت. أخيرا وضعت حقيبتي الصغيرة على كتفي وصنعت قبلة هوائية لأبي وتركت البيت. قبل أن ينطلق الباص من بغداد، اقترب من نافذتي احد عمال شركة النقل، ومد رأسه إلى داخل الباص وقال وهو يشير إلى ثلاث سيدات كن جالسات أمامي. «يا لك من محظوظ، تسافر مع ثلاث غانيات». نظرت إلى النساء فأخترق عطرهن الفاخر أنفي، فهمست بكل براءة في اذن الرجل الذي كان يجلس إلى جانبي، صاحب الكوفية والعقال «الله يخليك يا حاج ماذا يعني غانيات»؟ فقال بسرعة «يعني قحاب، ابني» واضاف بصوت عال

كأنه تقصد أن يُسمع النساء الثلاث «ويسمونهن أيضا، أرتيستات». حين مررنا بالفلوجة، تذكرت انني حين كنت صغيرا، كنت أسرق مع بعض الأصدقاء الاسلاك النحاسية التي تعلق عليها النساء ثيابهن، ونأتي لنبيع النحاس في الفلوجة. وبعد ربع ساعة، أخذ الباص يسير بمحاذاة سلسلة من الجبال والهضاب. مددت رأسي من النافذة وألقيت نظرة على الحبانية، التي ولدت فيها. كانت الشمس قوية، وكان ضوؤها منعكسا بقوة على سطح مياه نهر الحبانية. آه كم كنت أكره ذلك النهر، ففي ذلك الغروب الذي لن أنساه، حزنت الحبانية كلها عند سماعها خبر غرق أليكسي في النهر. قال أصدقاؤه «انتظرناه طويلا ولم يظهر» فتلقوا عقابا أليما من أبائهم. كان أليكسي في السادسة عشرة من عمره، وقد سمعت أمي تقول «مسكين، كان يريد أن يصبح راهبا» فيما أجمعت نساء المدينة «ان الله أختار أليكسي إلى جواره لانه كان ولدا جميلا ومهذبا ومستقيما» وحين سمع جليل الدب ما قالته النساء، أخذ بعض الاحجار وحطم الفترينة الزجاجية لمحل باتا للاحذية، صارخا بأعلى صوته «إنني شرير، إنني شرير». فجرّوه من أذنه إلى مخفر الشرطة، وظل يردد أمام معاون الشرطة «إنني لست طيبا ولا مستقيما ولا أريد أن يأخذني الله إلى جواره»! فضحك معاون الشرطة وأطلق سراحه. ثم اخترق الباص مدينة الرمادي التي عشت فيها بضع سنوات. بعد ذلك نمت، ولم أفق إلا على ضجيج المسافرين عند نقطة التفتيش في الحدود العراقية ـ السورية. طلب منا السائق أن ننزل لتفتيش حقائبنا وختم جوازاتنا. ففعلنا ذلك ورجعنا إلى الباص، باستثناء السيدات الثلاث اللواتي انتظرناهن اكثر من ساعتين. عندها احتج بعض المسافرين. قال الرجل الذي كان جالسا إلى جانبي «عجيب أمر هذه الغواني يبحثن عن الزبائن حتى في نقطة الحدود»! فرد عليه السائق «المسألة ليست كما تعتقد يا حاج». وحين جاءت السيدات، كن في حالة يرثى لها، وقد لزمن الصمت حتى أصبحن داخل الأراضي السورية، فأخبرننا بانهن تعرضن للابتزاز على يد

رجال الشرطة العراقية الذين خيروهن بين الاغتصاب أو دفع رشوة «فدفعنا لهم الكثير من الدولارات ومع ذلك أصروا أن يتحرشوا بنا» فقالت احداهن بلهجة لبنانية «أنهم قطاع طرق وليسوا رجال شرطة» وقالت أخرى بلهجة مصرية «لن أعود ثانية إلى بلاد القتلة المجرمين». فرد الرجل الجالس إلى جنبي «من فضلكن، هناك حدود للكلام» فردت اللبنانية «أي حدود، ألا ترى كيف يعتدون على المسافرين؟ كان يجب عليك أن تأتي وتدافع عنا» فرد الرجل بعصبية «أنا أدافع عنكن، أدافع عن غانيات». فضحكت النساء الثلاث وتساءلن بصوت واحد «غانيات. ماذا يعني غانيات»؟، فنظر الرجل اليّ «قل لهن يا ولدي ماذا قصدتُ»، نظرت اليهن وقلت بخجل «يعني قحاب»، فضحكت النساء الثلاث وقلن بصوت واحد «هذه أحلى». في دمشق قضيت يومين مثل أي سائح، ثم رحت أبحث عن عمل، حتى رأيت اعلانا على باب احدى البنايات «شركة تأمين للسيارات في الطابق الخامس تبحث عن طباع دكتيلو بالعربية». كانت الشركة مكونة من مديرها فقط وكان في منتصف الستينات، اخبرني ممتعضا ان سكرتيرته في اجازة ولادة، ثم اختبرني ونجحت في الاختبار. بعد أسبوع من وجودي في دمشق، جاءني رجلا أمن سوريان إلى غرفتي في الفندق وطلبا مني ان أذهب معهما. وضعتُ في غرفة رطبة وباردة لبضع ساعات، إلى أن جاء محققان أخذا يطرحان عليّ أسئلة غريبة؟ سألني أحدهما «ماذا تفعل في دمشق»؟ فأجبته «جئت للعمل لأنني أريد مواصلة سفري إلى بيروت الشرقية ومن هناك إلى أميركا لكي أعمل في السينما» فسألني الآخر «كيف تأتي من بلد غني لتعمل في بلد فقير، السوريون يسافرون للعمل في بلدك، هل أنت متأكد بأنك لم تأت لأغراض أخرى؟» فأجبته «لقد كنت أحلم بالسفر منذ سنوات طويلة، وبعد أن أنهيت خدمتي العسكرية، عزمت على السفر رغم قلة نقودي لأنني أردت أن أشعر بأن مشروع سفري صار في حيز التنفيذ». فقال أحدهم وهو يوجه لطمة إلى رقبتي «حيز التنفيذ ها».

فقلت بصوت متوسل «نعم انني أقول الحقيقة، ماذا تريدون مني بالضبط؟» فصفعني الآخر قائلا «هل تجرؤ أيها الكلب وتوجه سؤالا لنا». فسمعت زميله يقول «اتركه، سيأتي عبد العظيم ويعرف كيف يؤدبه». بعد وقت قصير دخل رجل ضخم وضع عصا خشبية لصقت عليها قطع زجاج صغيرة، وكانت مثبتة على قاعدة، وضعها على الأرض وقال لي «في الاسبوع الماضي، كان هنا أحد الأغبياء الذي لم يعترف الا بعد أن دخلت نصف هذه العصا المزججة في مؤخرته لذلك فأنني أنصحك بأن تكون ذكيا». فقلت له وأنا لا أكاد أصدق ما يقوله لي «لماذا تفعلون كل هذا، صدقني يا استاذ انني لم أفعل أي شيء يسيء لأحد، والله العظيم، وأنا مستعد أن أترك البلد حالا». فقال الرجل «حسنا حسنا» وراح يسحب حزامه الجلدي من بنطاله وباغتني من ورائي حيث أخذ يجلدني جلدات عنيفة. وحين وقعت على الأرض واصل ضربي بالحزام وبقدمه، بينما كنت أبكي وأقول «لماذا تضربونني وأنا لم أفعل لكم أي شيء» ولما راح الرجل يواصل تعنيفي صرت أشتمهم قائلا «أنتم حقراء، أنتم كلاب، سوف أشكوكم إلى سفارة بلدي» كنت قد وضعت رأسي في حضني وأطبقت عليه بقدمي وتركت الرجل يوجه ضرباته إلى أن شعر بالتعب. سمعته يبصق عليّ ويخرج. ظللت على تلك الحال إلى أن فتحت عيني فشعرت بضوء النهار يتسرب إلى الغرفة من مكان ما. فجاء أحد المحققين، وربما كان ذلك في اليوم التالي، وطلب مني أن أجلس على الكرسي فجلست. ثم دخل ضابط برتبة كبيرة نظر اليّ وقال «قم وقف على قدميك» فقمت. طلب مني ان أخلع بنطالي ففعلت، ثم طلب أن أخلع لباسي الداخلي ففعلت. التفت الضابط إلى المحقق الاخر وقال له «هذا مش يهودي عراقي» وهكذا أطلقوا سراحي بعد أن تأكدوا من كوني لست جاسوسا يهوديا. وقد حدثني الضابط وهو يربت على كتفي عن «مؤامرات الامبريالية الاميركية والصهيونية وعملائهما في المنطقة، بهدف تدمير سوريا.. الخ.. الخ». واقترح عليّ الضابط أنه من الأفضل

أن أغيّر اسمي. فخرجت من المبنى الذي كان قريبا من منطقة الصالحية، دون أن يعطوني ماء أو طعاما لأكثر من خمسين ساعة تقريبا. ذهبت مباشرة إلى الفندق، أخذت دوشا وقلت لعامل الفندق باني سأترك البلد في اليوم ذاته، فقال لي ضاحكا «طالما طلعت من الحبس بالسلامة، يمكنك أن تبقى بالبلد وتشتغل، خلاص لقد اجتزت الامتحان». في اليوم التالي ذهبت إلى شركة التأمين التي عملت فيها بضعة أيام، وأخبرت مدير الشركة بما جرى، فأخذ يرتجف وسحبني من يدي ودفعني خارج المكتب صارخا «لا أريد أن أراك هنا ثانية» ولكنني لم أتركه بسلام الا بعد أن دفع لي أجرة عملي عنده. ذهبت إلى كاراج السفريات وحجزت في سيارة أجرة متجهة إلى بيروت الشرقية. عندما وصلنا إلى بيروت الشرقية كنت الراكب الأخير في السيارة فسألني السائق «أين تنزل يا أخ» فقلت «لا أعرف» فقال «حسنا، إذا كنت لا تعرف فنحن الآن في ساحة الشهداء في الأشرفية وقد انتهت الرحلة». بعد وقت قصير من تجوالي في المنطقة ذهبت إلى فندق قريب اسمه «ألكساندرا» طلبوا جواز سفري و٥٥ ليرة لبنانية ثمن الغرفة، التي لن أنام فيها. دفعت لهم ثم خرجت لأمشي في الشوارع، مررت من أمام كنيسة مريم العذراء، ثم وجدت محلا لبيع القرطاسية فاشتريت دفترا وقلما، وهذا ما أفعله دائما. بعد ساعة من المشي وجدت نفسي أسير في شارع ضيق يؤدي إلى البحر. فجأة بدأت أسمع أصوات انفجار صواريخ، وحين نظرت إلى المدينة من بعيد، كنت أرى الصواريخ وهي تدمر بعض المباني، فقررت العودة إلى الفندق، في هذه الأثناء رأيت سيارة جيب عسكرية تقترب مني، ثم رأيت شخصا يمد قبضته نحو وجهي، ولم أفق إلا وأنا ملقى في غرفة مظلمة، وكنت أسمع هدير البحر بقوة وكأنني كنت في زورق. وضعت يدي على بطني وأنا أشعر بالجوع. ثم أخذت أطمئن نفسي، قائلا انهم من قوات الكتائب، سوف أقول لهم بأنني آشوري وجئت إلى هنا لكي أهاجر إلى أميركا عن طريق احدى

الجمعيات المسيحية، فيطلقون سراحي. بعد ساعات جاء رجل أصلع قال لي بعصبية «هل رأيت صواريخ الفلسطينيين والسوريين، أنها تصيب أهدافها بدقة. هل تعرف لماذا؟ لأن هناك جواسيس يزودونهم بالمعلومات»، فقلت «إنهم أنذال». فنظر الي مبتسما «من هم الأنذال»؟ فأجبته «الجواسيس» فصفعني بقوة «ابن الشرموطة، إذا كان الجواسيس أنذالا، فلماذا تعمل معهم؟» ثم أنهال عليّ بالضرب وأنا أردد «أنتم مخطئون، أنا آشوري وأريد السفر إلى أميركا» لكن الرجل كان عصبيا بشكل هستيري يوجه لي اللكمات والرفسات فيما كنت أفكر في سري، بأنني كنت أسمع لأول مرة هذه الشتائم باللهجة اللبنانية التي بدت لي مضحكة. فقال الرجل «كلكم تأتون إلى هنا بقصص مختلقة». بعد دقائق جاء شخص آخر وقال ماذا يا بيير، هل تريد مساعدة»؟ وراح هذا الشخص يضربني بعصا سميكة، ضربات موجعة، فأخذت أبكي وأشتمهم أقذع الشتائم. في اليوم ذاته جاء شخص آخر كان أنيقا ووسيما مثل أبطال المسلسلات اللبنانية التي كنا نشاهدها في التلفزيون العراقي وأخذ يسألني عن اقامتي في دمشق فأخبرته بأنني تعرضت للتعذيب هناك. فقال ضاحكا «تعرضت للتعذيب أم للتدريب»؟ ثم راح يدخن سيجارة كانت رائحتها كريهة جدا، فيما بعد سوف أعرف أنها سجائر «جيتان». فرويت له قصة مجيئي إلى بيروت الشرقية لكي أسافر إلى أميركا. فقال لي «ان هذه الجمعيات قد أقفلت منذ أن أندلعت الحرب الأهلية» ونصحني بقول الحقيقة وإلا فانه لا يضمن ما سيحدث لي. ثم جاء مراهق في الرابعة عشرة من عمره حاملا لي قنينة ماء وساندويتشة. رغم جوعي، أكلتها بصعوبة، أيضا فيما بعد سأعرف انها ساندويتشة «مناقيش بالزعتر». ولم أحتج إلى وقت طويل لأكتشف كم كنت ساذجا. فقد جعلني أفراد قوات الكتائب، الذين ظننت أنهم سيعاملونني بلطف، أشعر بأن اعتقالي في دمشق كان «مزحة». والسبب ان الكتائبيين كانوا يعذبونني وصدورهم مليئة بالحقد والكراهية نحو أعدائهم السوريين والفلسطينيين. في اليوم

الثالث جاءني شاب قال لي بكل هدوء «قم يا ابن الشرموطة وتعال معي». كان شابا في الخامسة والعشرين تقريبا، وكان يرتدي بنطلون جينز وقميصا أبيض، نفس الثياب التي كنت أرتديها تماما. سرنا في ممر ضيق، فمرّ من جانبنا الرجل الأصلع وقال وهو يهرول ليركب سيارة عسكرية «طوني، لا تضيع الكثير من الوقت معه». فرد الشاب «وهل عندنا الوقت لكي نضيعه» ونظر اليّ وقال ساخرا «هل سمعت يا أستاذ؟ هل تعرف ماذا يقصد؟ انه مسؤولي، ويطلب مني أن ألقي بك في البحر». فأعدت عليه قصتي وأنا أتوسل اليه «الله يخليك يا طوني، صدقني أنا بريء ولا أعرف أي شيء لا عن الحرب ولا عن لبنان». فوجه طوني ركلة نحو مؤخرتي «أمش أمامي أيها الحقير. لقد دمرتم بلدنا». ثم توقفنا في نهاية الممر الضيق عند سياج كونكريتي سميك ملاصق للبحر. أخذ طوني يداعب مسدسه وينظر إلى البحر، وقال «سوف أمنحك فرصة أخيرة. إذا أخبرتني لماذا جئت إلى هنا أعدك بأنني سأتدخل وأطلق سراحك. فكّر جيدا، عندك خمس دقائق» ثم جلس على الدكة الاسمنتية الملاصقة للبحر وأخرج علبة «الجيتان» الزرقاء وراح يدخن «عليك أن تخبرني بكل شيء قبل أن أنهي سيجارتي». فجأة أحسست أن المسألة في غاية الجدية، فقلت له بهدوء «يا طوني، اسمعني جيدا، من فضلك، أنا من عائلة آشورية فقيرة، كنت أحلم دائما بالسفر إلى أميركا لكي أشتغل في السينما. صدقني يا طوني أنا لا أعمل مع أي منظمة سياسية أو غير سياسية. أنني اقول الحقيقة يا طوني». ألقى طوني بسيجارته في البحر ووضع فوهة مسدسه في صدغي. فقلت له ببراءة «اذا قتلتني يا طوني فأن أناسا كثيرين سوف يحزنون» فرد طوني «لن يحزن أحد على موت انسان خسيس يعمل جاسوسا مأجورا».» قلت له «انني أريد أن اشتغل في صناعة الافلام، أنا لست جاسوسا». فرد طوني «هل تعرف ايها الارهابي الحقير، ما معنى السينما؟. ألم تأت إلى هنا لوضع قنبلة في كنيسة أو في مدرسة أطفال؟ ماذا تعرف عن السينما يا

ابن الشرموطة؟. لقد أنتهت فرصتك الأخيرة». فصرخت «أنني أعرف كل شيء، أنني لست مثلك ومثل رفاقك، لا تعرفون الا القتل وتدخين سجائر الجيتان»!. وحين أحسست أنه يدفع بقوة فوهة مسدسه في صدغي أغمضت عيني وبدأت أسمع دقات قلبي. بعد لحظات من الصمت، قال طوني «هل تعرف غودار؟. هل تعرف شخصا اسمه جان لوك غودار». أردت أن أهز رأسي نافيا ولكني لم أجرؤ على ذلك مخافة أن تنطلق رصاصة من مسدسه وتخترق رأسي، فقلت بصوت خفيض «لا» فعاد يسألني «ألم تسمع بشيء اسمه النوفيل فاغ»؟ فقلت «لا» فصرخ «يا ابن الشرموطة كيف تريدني أن أصدق أنك تحلم بالعمل في السينما ولا تعرف جان لوك غودار، ولم تسمع بالنوفيل فاغ. ها؟ لقد أعطيتك فرصة أخرى وفشلت فيها أيضا». في تلك اللحظة وجدت نفسي أصرخ بصوت عال: «انني أعرف كل شيء عن جون فورد، عن جون واين، عن هنري فوندا، جيمس ستيوارت، غاري كوبر، مورين أوهارا. أعرف كاثرين هيپبورن، أعرف روي روجرز ملك الكاوبويز، أعرف فيكتور ماتيور، آفا غاردنر، غريغوري پيك، ألان لاد، فيرا مايلز، راندولف سكوت، كلارك غيبل. أعرف كل شيء عن مارلون براندو، أعرف مارلين مونرو، أوليفيا دي هافيلاند، أعرف ريتشارد ويدمارك، جين راسيل، روبرت ميتشوم، أودري هيپبورن. أعرف روك هدسون، جيمس دين، أعرف جين تييرني، أعرف كلينت ايستوود، پول نيومان. أعرف رود تايلور، أعرف لي مارفن، هامفري بوغارت، بوب هوپ، ايرول فلين، جوان كروفورد، أعرف دين مارتن، أعرف كل شيء عن نورمان ويزدوم، أعرف كل شيء عن تشارلي تشابلن، أعرف كل شيء عن مونتغومري كليفت، أعرف حتى كينغ كونغ وفرانكنشتاين». عندما توقفت عن الكلام، سمعت طوني يضحك. فتحت عينيّ، كان قد أعاد مسدسه إلى مكانه، تحت حزامه: «اسمع، يا كاوبوي» قال طوني «ليكن في علمك ان السينما الهوليوودية ضعيفة قياسا بأفلام جماعة النوفيل فاغ».

فأجبته غير مصدق ما يجري «ربما». في تلك اللحظة تذكرت قرياقوس الذي كان قد سألني ذات يوم «هيه جويي، إذا سألك شخص ما، من هو أفضل سيناريست في العالم بماذا تجيبه»؟ يومها قلت لقرياقوس «دعني أفكر قليلا». ضحك قرياقوس وقال «هذا الأمر لا يحتاج إلى تفكير يا جويي. انه الله. نعم الله هو السيناريست الأعظم، خالق هذا الفيلم الذي نحيا فيه جميعا». في سيارة الأجرة التي انطلقت من بيروت الشرقية نحو دمشق، كنت جالسا في المقعد الخلفي مستمتعا برؤية المناظر الطبيعية الخلابة، نظرت إلى السماء وقلت هامسا «لكن قرياقوس لم يخبرني بأنك تحب النهايات السعيدة على الطريقة الهوليوودية». وصلنا إلى كاراج السفريات في دمشق عصرا، وعلى الفور توجهت إلى سيارات الأجرة المتجهة إلى عمان، التي وصلناها في العاشرة ليلا تقريبا، واذكر ان الطقس كّان باردا. كنت جائعا فذهبت إلى «وسط البلد» واشتريت ساندويتشة ثم سرت إلى شارع الملك فيصل ورغم انني لم أكن أملك نقودا كافية، دخلت أول فندق أعترض طريقي كان اسمه فندق «أطلس».
في الصباح وضعت كل اغراضي في الحقيبة وتركتها في مكتب الاستقبال قائلا للموظف بانني ذاهب إلى البنك. ولساعات ظللت أمشي في الشوارع، إلى أن رأيت شابا أنيقا يبيع الشاي، اذ كان قد اتخذ من كوة في مدخل احدى البنايات مكانا لصنع الشاي وبيعه على عمال المحلات التجارية في المنطقة، قلت للشاب بأنني أرغب في كأس شاي ولكنني لا أملك نقودا، فضحك الشاب وهز رأسه موافقا، وبعد أن صنع لي الشاي قدم لي سيجارة مارلبورو، وسألني ان كنت جائعا فقلت «ميت من الجوع» فقال لي أجلس «يبدو انك ابن حلال» ثم نظر إلى اخيه الصغير الذي كان يعاونه وقال «يا محمد اذهب وهات صحن حمص باللحمة لصديقنا». وفيما بعد أعطاني توفيق، كان فلسطينيا وهذا هو اسمه، نصف دينار وقال لي «دعنا نراك». فاشتريت علبة دخان ودفترا للملاحظات، وذهبت وتمددت على مدرجات المسرح الروماني حتى

العصر. حاولت أن أفكر بما وقع لي من مصائب. كنت أجد صعوبة في تفسير ما حدث، بل كثيرا ما كنت اشعر بأنني كنت أعيش داخل فيلم سينمائي وليس في الحياة. أمضيت اليوم الثاني كله في الشوارع وفي الصباح ذهبت ثانية إلى توفيق الذي سألني «هل وجدت عملا» فقلت له «لم أبحث عن أي عمل يا توفيق، لقد أمضيت اليوم كله في التفكير». فرد ضاحكا «مش مشكلة، التفكير في بعض الأحيان مفيد». ثم التفت إلى أخيه الصغير «اليوم يجب ان نطعم ضيفنا أومليت بالجبنة». وضحكنا. ظهر ذلك اليوم، اعطاني توفيق جريدة أردنية وقال لي «فيها اعلانات كثيرة». وبالفعل وجدت اعلانا عن شركة دعائية تبحث عن طباع آلة كاتبة. فذهبت مباشرة إلى مقر الشركة، فوجدت هناك رجلا بدا لطيفا جدا، أخبرني انه قام بالاعلان عن الوظيفة كوسيط لشركة أخرى، وان تلك الشركة عثرت على الشخص، ثم نظر اليّ بلطف وسألني ان كنت أعاني من مشاكل مادية، فقلت له نعم فقال لي انه يحتاج إلى طباع في مكتبه، ولكنه لا يستطيع ان يدفع راتبا جيدا، واتفقنا على أن أنام في المكتب حتى تتحسن أوضاعي، وقد وافقت على الفور، وعندما اعطاني سلفة صغيرة ذهبت إلى فندق «اطلس» وجلبت حقيبتي. كان وجيه النجار، وهو اسم المدير، محاميا وكاتبا روائيا معروفا في بلده، وكان قد علّق على جدران مكتبه الجوائز الادبية التي نالها. وهكذا اصبحت اعمل في هذه الشركة الدعائية، كان تسعون في المئة من عملي هو طبع اعلانات الوفيات اليومية، وهي كليشيه معروفة لا يتغير فيها أي شيء باستثناء اسم الشخص المتوفى، والشخص أو القبيلة التي تقدم التعازي، وقد اتقنت المهنة منذ اليوم الأول، اذ كنت اقوم بكتابة الاعلان في لحظات قليلة: بسم الله الرحمن الرحيم/ قبيلة فلان الفلاني وانسباؤهم وأقرباؤهم، تنعي بمزيد من الحزن والأسى المغفور له الحاج محمد محمود عبدالله الذي انتقل إلى رحمة الله تعالى يوم الجمعة الموافق كذا في كذا. تقبل التعازي في منزل ولده أحمد في جبل النظيف، على يمين

البنك الاسلامي، مقابل دخلة دائرة البريد المركزي، آخر موقف سيارات الأجرة، انا لله وانا اليه راجعون. كنت اطبع يوميا اكثر من مائة من هذه الاعلانات، وفي لحظة من اللحظات فكرت انه لو استمر موت الاردنيين بهذه الكثافة، فان الاردن سيصبح ذات يوم خاليا من السكان، عندها ستجد اسرائيل أرض ميعاد جديدة، فتحتلها. كان وجيه النجار يأتي كل ظهيرة، فاذهب لأجلب صحنا كبيرا من الفول والحمص وبعض قناني البيرة، ونتحدث عن العمل قليلا ثم يترك المكتب، فيما أظل أواصل عملي. وفي أوقاتِ فراغي كنت أكتب بعض القصص القصيرة. ذات يوم كتبت قصة قصيرة بعنوان «اليقظة المتأخرة» وأخذتها للمحرر الثقافي في جريدة «الدستور» فنشرها فورا وقال لي «أنت سينمائي يا ولد». قرأ وجيه النجار قصتي، التي كانت تدور حول رجل يتحدث طوال الوقت عن رغبته في العمل في السينما، ذات يوم بينما هو جالس على المدرج الروماني في عمان، ينتبه إلى انه قد بلغ الخمسين من عمره دون أن يمارس العمل في السينما، فيصدم بالحقيقة ويصاب بسكتة قلبية ويموت. قال النجار «هل هذه نبوءة بما سيقع لك في المستقبل»؟. بعيدا عن العمل الروتيني للمكتب كان النجار يرسلني احيانا لآخذ بعض الصحف والمجلات إلى قيادي فلسطيني اسمه عبد الجواد صالح، فيما بعد سوف أعرف انه كان رئيس بلدية البيرة في فلسطين، وأن اسرائيل طردته إلى الاردن، وكان عضوا في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. خلال شهرين بدأت أوضاعي تتحسن، أخذت أنشر القصص القصيرة في الصحف، ورحت أفكر بالشروع في كتابة سيناريو لفيلم طويل. ذات ظهيرة، وفيما كنا، وجيه النجار وأنا، نتناول الغداء، اقتحم المكتب أربعة أو خمسة من رجال الأمن الاردنيين وشهروا المسدسات في وجوهنا، رأيت احدهم يصفع وجيه النجار ويجره إلى الخارج ورأيت آخرين يبدأون بتفتيش المكتب، واقترب مني أحدهم ولكمني بقوة ألقت بي أرضا، وسألني ان كنت فلسطينيا فقلت «انا عراقي»، فصفعني بقوة وأشار برأسه فجاء اثنان

من رجاله واقتاداني في سيارة مرسيدس. وجدت نفسي في زنزانة في مبنى المخابرات الاردنية، حيث تعرضت لتعذيب لا يمكنني أن أصفه. ولكن يمكن أن أقول ان تعذيب رجال الكتائب مقارنة بالاردنيين يبدو «مزحة»، سألوني عن اسم التنظيم الفلسطيني الذي اعمل معه. من هو رئيس الخلية التي ارتبط بها، ومع كل سؤال كانت تأتيني الركلات واللكمات من كل حدب وصوب، وكنت أجيب وأنا شبه مغمى عليّ «لا اعرف احدا والله العظيم، صدقوني لا اعرف اي تنظيم ولا اعرف اي شخص. قرأت اعلانا في جريدة عن وظيفة شاغرة فذهبت إلى تلك الشركة، بامكانكم ان تتأكدوا من الاعلان المنشور في جريدة «الرأي». ثلاثة رجال كانوا يضربونني ولا أعرف من أين تأتي اللكمات أو الركلات وكان أحدهم يصب عليّ مياها ساخنة جدا. «أيها المجرمون تريدون تدمير النظام الملكي» قال أحدهم، فصرخت «والله العظيم انا ملكي واهلي كانوا يحبون الملك فيصل الثاني في العراق»، فضحك أحدهم ووجه لكمة إلى أنفي قائلا «يا جبان بلكمة واحدة اصبحت ملكيا» فقال آخر وهو يبصق في وجهي صارخا «لن تخرج من هنا الا بعد ان تعترف يا ابن الزانية» فصرخت في وجهه «أمك زانية، أمي من أطيب الأمهات»، وضع قدمه على عنقي فشعرت بانني ابتلعت بعض القطع المتناثرة من أسناني. عندما تركوني، شعرت انني لا اقوى على تحريك اي عضو من اعضاء جسدي فظللت نائما على الأرض لا اعرف إلى متى. حين استيقظت صرت أبكي طالبا الطعام والشراب، لكن أحدا لم يأت، ويبدو أنني غبت عن وعيي اذ حين فتحت عيني وجدت نفسي وقد نقلت إلى قاعة كبيرة وكنت محاطا بثلاث فتيات شقراوات في غاية الجمال، قمن بخياطة الشقوق في وجهي وتضميد الجروح في جسدي، وكانت احداهن تدخن سيجارتها وتضع علبة المارلبورو في الجيب الامامي لبنطالها الجينز، فيما بعد علمت انهن شركسيات. بعدها جاءني احد الذين عذبوني وقال لي «أنت محظوظ يا ابن الزانية سوف نطلق سراحك

اليوم». عندما أطلقوا سراحي علمت انهم كانوا قد قرروا تسليمي إلى الحكومة العراقية، ولكن شيئا ما حدث في اللحظة الاخيرة فتم تغيير القرار واكتفوا بقرار «الطرد من البلاد خلال اربع وعشرين ساعة». بعد ذلك علمت ايضا ان وجيه النجار كان قياديا في احدى التنظيمات اليسارية المعادية للنظام الاردني، وان زوجة وجيه النجار كانت قد اتصلت بوزير الداخلية الاردنية، الذي كان صديقا لزوجها في فترة ما. وأيضا علمت بأنني محظوظ فعلا، اذ ان ملفي كان عند رئيس المخابرات الاردنية غازي عربيات وهو «جزار حقيقي» كما قيل لي. وقد شاءت الأقدار ان غازي عربيات كان قادما صباح ذلك اليوم من احد الاجتماعات الأمنية في دول الخليج، فتعرضت سيارته لحادث اصطدام فتوفي على الفور، مما جعل ملفي ينتقل من مديرية الأمن إلى مكتب وزير الداخلية الذي ألغى قرار تسليمي إلى الحكومة العراقية. بعد خروجي من المعتقل، التقيت بزوجة النجار وعلمت منها ان زوجها سوف يبقى لفترة طويلة، اذ سبق وان سجن عدة مرات، وانه نشر ذات مرة في احدى الصحف اليومية مقالا اظهر فيه ان ميزانية نفقات العائلة المالكة في الاردن تفوق ميزانية الدولة، ولما طلبوا منه أن يكذّب تلك المعلومات، أصر على موقفه فسجن لمدة أربع سنوات. ثم اعطتني زوجة النجار صكا بثمانين دينارا فذهبت إلى البنك لأصرفه. كان الوقت غروبا فأخبروني بتوقف الخدمات فأخذت أصرخ بأنني مطرود من البلاد وأنه تم تعذيبي في المخابرت الخ إلى أن جاءني المدير وقال لي «حسنا حسنا سوف نصرف لك الصك، فقط اغلق فمك». ثم ذهبت إلى مكتب عبد الجواد صالح الذي نصحني بالتوجه إلى بيروت الغربية وزودني برسالة خاصة، بعدها مررت على صديقي توفيق وسددت له ديوني وودعته. ثم توجهت إلى كاراج السفريات في عمان، وأخذت سيارة أجرة إلى دمشق. وفي دمشق لم أمكث اكثر من ساعتين، اشتريت حذاء جديدا وجاكيتة جلدية سوداء كانت موضة في تلك الايام. ثم استقلت سيارة اجرة إلى بيروت، قلت

للسائق «أريد أن أذهب إلى بيروت الغربية» فقال لي «اصعد». خلال ساعات قليلة كنت في بيروت الغربية، في منطقة تدعى الفاكهاني، سألت عن شخص اسمه عربي عواد، فقيل لي انه زعيم الحزب الشيوعي ودلوني على مكتبه في شارع عفيف الطيبي. رحب الرجل بي وأوصى العاملين معه أن يهتموا بي. وضعوني مؤقتا في منزل شخص أخبروني انه كان يعمل مذيعا لأذاعة فلسطين وانه سافر إلى طهران ليقوم بتغطية الأحداث الايرانية بعد مجيء الخميني. بعد ايام قليلة التحقت باعلام الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي كان مقرها في قلب الفاكهاني.
كان عملي يتلخص في الاستماع إلى اذاعة اسرائيل بالعربية، ومن ثم كتابة تقرير عن أبرز ما تناولته هذه الاذاعة. وجدت العمل مملا جدا، فأخذت اسجل جميع نشرات الأخبار من السابعة والنصف صباحا حتى الخامسة عصرا على كاسيت، ثم أقوم بتفريغ الأخبار المهمة وطباعتها على الستانسل، واصدارها في نشرة مسائية أسميتها «نشرة رصد اذاعة اسرائيل». في البدء كنت أطبع ٢٥ نسخة من النشرة، لكن سرعان ما ازداد الطلب عليها، وخلال بضعة أشهر أصبحت نشرتي أهم من النشرة التي كانت تصدرها وكالة «وفا» الفلسطينية التي كان عدد العاملين فيها من فلسطينيين وسوريين وعراقيين ومصريين وسودانيين يفوق عدد صفحات «ألف ليلة وليلة». وبالاضافة إلى عمل النشرة، اصبحت المشرف على الشؤون الادارية في الاعلام، ثم أضيف إلى مهمتي الأشراف على تنفيذ واخراج مجلة «الحرية» وهي المجلة المركزية للتنظيم، كما كنت أقوم بأجراء التحقيقات الصحفية مع المقاتلين الفلسطينيين في جبهات القتال في جنوب لبنان. ثم وقعت في غرام فتاة لبنانية جميلة جدا، فعشت أجمل أوقاتي هناك. ورغم كل الأعمال التي كنت أقوم بها، ظللت بلا سكن، أنام في شرفة في الطابق الثامن من بناية الاعلام المركزي. في مساء كل يوم، كنت اشتري عددا من علب «الهاينكن» وأذهب لأستلقي على بطانية أفرشها على الأرض في الشرفة، إلى أن أنام، وعندما تحدث

الاشتباكات المسلحة بين التنظيمات الفلسطينية المختلفة، وكانت تندلع فجأة في كل أسبوع تقريبا، كنت أنقل فراشي من الشرفة إلى الداخل، خوفا من الرصاصات الطائشة، التي كثيرا ما أصابت سقف الشرفة. في تلك الفترة تعرفت على «فرانسوا» وهو شاب فرنسي كان يعمل مساعدا في الشؤون الطبية، وكان يأتي إلى الأرشيف كل ظهيرة ليطالع صحيفة «اللوموند» ومجلة «النوفيل أوبسرفاتور» اللتين كانتا تأتياننا بانتظام. في أحد الايام، ذهبت مع فرانسوا إلى مطعم «الشموع» قرب جامعة بيروت العربية، طلبنا صحنين من الفول وبعض الفلافل وطبعا بضع قنان من الهاينكن (لماذا كنا نشرب الكثير من الهاينكن في تلك الايام؟)، فجاء رجل مسلح ووضع فوهة رشاشته في صدغي وظل يصرخ «يا حقير، يا سافل، يا منحط» وأخذ يردد كل الكلمات البذيئة الموجودة في القاموس، وهو يدفع بعنف، فوهة الكلاشنكوف في صدغي، وكان جميع الزبائن يتطلعون الينا وكأننا في مشهد سينمائي (وهل هناك أي فرق بينهما؟). فقلت للرجل بصوت هادئ «يا رفيق لماذا تعتدي عليّ وأنا لم أفعل لك أي شيء»؟ فرد بغضب «أنا مش رفيقك يا وغد». فقلت له «أنك تؤلمني يا أخي يا رفيقي، أبعد السلاح عن رأسي ودعنا نتفاهم» فرد «لو كنت تعرف معنى الألم، يا جبان، لما جرحت مشاعر الآخرين وعرضت شرفهم لكلام الناس». ثم نظرت إلى فرانسوا وكأنني أطلب تدخله فقال فرانسوا بالعربية «الرفيق سامي، رفيق جيد». فرد عليه المسلح. «أنا أعرفك، أنت طبيب فرنسي لطيف لا تدافع عن هذا النذل». فسألني فرانسوا بالانكليزية «ماذا فعلت له»؟ فأجبته «لا شيء، صدقني». فدفع الرجل فوهة رشاشته في صدغي وقال «هل تنكر أنك اعتديت على أختي الصغيرة»؟ وعندما سمعت انه يسحب أقسام الرصاص قائلا «سوف أفجر رأسك»؟ قلت له «لا أعرف ماذا يوجد في رأسي لكي تفجره. عندما اعتقلت عند الكتائب أرادوا تفجير رأسي، وها أنا أواجه نفس المصير عند الفلسطينيين، لماذا يحدث لي كل هذا؟ إنني شاب

طيب وخدوم». فسألني المسلح بصوت رقيق «هل فعلا كنت معتقلا عند الكتائب»؟ فأجبته «نعم». حينها أبعد سلاحه عن رأسي وقال «أعتقد انني أخطأت معك» وأخذ يقبل رأسي «سامحني يا رفيق». دعوناه للجلوس معنا وطلبنا له الطعام والشراب، كان في الأربعين من عمره، بدا سعيدا وهو يُجهز على قنينة الهاينكن بجرعتين. ولما أحسست بأن صاحبنا «شريب» كبير، وأنه يحمل سلاحا أوتوماتيكيا، دفعنا الحساب وخرجنا من مطعم «الشموع». وبعد فترة انتقلت للسكن في غرفة صغيرة في أحدى بنايات الفاكهاني كانوا يطلقون عليها «الشيراتون». كنت أقضي الليل في الشرب مفكرا في السينما، حيث تمر في مخيلتي صور أهلي الذين لم أتصل بهم منذ سفري. كنت أتألم وأنا أرى المسافة بيني وبين السفر إلى أميركا تتوسع وتتعمق وتكاد تصبح رحلة مستحيلة. ذات صباح قررت أن أنهي أقامتي في بيروت، فقمت بمفاتحة الدكتور مختار، مدير الاعلام قائلا «يا رفيق، لقد خرجت من العراق وأنا أريد السفر إلى أميركا لأصنع الأفلام» فرد مختار بسرعة «أميركا. كيف تفكر بالسفر إلى هذا البلد الامبريالي البشع»؟ وراح يلقي عليّ محاضرة مملة عن الامبريالية والاستعمار، وعن حركات التحرر العالمي...»، وعدت لأقول له «يا دكتور، أنا لا علاقة لي بالسياسة. لقد أديت الخدمة العسكرية في بلدي، وها أنا اشتغل معكم ثلاث سنوات، أرجوك ساعدني». وأصبحت أردد هذا الطلب يوميا تقريبا، فكان الدكتور مختار يبتسم ويرد «سوف نرى». وكم كان حظي سيئا، ففي الاسبوع الذي كنت أخطط فيه «للهروب»، حدثت مجزرة الفاكهاني. ففي صبيحة يوم الجمعة، ١٧ تموز ١٩٨١ وأنا خارج من غرفتي، التقيت بفرانسوا أمام البناية، فقال لي انه قرر أن يأتي في الليل ليسهر عندي، فقلت له حسنا سوف أقوم بالترتيبات اللازمة، فمدّ يده في جيبه وأعطاني (١٥) ليرة وقال ضاحكا «هات لنا قنينة نابليون، لنسكر الليلة». كان تحليق الطائرات الاسرائيلية فوق بيروت قد أصبح أمرا مألوفا بالنسبة لنا، لذلك

لم نعر أي اهتمام للطائرات التي كانت تحلق في السماء في تلك اللحظة، ولكن ما ان أبتعد فرانسوا بضع خطوات مودعا أياي بابتسامته الجميلة، حتى ألقت الطائرات الاسرائيلية بحمولتها فوق الفاكهاني، فحولت الحي السكني إلى جحيم، وجعلت من ذلك النهار المشمس مكانا مظلما. وقد أنتظرنا أكثر من ساعة حتى تزيل الريح دخان القنابل وغبار البنايات، حيث عثرنا على مئات القتلى من الاطفال والنساء والرجال، وكان فرانسوا أولهم. وقد نقل جثمانه للدفن في فرنسا.
أجلت سفري لبعض الوقت حتى ننسى مجزرة الفاكهاني. بعد فترة قمت بشراء وثيقة سفر لبنانية للاجئين الفلسطينيين، وسافرت إلى قبرص للعمل في احدى المجلات العربية التي كانت تصدر في نيقوسيا. في البدء عملت في الأرشيف، ثم أخذت أنشر مقالات عن السينما، حيث سافرت إلى مصر عدة مرات وكنت في كل مرة أقيم شهرين أو ثلاثة، أتابع نشاطات الاستوديوهات السينمائية، وأجري الحوارات مع نجوم السينما المصرية. ولما انتهى مفعول وثيقة السفر، سافرت إلى تونس ومن هناك حصلت على رسالة توصية من مكتب ياسر عرفات وسافرت إلى عدن. بما انني لم أكن منتميا إلى أي تنظيم، فلم يستقبلني أحد، فقضيت اليوم الأول نائما على الشاطئ. في عدن بعت كاميرتي الفوتوغرافية-وآلة التسجيل وقمصاني وبنطلوناتي الجديدة. ظللت طوال أسبوع أتردد على مقر رئاسة الجمهورية إلى أن تمكنت من اللقاء بالشخص الذي أبحث عنه وكان مستشارا لرئيس الجمهورية، فأخذني بسيارته إلى فندق سياحي اسمه «الشاليهات» يقيم فيه العديد من الخبراء الروس آنذاك. بعد أيام حصلت على جواز سفر يمني، سافرت إلى نيقوسيا لكن المجلة اعتذرت عن تشغيلي. في تلك الأيام اندلعت الحرب بين قوات ياسر عرفات وقوات المنشقين عنه، المدعومين من النظامين السوري والليبي، وكان عرفات يواجه قتالا ضاريا، وكان محاصرا مرة أخرى، فقيل لي ان هناك طبيبات من النرويج أو الدانمارك،

لا أتذكر، جئن بأكياس عديدة من الدم تبرعا للجرحى الفلسطينيين في مستشفيات طرابلس، وسألوني ان كنت مستعدا لأرافقهن، فقلت لهم نعم. في المساء كنت اشرب جين تونيك في «Coach pub» مع صاحب البار صديقي القبرصي نيكوس، فأبلغته بأنني سأسافر إلى مكان ربما لن أعود منه. فابتسم نيكوس وقال «هل أنت ذاهب إلى شمال لبنان» فقلت له «نعم». هز رأسه وقال «كل شيء بالنسبة لك مثل السينما». في ذلك المساء، أحسست لأول مرة بالرغبة في أن أكلم أهلي وكان معي تلفون منزل جارتنا الحاجة أم أحمد، فاتصلت بهم، تحدثت مع أمي التي أخبرتني أنهم كانوا يعتقدون أن مكروها قد وقع لي في بيروت، ولم تقل لي «سمعنا أنك مت» مثلا. ثم طلبت منها أن أتكلم مع أبي فضحكت وقالت «لا تزال مجنونا يا ولدي» وبعد لحظات جاءني صوته «آ آ آ آ هو هو آ آ آ هو هو هاهاها» فأجبته وأنا اضحك «أنني أفهمك يا أبي، نعم، أني أيضا أحبك، صدقني لم أنس شيئا، ولن أنسى، قريبا سوف أحقق أحلامنا». فرد عليّ مرة أخرى «آ آ آ آ هو هو آ آ آ هو هو هاهاها» فأخذت أحدثه بنفس لغته «آ آ آ آ آ هاهاها أو أوه أوه هاه هو ها آ آ آ». كانت الدموع تغطي وجهي، حين مدّ نيكوس يده وقطع المكالمة. في الطريق إلى طرابلس اللبنانية، رأيت مركبنا الصغير، الذي انطلق من لارنكا، صاعدا وهابطا بفعل الأمواج العملاقة. أذكر ان احدى الطبيبات نظرت اليّ وقالت «أنك تبدو مثل البحارة» فداخلني بعض السرور، لانني أحسست بأنني ربما أصلح أن أكون ممثلا. كنا لا نزال في البحر حين جاء القبطان وقال لنا «لقد أجتزنا الخطر»، وكان يقصد اننا أجتزنا خطورة التعرض للقرصنة من قبل الاسرائيليين، الذين كانوا قد استولوا على عدة مراكب في ذلك الوقت. قبل أن نصل ميناء طرابلس، رأينا من بعيد، تساقط الصواريخ فوق المخيمات الفلسطينية الموالية لعرفات، وقد تم نقل «أكياس الدم» الاسكندنافية فورا إلى المستشفيات الفلسطينية واللبنانية. أما أنا فذهبت للبحث عن صديقي

خليل سلمان الذي كان قد أصبح أهم مساعد لعرفات وأبو جهاد.
وضعني خليل سلمان في شقة جميلة في منطقة «الزاهرية»، وفي المساء جاء احد مساعدي أبو جهاد واسمه اسماعيل، وكان شابا وسيما وغاية في اللطف، وقال لي «أنا لا أقيم هنا، ولكنني أمتلك المفتاح» ثم قال مبتسما «يجب أن تفرح لمجيئي لأن معي الكثير من «اللحم بعجين»، وفيما بعد عرفت أن اسماعيل ينام في شقق مختلفة، لأسباب أمنية.
عندما استيقظت في الصباح ودخلت الصالون وكنت بثيابي الداخلية فوجئت بياسر عرفات وأبو جهاد يتناقشان بعصبية عن أجواء المعارك الدائرة. قلت لهما «صباح الخير» فردا التحية، فشعرت بالخجل، وعندما دخلت المطبخ رأيت مجموعة من المرافقين يشربون الشاي ويدخنون بشراهة. وبعد أن خرج ياسر عرفات وأبو جهاد والمرافقون، انتبهت إلى وجود بقع من الدماء وقطع زجاجية على الموكيت، كما لاحظت أن اللوح الزجاجي الذي يغطي الطاولة كان محطما. في اليوم التالي رأيت في الصحف صورة لياسر عرفات وكانت يده مربوطة بالشاش، فخمنت أنه كان قد كسر بقبضته زجاج الطاولة. بعد أيام من المعارك الطاحنة، كانت قوات المنشقين المدعومين من سوريا وليبيا تتقدم بقوة، وأخذت الاخبار تتحدث عن وساطة فرنسية لاخراج عرفات وقواته من طرابلس لبنان إلى تونس، فأصدر عرفات قرارا بسحب كل الأموال من البنوك اللبنانية، حيث قام خليل سلمان بتوزيع الكثير من الليرات اللبنانية على عدد من الصحافيين العرب واللبنانيين، الذين جاؤوا من أمكنة كثيرة، وكانوا من المساندين لعرفات اعلاميا، وعندما قلت لخليل سلمان «أريد العودة إلى نيقوسيا» أعطاني حقيبة جلدية صغيرة مليئة بالليرات اللبنانية.
أستأجرت مركبا صغيرا، مع مسافرَين آخرَين، وعدت إلى قبرص. في البنك الشعبي القبرصي قمت بتحويل الليرات إلى الجنيهات القبرصية، فكانت ما يعادل خمسة آلاف جنيه قبرصي. كنت أسهر في «Coach pub» وفي آخر الليل أذهب للسهر في المراقص مثل «غالاكسي»

و«سكوربيون» هناك تعرفت على فتاة هولندية، قالت لي أنها تعرف محلا يقدم وجبة فطور رائعة لكنها نسيت اسمه واضافت «لن تصدق كم هي لذيذة» فذهبت معها وكانت الساعة الخامسة صباحا، فاكتشفت ان الوجبة التي حدثتني عنها اسمها «باجة»، فقلت لها ضاحكا «انها أكلة شعبية في العراق، وغالبا ما يتناولها العمال والجنود في الفجر، وان الباجة أكلة تركية وليست قبرصية». اقترحت عليّ أن نذهب لنقضي بضعة أيام في قرية صغيرة وجميلة اسمها «أيانابا». ثم سافرت إلى تونس، حيث أستأجرت هناك منزلا في منطقة سيدي بوسعيد المطلة على البحر، وعشت حياة حانات ومطاعم وأغرمت بفتاة تونسية. وعندما أفلست، اتصلت بصديقي خليل سلمان الذي عينني مراسلا لمجلة «البلاد» التي كان يرئس تحريرها في قبرص. في تلك الفترة كان صديقي الشاعر التونسي مصطفى الحداد يحثني يوميا عن ترك تونس والتوجه إلى اوروبا. لا أنسى انه قال لي «العالم العربي مقبرة ضخمة»، وحين طلبت فيزا من السفارة البريطانية جاءني الرفض. وحين قدمت طلب فيزا لباريس، أبلغوني في السفارة أن الأمر يحتاج إلى موافقة وزارة الداخلية، قدمت طلبي ورحت أنتظر. وشيئا فشيئا بدأت أشعر بالضياع، وعادت أحلامي السينمائية تراودني في الليل، ولم أعد أستطع النوم، فأخذت أشرب الكثير من الكحول، ولم أتردد حتى في شرب «البوخا» (ويسميها البعض بفودكا اليهود) في الصباحات. كما انتهت علاقتي بصديقتي زهرة. شقيقها، الذي كان يتاجر بالمخدرات في السويد واصبح متدينا بعد عودته إلى تونس، هددها بالقتل «ان واصلت اللقاء مع ذلك العراقي الكافر».
في أحد أيام الكريسماس، كنت ماشيا في «باب السويقة» (السوق الشعبي في العاصمة تونس) فرأيت على واجهة محل شعبي للحلاقة صورة رجل وهو يختن طفلا. توقفت للحظة وأخذت أفكر، ثم وجدت نفسي أدخل المحل وأقول للرجل «هناك شاب في الثانية عشرة من عمره، يقيم عندي في سيدي بوسعيد، ما رأيك لو تأتي لختانه، وأنا أدفع لك أجرة التاكسي

أيضا». فحمل الرجل حقيبته وجاء معي، وعندما وصلنا إلى بيتي قلت له «يا حاج، لا يوجد طفل في الثانية عشرة، الشاب الذي حدثتك عنه، هو أنا، وعمري ٢٨ سنة، وأريد أن أختن نفسي». وقف الرجل للحظات ثم أخرج سيجارة من جيبه وقال «لا مانع. اذكر انني ختنت شابا فرنسيا كان في الثلاثين من عمره، ولم أسمع بأخباره فيما بعد». ثم باشر الرجل العجوز بختاني دون بنج، وقد ساعدته في ذلك. ورغم ان العملية كانت مؤلمة جدا، إلا أنني كنت أنظر إلى الرجل وكأنه يقتطع قطعة من جسد شخص آخر وليس من جسدي. أحيانا أتساءل أإلى هذا الحد كنت مدمرا نفسيا؟. حين أنتهى الحلاق من عمله قال لي مبتسما «ها هو الله أدخل الايمان إلى قلبك» وأضاف وهو يشعل سيجارة «أنا سعيد لأنك اصبحت مسلما على يدي»، نظرت اليه لبرهة ولا أدري كيف قلت له مازحا دون أن أعلم بالعواقب «ولم لا أكون يهوديا يا حاج، اليهود يختنون أيضا». لم يرتح الرجل لكلامي فقال بصوت مبحوح «أعطني أجري من فضلك». أشرت له إلى بنطال الجينز المعلق على الباب، فجلبه لي نقدته ما يريد وخرج حزينا. ظللت طيلة يومين منطرحا على الأرض أصارع الألم. وقد تذكرت أبي الذي كان يمرر سبابته اليسرى فوق سبابته اليمنى، ثم يمسح أنفه كأنه يمخط وكان يعني: أن أصحاب الذكور المقطوعة، أناس وسخون. كان الوقت ظهرا عندما سمعت طرقا على الباب فصرخت بصوت عال «أدخل، الباب مفتوح» فرأيت حنان، صديقتي الجزائرية التي كانت قد بدأت باعطائي بعض الدروس الفرنسية. رويت لحنان ما حدث فوقعت على الأرض وهي تضحك، ثم ذهبت واشترت دجاجة مشوية وقنينة من النبيذ الأحمر، ولما عادت كانت ما تزال تضحك. بعدها زارني صديقاي خميس ومحمد العيوني، وما أن علما بالأمر حتى أنفجرا ضاحكين أيضا، قال لي محمد العيوني «أعرفك أيها المجنون، لقد قمت بهذا لتسخف كل شيء»، فيما كنت أهمس لنفسي «لقد قطعت العضو المشبوه والامبريالي في جسدي!» بعد يومين

جاءني أحد خدم مطعم «الناظور» القريب من منزلي، ليعلمني ان موظفا من السفارة الفرنسية اتصل ليبلغني بوصول تأشيرة الفيزا الخاصة بي، وانه يمكنني مراجعة السفارة في أي وقت أشاء. نزلت إلى الصيدلية في وسط سيدي بو سعيد واشتريت بعض الادوية وفي اليوم التالي ذهبت إلى صديقي خليل سلمان الذي أعطاني ما يقرب الثلاثة آلاف دولار، فسافرت إلى باريس. بعد فترة تعرفت على فتاة فرنسية اسمها فاليري، أصبحنا صديقين. أخذتها إلى السينما، وكنت أبهجها بحكاياتي عن طفولتي وعشقي للسينما. ذات يوم وكنا في شقتها، قلت لفاليري انني مضطر لأن أعود إلى الفندق. قالت لي «يمكنك البقاء هنا» فاعتذرت لها ثانية واتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي، فراحت تنظر اليّ باستغراب. وقد حصل نفس الأمر في اليوم التالي، اذ لاحظت فاليري انني كنت اتحاشى لمسها. كنت في كل مرة أريد أن أخبرها بأنني كنت ما أزال أعاني من آثار عملية جراحية أجريتها مؤخرا فكانت شجاعتي تخونني. ولغبائي الشديد، فضلت أن أختفي عن أنظارها لبضعة ايام. ولما شعرت بأن كل شيء على ما يرام، اشتريت باقة زهور وذهبت إلى شقتها وطرقت الباب، وحين انفتح الباب، رأيت شابا أفريقيا أمامي. قلت له أنني ابحث عن فاليري، فقال لي انها تأخذ دوشا. قلت له أنا صديق قديم، فقال لي انه صديقها الجديد وانه من ساحل العاج. أعطيته الزهور وقلت له سوف أمر لأسلم على فاليري في يوم آخر. ضحك الشاب وهو يغلق الباب.

«هل أنت متأكد انه كان من ساحل العاج؟». سألني الموظف في دائرة اللجوء السياسي وهو يقوم من مقعده، حاملا بيده الملف الخاص بطلبي اللجوء في فرنسا.

«من؟».

«الشاب الذي سرق صديقتك»!

«اعتقد ذلك. هل هذا مهم بالنسبة لملفي»؟

«لا، لا». رد الموظف وأضاف مبتسما «فقط أحببت أن أعرف ان كان من ساحل العاج»!.

كيانتي وموتساريلا

منذ اليوم الأول لأقامتي في مركز «لو روشتون» للاجئين، أقنعت نفسي بانني كنت بحاجة إلى مثل هذا المكان الساحر حتى أتمكن من كتابة السيناريو الذي كان يراود ذهني منذ فترة طويلة. بالفعل كتبت خلال بضعة اسابيع مشاهد عديدة من السيناريو الذي أسميته «الحنين إلى الزمن الانكليزي».

كنت أتقاسم غرفة واسعة ونظيفة مع رحيم وهو لاجئ من افغانستان. وقد كنت محظوظا لأن طابعتي كانت يدوية، اذ كنت أضطر إلى ترك غرفتي مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، لأن صديقي رحيم كان يعيش قصة غرامية مع لاجئة اثيوبية، كانت شبقة جدا على ما يبدو، فكان رحيم كلما أراد مضاجعتها يطلب مني مغادرة الغرفة لبعض الوقت. كنت أحمل طابعتي واخرج للعمل في أي مكان من حديقة المركز الكبيرة. كنت في مرات كثيرة أتوغل بعيدا في الغابة، وقد شعرت في بعض الاحيان بانني كنت لاجئا عند صديقي الافغاني وليس عند الدولة الفرنسية.

«هي التي تريد، وليس أنا، صدقني». كان رحيم يقول لي وهو يبتسم بخجل.

حين كنت أتقابل مع الفتاة الاثيوبية في الممر المؤدي إلى غرفتي، كانت تسألني بكل ثقة «كيف حال الكتابة معك؟ متى ستنجز السيناريو

لكي نقرأ؟» وفي إحدى المرات قالت «إنني أسمع في كل ليلة صوت طابعتك تخترق نافذتي تاك تاك تاك، لابد أن ترتاح قليلا». كنت أود أن أقول لها «ايتها العزيزة، لماذا لا ترتاحين أنت قليلا، أنت تفعلين تاك تاك تاك ثلاث مرات يوميا في غرفتي، دون أن تشبعي». لكنني لم أفعل.

كان العديد من اللاجئين يرتبطون بعلاقات عاطفية مع اللاجئات. الهنغاري الذي كان يشتم «ذي راشينز» (الروس) بمناسبة وبدون مناسبة لم يكن يبارح غرفة اللاجئة البولونية وهي شقراء في غاية الكسل لا أعرف كيف قمت بزيارة غرفتها التي كانت عبارة عن مزبلة تملؤها رائحة سجائر «جيتان» الكريهة. أما كمال التركي، فكان قد دبر أمره مع مارينا، وهي أرملة روسية ممتلئة كثيرا ما كانت تؤلب كمال لكي يقوم بتأديب «ذي بيغ» (الخنزير) وكانت تعني الهنغاري الاشقر صاحب الجثة الضخمة. أما جوني، الجنوب افريقي، فكنت أراه يلعب طيلة اليوم كرة المنضدة مع الايرانية زينب، ولا أعرف ان كانت علاقتهما قد تجاوزت «البنغ بونغ».

كانت معنا أيضا مجموعة من اللاجئين السريلانكيين الذين كانوا في غاية اللطف والكرم. وبالرغم من ان المركز كان يوفر لنا ثلاث وجبات طعام يوميا، فان السريلانكيين كانوا يقومون باعداد أطعمتهم الخاصة، وكانت رائحة التوابل تجعلنا نشعر بأننا نقيم في مطبخ مطعم هندي وليس في بناية كتب عند مدخلها «لو شاتو» (القصر)، وهنا يمكنني القول انني كنت محظوظا أيضا، فحين كان رحيم «يطردني» من الغرفة في المساءات، كنت ألجأ إلى السريلانكيين الذين كانوا يضعون أمامي أطباقا متنوعة من أطعمتهم الشهية. كانوا يستقبلونني بالضحك وهم يقولون «هذه الاثيوبية فتاة جدعة بالفعل».

كان السريلانكيون يحتلون سبع غرف من «الشاتو» ومع ذلك كنت

أراهم دائما معا، بغض النظر عن الغرفة التي ألجأ اليها. لم أفهم سر ذلك أبدا. لقد اعتقدت في فترة ما، انهم كانوا قد حطموا الجدران فيما بينهم. وحين أشرت إلى هذا الأمر في حديثي مع صديقي لانغام أجابني ضاحكا «هل هذا ما يفعله بك النبيذ الرديء الذي تشربه؟» واضاف «لا أحد يستطيع أن يعرف ما يدور خلف جدران السريلانكيين».

كان لانغام يتحدث معي واضعا يديه في جيبه، وكان قد اكتسب هذه العادة منذ أن بدأ العمل في مطعم فرنسي، وصفه لي بانه «من أفضل مطاعم باريس على الاطلاق، ويرتاده الفنانون الذين تتحدث عنهم طوال الوقت». ولما سألته، وكنا نتحدث بالانكليزية كعادتنا، عن اسم ومكان المطعم رد لانغام بالفرنسية «انه ليس بعيدا عن كنيسة المادلين». كنت على وشك أن أنفجر من الضحك، لأن الكثير من اللاجئين انقطعوا عن متابعة دروس اللغة الفرنسية بسبب لانغام، الذي كان يهدر أوقاتنا بمجادلاته العقيمة مع معلمتنا، فاطمة، الجزائرية الأصل.

كانت المعلمة تطلب منه أن يقرأ ضمير أنتم Vous أو نحن Nous وكان لانغام ينطقها هكذا Vooz وNooz بينما النطق الصحيح هو «فو» ولنو» (بدون S). كانت المعلمة تضطر ان تخفي بيدها حرف الـ (S)، فكان لانغام ينطق الكلمة بشكل صحيح (فو) وعندما ترفع يدها كان ينطقها (فوز) كانت هذه الحكاية تستمر لدقائق طويلة، كنا نشعر بالملل ونفكر بالخروج للتدخين. كانت المعلمة تقول له «تجاهل حرف الـ S يا أخي» فيرد عليها بعناد (It's not logic There is an "S"). وذات مرة كتبت المعلمة على السبورة Where وقالت له اقرأ هذه الكلمة، فقرأها صحيحة. فقالت له المعلمة مازحة «ولكنك لم تنطق حرف H» فوضع لانغام يديه حول خصريه قائلا «انظروا، انها لا تعرف الفرنسية، وتحاول الآن أن تدمر اللغة الانكليزية»! ولما أردنا الخروج من الصف، وقف لانغام في الباب وأصرّ أن يروي لنا الحكاية التالية «أمس بعد أن اشتريت

بعض الحاجيات سألت البائع كم الحساب. فقال لي شيئا نسيته» ثم نظر إلى المعلمة وسألها «من فضلك كيف نقول ٩٠ بالفرنسية».

«كاتر فان ديس». أجابت المعلمة.

فأخذ لانغام يضحك «كاتر فان ديس. إذا ترجمناها يعني (أربعة عشرينات وعشرة) ثم ضرب يدا بيد «هل هذا معقول»!

ذات مرة، كنت ألعب البنغ بونغ مع معلمتنا فاطمة حين قالت لي «ان ما يقوم به لانغام أمر طبيعي، انه يحاول أن يدافع عن نفسه، لانه يواجه شيئا جديدا. اؤكد لك بانه سيتكلم الفرنسية في وقت قريب»، وقد كانت على حق.

جلس رحيم على الرصيف المضلل بأشجار الشوك الكبيرة وقال لاهثا «أنت غريب الأطوار، مشينا أكثر من ساعتين دون أن يبدو عليك التعب». فقلت له وأنا أنظر إلى قدمي، وكنت ارتدي ثيابا رياضية، «لقد قضيت كل طفولتي كبائع متجول، لذلك أشعر أن بامكاني المشي حتى باريس بلا توقف».

«ماذا كنت تبيع»؟ سأل رحيم وهو يضع يديه تحت رقبته وينظر اليّ.

«في الصيف كنت أبيع الآيس كريم وفي الشتاء أبيع الساندويتشات وأحيانا الحلوى المصنوعة من التمر التي كنا نسميها سمسمية». ثم نظرت إلى رحيم وسألته «هل تريد أن أروي لك بعض الحكايات عن قدميّ»؟

«نعم، من فضلك» أجاب رحيم.

«كنت أدور طيلة اليوم بعربتي متنقلا من مدرسة البنات إلى مدرسة البنين، بعدها أدور في الشوارع، إلى أن أستقر في المساء أمام صالة السينما. في الشتاء كنت أموت من البرد، وفي الصيف كانت الشمس تحرق رأسي وتذيب أسفلت الشارع، وكثيرا ما كانت عجلات العربة تطمس في الأسفلت فكنت استخدم كل قوتي لاخراج العجلة من الحفرة، كانت اصابع قدمي تنزلق من الصندل البلاستيكي وتنغمس في

الأسفلت الذائب، ومع ذلك كانت قدماي تتشبثان بالأرض حتى تندفع العربة إلى الأمام. في المساء كانت أمي تبلل قطعة من القماش بالنفط وتزيل بقايا الأسفلت العالق بأصابع قدمي الصغيرة. أما حين كنت ألعب كرة القدم، فان زملائي كانوا يفتحون أفواههم وهم ينظرون إلى الكرة التي أركلها، سواء بقدمي اليمنى أو اليسرى، وهي تنطلق مثل الصاروخ نحو المرمى. أقسم انني ذات يوم حين طلبوا مني تنفيذ ضربة جزاء، نظرت إلى الكرة ثم ركلتها بقوة، فألقى حارس المرمى بنفسه في الهواء، وداخ الجمهور وهم يلوون رؤوسهم بحثا عن الكرة التي اختفت فجأة، وقد ذهلوا حين انتبهوا إلى ان الكرة كانت عالقة بأصابع قدمي التي ثقبتها».

«أنت تقتلني من الضحك» قال رحيم وهو يبسط جسده على الرصيف الترابي.

كنا في الطريق العام الذي يربط بين مدينتي مولان وفونتانبلو، نتحدث دون أن نأبه للسيارات التي كانت تقطع الطريق طوال الوقت.

«رحيم، اسمع هذه الحكاية. ذات ظهيرة كنت أتجول بعربتي فرأيت شابيرا (يعني «جميل» بالاشورية) يتدرب في ملعب كرة القدم استعدادا لسباقات الركض في المحافظة، تركت العربة وذهبت أتحدث معه. سألته «شابيرا، هل ترى تلك الصخرة»؟ هز رأسه بنعم. فقلت له «تعال لنر من منا يستطيع أن يحركها». كان شابيرا في الثامنة عشرة وكنت في العاشرة. ضحك شابيرا وراح يحاول بكل قوته تحريك الصخرة، وكاد أن ينفجر قبل أن يتمكن من زحزحة الصخرة بضعة سنتيمترات. ولما جاء دوري، غرزت أصابع قدمي في الأرض ودفعت الصخرة فتحركت في لحظة واحدة. «كيف فعلت ذلك»؟ سألني شابيرا متعجبا. فقلت له «انظر إلى الأرض وقل لي ماذا ترى»؟ قال شابيرا «لا أرى الا حفرا صغيرة». فقلت

له «انها آثار أصابع قدمي». فظل شابيرا يهز رأسه مثل الأبله. وقبل أن أتركه قلت له «اسمع يا شابيرا، اربط عجلة تراكتور بحبل سميك ولف الحبل حول خصرك وأركض كل يوم ولا تلق العجلة الا في يوم السباق، وسوف ترى النتائج». وقد جاءني شابيرا ذات مساء وكنت أبيع الساندويتشات أمام صالة السينما، وأخبرني بفوزه بثلاث ميداليات.

كان الوقت مساء، وكنت أقف عند مدخل «الشاتو» أدخن سيجارتي، بعد أن تركت الغرفة لرحيم وصديقته الاثيوبية. رأيت مايا، السريلانكية، تقترب مني وهي تحمل رضيعها.

«كم مرة يلقون بك في الخارج» قالت مايا ضاحكة.

«انت شيطانة، مايا» قلت لها.

«ذات مرة قالت لي جدتي، ان القصص الغرامية مثل العطور الفاخرة، تضعها في غرفة نومك فيشمها جيرانك».

«انه كلام جميل» قلت لها وأخذت ألاعب طفلها «انظري الي عينيه، يا لهما من عينين جميلتين، انهما مثل نافذتين فاخرتين».

«للاسف انها نوافذ بلا منزل» قالت مايا بصوت مليء بالأسى.

كانت الساعة تقارب السادسة والنصف مساء، فقلت لمايا انني ذاهب لشرب قنينة من البيرة في البار قبل أن يدق جرس العشاء. هناك رأيت مارينا وصديقها كمال يشربان بلودي ميري.

«هل تريد ان نطلب لك واحدة» سألتني مارينا.

«بل جئت من أجل قنينة من البيرة» أجبتها.

بعد أقل من دقيقة نظرت مارينا يمنة ويسرة وقالت «ذلك الخنزير الهنغاري، رأيته ظهر اليوم يسرق من الكانتين علبة خردل، كنت أتمنى ان أفرغها في أنفه».

«انسه، انه مجرد شخص بائس، لا داعي لإضاعة الوقت» قال كمال ثم نظر اليّ قائلا «هل انجزت كتابك»؟

قبل أن أجيبه، جاءت فتاة في العشرين من عمرها وجلست معنا، فقالت مارينا «انها كاتي من الولايات المتحدة التقينا ظهر اليوم». فأخبرتنا كاتي أنها أمضت شهرا في (ايكس بروفانس)، وأنها سوف تبقى في مركز «لو روشتون» اسبوعا، حيث تقوم بدورة تدريبية في «فنون الفندقة والمطاعم». فعاد كمال ليسألني من جديد ان كنت قد انجزت كتابي، فقلت له «انني اكتب سيناريو وليس كتابا».

«وما الفرق» سأل كمال وهو يشرب جرعة من البلودي ماري.

«السيناريو يكتب خصيصا للسينما» قالت مارينا.

«ما هو موضوع السيناريو الذي تكتبه» سألتني كاتي.

«آسف، لقد تحدثت عن هذا الأمر مرات كثيرة، خصوصا أمام مارينا وكمال». أجبتها بشيء من الحرج. فنظرت كاتي اليّ وقالت بكل حماس «سوف أجلب قنينتين من البيرة» وأخذت تتلفت حولها «تعال لنجلس هناك تحت تلك الصورة» وأشارت إلى صورة كبيرة لفيكتور هوغو، وقد كتب تحتها «لا تنسوا، هو أيضا كان لاجئا ذات يوم». عندها سمعنا صوت جرس العشاء، فتوجهنا إلى المطعم.

في الأيام التالية أصبحت كلما ألتقي بكاتي تسألني مازحة «متى ستحدثني عن قصة السيناريو» إلى أن جاءت إلى غرفتي وأبلغتني انها سوف تغادر بعد يومين، واقترحت أن نعمل بيكنيك في الغابة «وهناك يمكننا أن نتحدث كما نشاء».

«كان الوقت عصرا، وكان يلعب الدومينو مع أبيه، الأخرس الأطرش، يومها نهض الأب فجأة، أخرج من الثلاجة قنينتين من البيرة، وأشار لولده أن يتبعه، ثم سارا وجلسا عند السكة الحديد القريبة من المنزل. أشار الولد بسبابته اليمنى إلى الأرض، ثم مد يده اليمنى

وحركها يسارا ويمينا (ماذا نفعل هنا)؟ رفع الأب سبابته اليسرى وضغط بها تحت عينه اليسرى (سوف ترى) ثم ابتسم وضرب قنينته بقنينة ولده كأنه يقول «في صحتك».

عندما سمع الولد صفارة القطار، لاحظ أن أباه مد في نفس اللحظة يده اليمنى في جيبه وأخرج درهما معدنيا، وضعه وسط راحته اليسرى وأخذ يقلبه أمام عيني ولده، وأشار إلى وجهي العملة (الصورة والكتابة) ثم ذهب الأب ووضع الدرهم على السكة الحديد وعاد وهو يصفر كمن يحضر لمفاجأة. كانا يشربان بيرتهما، لما مر القطار سريعا من أمامهما رأى الولد أبيه يبحث عن الدرهم ولما عثر عليه وضعه في يده اليسرى وصب فوقها البيرة وعندما اقترب منه مد يده المضمومة أمام ولده، ثم فتحها وهو يحدث صوتا بفمه (عفط). رأى الولد الدرهم وقد تحول إلى قطعة معدنية كبيرة ملساء بلا صورة ولا كتابة. أخذ الأب جرعة من قنينته، وبسبابته اليمنى ضرب بقوة على صدر ولده ثم أشار إلى القطعة المعدنية، ثم إلى الأرض التي كانت تحتهما. ففهم الولد أن أباه يقول له «ستصبح مثل هذه القطعة المعدنية لو بقيت في هذه البلاد». ثم ألقى الأب بالقطعة المعدنية في الهواء بكل قوته، وأخذ يقهقه عاليا.

كنا نأكل ساندويتشات الموتساريللا والطماطم ونشرب نبيذ الكيانتي ونحن ممدان على البطانية الصوفية التي افترشناها ليس بعيدا من النيران المشتعلة وسط الغابة.

«هل هذا ما وقع بينك وبين أبيك»؟ سألت كاتي.

«نعم» قلت وأنا أهز رأسي.

«انها حكاية جميلة» قالت.

ثم طلبت كاتي سيجارة، وضعتها في فمها وأوقدتها مباشرة من النيران.

«أنت جميلة، كاتي» قلت وأنا أنظر في عينيها.

«أشكرك» قالت مبتسمة.

اقتربت منها وحاولت أن أقبلها «لا» قالت «انني مخطوبة وسوف ألتقي بخطيبي في الاسبوع المقبل في لشبونة». شعرت ببعض الحرج. «أنا آسفة» قالت كاتي. لم أقل شيئا. ثم تمددت على ظهري ورحت أنظر إلى السماء.

«بماذا تفكر»؟ سألتني

«لا شيء».

ألقت بسيجارتها وتمددت إلى جانبي، وراحت تداعب وجهي، ثم قالت بصوت ناعم «انني أحب أنفك، انه جميل جدا».

«ماذا»؟ قلت متعجبا.

«نعم، أنفك جميل جدا» قالت مبتسمة ثم هزت رأسها للتأكيد.

«وأنا أحب نبيذ كيانتي» قلت بفرح.

«أنا أحب الكيانتي مع الموتساريلا» قالت كاتي.

في تلك الليلة بعد أن أنهينا الكيانتي والموتساريلا، تمددت إلى جانب كاتي وطوقتها بذراعي وهمست في أذنها «غود بليس أميركا». (الله يبارك أميركا).

«ما هي المناسبة؟» سألت ضاحكة.

فقلت لها «ذلك الولد الذي حدثتك عنه منذ قليل، كان في الخامسة عشرة من عمره حيث عثر على اعلان خاص في مجلة «ريدرز دايجيست» بالعربية فأخفاه في مكان ما لسنوات طويلة، ثم ظل يحلم أن يمتلك ذات يوم ألفي آلاف دولار لكي يسافر إلى سويسرا ويجري عملية تجميلية في جنيف. ذلك الولد اكتشف مساء اليوم، ان المسألة في غاية البساطة: كانت تحتاج إلى قنينة من الكيانتي وبضع قطع من الموتساريلا وإلى فتاة

اميركية لطيفة، لكي يلقي بذلك الاعلان السويسري في المزبلة، وينسى عقدة أنفه الكبير».

«أحب ما ترويه لي» قالت كاتي وهي تبتعد عن حرارة النار. همست في أذنها ان كانت تريدني ان أساعدها في إزاحة جينزها الضيق، حدّقت في عينيّ وهزت رأسها موافقة. كان كيلوتها الأبيض مطرزا بصورة كبيرة لطائرة من الطراز القديم، وعندما وضعت رأسي بين فخذيها الأبيضين، انتبهت إلى ان الطائرة كانت شبيهة بتلك التي كانت تطارد كاري غرانت في فيلم هيتشكوك North by Northwest، قبّلت الطائرة فشعرت لوهلة بأنها كانت لا تزال تطير.

كان رحيم منهمكا في مراجعة بعض القواميس الطبية (بالفارسية والفرنسية). كان قد درس الطب في افغانستان، كما أخبرني ذات مرة، كان في السنة الاخيرة من دراسته حين اضطر إلى الهرب إلى باكستان ومن هناك إلى ايران، التي مكث فيها فترة «كانت أسوأ من الحياة في افغانستان» كما وصفها لي «آه لو رأيت كيف أفسد الملالي تلك البلاد الجميلة».

فجأة التفت اليّ وقال وهو يغلق قواميسه «منذ أسبوع وأنت لا تعمل على طابعتك كالمعتاد» ثم وقف بالقرب من النافذة الكبيرة وراح يتطلع إلى حديقة المركز «اصبحت قلقا، هل هذا له علاقة برحيل الفتاة الأميركية»؟

«أنت على حق، رحيم. انني قلق، ليس فقط بسبب رحيل كاتي، بل لاني اشعر ان الحياة هنا هادئة ومضجرة بشكل قاتل».

«لا تترك الشيطان يعبث بروحك»، قال رحيم بشيء من الحيرة، ثم ابتسم وقال بسرعة «هيا، هيا يا رجل، فكّر في السيناريو الذي تكتبه،. فكر في ذلك، بعدها كل شيء سيكون على ما يرام». واقترب مني وربت على كتفي بمودة «هذا المساء أدعوك لعدد من قناني البيرة».

في تلك اللحظة، طرقت مايا على باب الغرفة وأخبرتني «هناك مكالمة تلفونية لك من باريس».

خرجت إلى الممر حيث يوجد التلفون، لأسمع صوت مصطفى، وهو يقول بطريقته السريعة في الكلام «خذ القطار وتعال بسرعة، أنا في باريس لمدة اسبوع، هيا اترك الفلاحين وتعال إلى المدينة»!

ابتعد عن العرب في باريس

«ابتعد عن العرب، إذا أردت أن تنجح في هذه المدينة». كنت قد تلقيت هذه النصيحة من العديد من المثقفين العرب الذين التقيتهم منذ الايام الاولى لوصولي إلى باريس. حتى شاعرنا العربي الكبير أدامس، قال لي في أول لقاء معه «لن يأتيك من العرب الا وجع الرأس، فابتعد عنهم قدر ما تستطيع». كما انني لن أنسى ما قاله لي مصطفى نفسه، وهو يودعني في تونس «أنا أعرف باريس، كنت هناك مرات عديدة وكانت تجاربي قاسية مع العرب، صدقني، ابتعد عنهم».

كان مصطفى الحداد متناقضا، مثل أغلب المثقفين العرب في باريس، انهم ينصحونني «ابتعد عن العرب» في الوقت الذي تجدهم دائما معا، أينما تذهب تراهم معا. مصطفى، على سبيل المثال، رغم انه يعرف شوارع باريس ومقاهيها، ضرب لي موعدا في مقهى «كلوني»، وهو يعرف جيدا ان هذا المقهى هو المقر الرسمي للعديد من الصحفيين والكتاب العرب في باريس. كنت حتى ذلك الوقت قد ذهبت إلى كلوني ثلاث أو أربع مرات. في هذه المرات القليلة كنت قد تعرفت على عدد كبير من الصحفيين والشعراء والفنانين العرب مثل شامل وعبد الوهاب ونبيل ورياض وسالم وآخرين. كنت متفقا مع رياض بان كلوني من المقاهي الجيدة، كانت واسعة وتقع عند تقاطع شارعي السان جيرمان والسان ميشيل في قلب باريس. ذات مرة صعدت إلى الطابق الأول من كلوني، وكنت يومها قد اشتريت طابعتي «ايريكا» من محل «دورييز»

القريب من مقهى كلوني، فرأيت رياض وهو يعمل على ترجمة قصائد سان جون بيرس إلى العربية، قال لي «انظر إلى ذاك الرجل». التفت نحو الرجل الذي كان جالسا عند النافذة المطلة على بولڤار السان جيرمان. «انه صموئيل بيكيت»؟ قلت لرياض. «نعم، وهو يجلس في نفس المكان دائما» قال رياض وأضاف «هل رأيت، ان زبائن الطابق الأول أفضل من الطابق الأرضي». وكان واضحا ان رياض يشير إلى مجموعة الصحفيين العرب الذين يجلسون في الطابق الأرضي.

ما ان رآني مصطفى حتى قال بصوت عال وهو يضحك «تعال ايها الآشوري الهارب من المتاحف». واخذ يعانقني. فقلت له بتلقائية «ماذا تفعل في باريس»؟

نظر اليّ لبرهة «هذه اهانة وليس سؤالا» قال مصطفى مبتسما.

«لماذا تفكر بهذا الشكل».

«لانه لا يجوز لعراقي أن يسأل تونسيا ماذا يفعل في باريس. الصحيح هو ماذا يفعل عراقي في باريس؟. لا تسأل ابدا مثقفا من شمال افريقيا عما يفعله بباريس؟».

فأجبته ضاحكا «حسنا، دبر لي فيزا إلى أميركا وأنا أترك لك باريس»!

أخذ مصطفى ينظر إليّ وكأنه يتفحصني «خلال فترة قصيرة أصبحت تبدو اكثر وسامة. عندما كنت في تونس كنت تبدو وكأنك مصاب بالبلهارسيا». وانفجر ضاحكا.

«هل جلبتني إلى باريس لكي تسخر مني يا مصطفى»؟

«انت تعرف انني جئت من تونس فقط لأرتب حياتك وأعود».

«هل جئت لترتب حياتي يا مصطفى أم لتدمرها» قلت له مبتسما.

«جئت لأنقذك من حياتك الرتيبة، وأصنع منك أسطورة»!

خرجنا من محطة ميترو «دونفير روشرو»، فقال لي مصطفى ونحن

نسير في بولڤار «سان جاك»: «أولا سوف أعرفك على بار العم صالح. انه مكان شعبي ستحبه كثيرا» وتابع ونحن ندخل في شارع «رو دو لا تومب اسوار» حيث يقع البار «العم صالح جزائري طيب القلب، جاء للعمل في باريس في منتصف الأربعينات، أي قبل أن تقذف بك أمك إلى هذه الدنيا لتزعجنا بهلوساتك السينمائية». وضحكنا.

لقد أحببت العم صالح منذ اللحظة الأولى. وقدمني مصطفى لصديقته مارتين بطريقته الخاصة «اقدم لك صديقي الاله الآشوري الهارب من جحيم ميزوبوتاميا وشبه الجزيرة العربية ويريد ان يصبح كاوبوي»! فضحكنا كلنا. قالت مارتين «لقد حدثني مصطفى عنك كثيرا». فقلت لها «وقد حدثني عنك كثيرا منذ سنوات حين التقيته في نيقوسيا». التفتت مارتين إلى مصطفى «هل نعرف بعضنا طيلة كل هذه الفترة». وضحكا ثم قبلا بعضهما.

بدأ مصطفى يقول شعرا بالفرنسية، في حين وضعت مارتين رأسها على صدره، وكانت أصابع مصطفى تداعب شعرها بحنان. «لا تهتم، سوف تتعلم الفرنسية قريبا، وسوف ترى كم هي فاتنة هذه اللغة» قال مصطفى ناظرا اليّ، بعدها ذهب ليجلب لنا إبريقا آخر من النبيذ الأحمر. كان مصطفى مغرما بمارتين. اذكر انني كنت في بيته في تونس قبل سفري إلى باريس بيوم واحد. فقال لي «انني لم أعد استطيع النوم لوحدي. وأنا أفكر بها طيلة الوقت».

«لماذا لا تحاول الاقامة في باريس؟» سألتُ مصطفى. ابتسم بسخرية وقال «أنا رجل مستقل سياسيا ومغرم بفتاة طالبة». وأخذ يشرح «المثقف العربي لا يستطيع ان يعيش في باريس الا في حالتين، ان يقدم على لجوء سياسي، مثل حالك، أو أن يعمل في احدى المجلات العربية الصادرة من باريس أو لندن، وهي مجلات تابعة للسعودية والقذافي وصدام حسين. وأنا كما قلت مجرد شاعر فقير ومستقل، لا أريد أن أقع

في فخ الدعاية لهذه الانظمة الدكتاتورية» وأضاف مازحا «ألا يكفي انني واقع في حب هذه الفرنسية الجميلة»!

بعد أن صب لنا النبيذ، ضرب مصطفى كأسه بكأس مارتين وقبلها. ولانه كان يحب ان يلعب دور المهرج، أخذ يروي بعض المفارقات التي عشناها سوية في الماضي. ثم حدق في عيني وسألني «ماذا قالت لك أمك وهي تنظر في عينيك».

«لا أتذكر، لا اعرف عم تتحدث يا مصطفى» أجبته وأنا أشعر بحرج من مارتين.

«لقد اصبحتَ خجولا فجأة، ها». ثم أخذ يقهقه وقال لمارتين وهو يمد ذراعه حول كتفيها «لقد روى لي، مرة، ان أمه نظرت في عينيه وقالت له: ان لك عينين جميلتين مثل عيون القحاب». وضحكنا. ولم يتوقف مصطفى حتى الثانية صباحا حين نام فجأة في احضان مارتين. ذهبنا جميعا للمبيت في غرفة مارتين في الحي السكني الجامعي في شارع «رو دارو» على مبعدة خطوات من مقهى العم صالح.

في اليوم التالي، قال لي مصطفى انه على موعد مع بعض الاصدقاء واقترح ان نلتقي في الرابعة عصرا. «هل تعرف كيف تمضي وقتك حتى ذلك الحين؟» سألني مصطفى وكنا نقف في ساحة الشاتليه. «سوف أجد لنفسي بارا جيدا». أجبته. نظر اليّ مصطفى وقال بلهجة جادة «قلت لك انني جئت لكي أنظم لك حياتك. لا اريد ان اسمع اي شيء عن البارات بعد الان. اقترح عليك ان تذهب وتمضي بضع ساعات في مركز بومبيدو».

«ما هو هذا المركز؟».

مشينا بضع دقائق فأشار مصطفى إلى مبنى ضخم «هذا هو مركز بومبيدو، أنا واثق انك ستحبه». قال لي وغادر.

لم يكن مصطفى يعلم وهو يدلني على «مركز بومبيدو»، انه كان يقدم

لي أجمل هدية تلقيتها طيلة حياتي. كان مركز بومبيدو المنجم الذي سأنهل منه كل ما كنت قد حرمت منه طيلة سنوات عمري الثماني والعشرين. في تلك الظهيرة، كنت مأخوذا وأنا أسير بين رفوف المكتبة المليئة بكتب الآداب والسينما والموسيقى والعمارة والفن التشكيلي والقواميس، حتى كتب المطابخ اثارت اهتمامي. «كم أتمنى لو أسجن هنا» قلت في نفسي، وأنا اجلس على الأرض أتصفح عشرات الكتب التي تتحدث عن صناعة الافلام وكيفية كتابة السيناريو وسيّر وتجارب السينمائيين.

شارع بابيلون

كانت شمس الغروب ما تزال تلقي بأشعتها الحمراء فوق منطقة «كارفور دو لوديون». كنت أشرب البيرة في بار مقهى «دانتون» وكنت أفكر في الذهاب إلى محطة «غار دو ليون» لآخذ القطار إلى مدينة «مولان» رغم انني كنت أتمنى ألا أعود إلى تلك الحديقة الهادئة، وأقصد «مركز لو روشتون». أخرجت قلمي وبدأت أسجل بعض الملاحظات عن اليومين اللذين أمضيتهما برفقة مصطفى الحداد في باريس.

قال الرجل النحيل الذي وقف إلى جانبي وطلب حليبا ساخنا «منذ فترة طويلة لم أر شخصا يكتب بالعربية» نظرت اليه مبتسما، فابتسم هو الآخر. كانت عيناه غائرتين عميقا في وجهه. بدا لي انه يعاني من شيء ما.

قال لي انه سوري وأسمه زياد، وانه كان يعمل في الصحافة، وقد هجرها لأن «الصحافة في العالم العربي باتت مثل الدعارة»، معلنا أن مبدأه في الحياة هو «الابتعاد عن العرب وتخلفهم قدر الامكان». فأجبته متحمسا «أما أنا، فقد تخلصت من الشرق كله». دعوته إلى كأس من البيرة فقال ان الطبيب منعه من القهوة والكحول: «أشرب الشمبانيا في المناسبات فقط».

بعد دقائق أخبرته بأنني مضطر إلى الذهاب إلى محطة «غار دو ليون» لأستقل القطار إلى «مولان» حيث أقيم.

«مولان»؟ قال بازدراء «كيف يمكنك ان تعيش هناك»؟

«ماذا افعل يا زياد؟» قلت له وأخذت أشرح له ظروفي.

حدق فيّ برهة وقال «هل تحب أن تقيم في باريس»؟. قبل أن أجيبه أضاف «عندي ستوديو في شارع «رو بابيلون»، تعال وأسكن فيه»!

«شارع بابيلون؟» سألته مندهشا.

«نعم شارع بابيلون».

«هذا حلم. نعم حلم أن أقيم في شارع أسمه بابيلون». قلت بفرح وأضفت بعد برهة «ولكن كيف أدفع الايجار»؟

«مش مشكلة» رد زياد هازا رأسه «تفعل كما يفعل سكان باريس، تشتغل وتدفع الايجار» واضاف مبتسما «حسنا، من أجلك سأشرب البيرة هذ المساء، هيا أطلب لي كأسا». طلبت له كأسا ثم أخرى وأخرى حتى فات موعد القطار. فاقترح زياد ان اذهب معه إلى سكنه في شارع بابيلون.

كان الستوديو الواقع في الطابق الخامس نظيفا للغاية، كأنه لم يكن مسكونا من قبل. شرح لي زياد كيفية استخدام بعض الامور في الستوديو. ثم سلمني نسخة من المفاتيح «لو كنت في مكانك لذهبت في الفجر وجلبت اغراضي» قال لي وهو يحدق في عينيّ.

«هذا ما سأفعله يا صديقي» أجبته وأنا أجلس على السرير.

«هل معك ٢٠٠ فرنك» قال زياد «لم أكن اعرف انني سأحتاج إلى التاكسي».

«مش مشكلة» قفزت فرحا وأنا أمد له ٢٠٠ فرنك.

***

قالت لي مديرة «مركز لو روشتون»، انني أول شخص يقوم بمغادرة المركز بارادته قبل أن تنتهي مدته. عادة ما يطلب اللاجئون البقاء شهرا

أو اثنين اضافيين لكي يرتبوا أمورهم قبل المغادرة. ثم وضعت أمامي بعض الاوراق الرسمية وقالت «بعد أن توقع على هذه الأوراق، مسيو، لا يحق لك العودة إلى هنا اطلاقا، هل هذا واضح لكم».

«نعم مدام».

«سوف نمنحك ١٥٠٠ فرنك وهي مستحقاتك للأشهر الثلاثة المقبلة مع تمنياتي لك بالتوفيق».

«أين قلت مكان الستوديو» سألتني ماري السكرتيرة السمينة اللطيفة.

«في شارع بابيلون، ماري».

«أنت محظوظ، سيكون بمقدورك التسوق يوميا من مخازن البون مارشيه».

عندما رأيت رحيم بدا لي في غاية الحزن. قلت له مازحا «يجب أن تفرح لمغادرتي يا رحيم» واضفت وأنا أعانقه «الآن يمكنك أن تنكح فتاتك الاثيوبية كما تشاء».

«هل تعرف من سيحل محلك؟!» قال رحيم.

«لا تقل لي الاثيوبية» أجبته بمرح.

«صديقنا الهنغاري» قال رحيم بصوت كئيب «تصور، كأنه لا يكفيني افتقادك، بل أضافوا لي هذه العقوبة».

«معك حق، انه عقوبة حقيقية. ليس أمامك إلا التحالف مع صديقتنا الروسية مارينا» نصحته ثم تركت مركز لو روشتون.

عندما رأى زياد طابعتي قال لي انه يمكنني الطبع حتى في الليل «لا أحد يسكن في الطابقين الخامس والسادس». وسألني «ماذا تطبع بهذه الطابعة»؟. لم أدر بماذا أجيبه، فقلت له «في الحقيقة انني محتار في الكتابة بين السيناريو والرواية. انني اكتب شيئا عن حياة أبي».

«أإلى هذا الحد حياته مهمة؟!» قال وهو يتكئ على الباب المفتوح إلى نصفه. كان ما زال يبدو حزينا «هل تعتقد ان قصة حياة والدك يمكنها ان تجلب لك المال»؟

«في الوقت الحاضر انني أفكر في الفن لا في المال» أجبته.

أخرج منديلا ورقيا من جيبه وأخذ يمخط محدثا ضجيجا. «عفوا لم أسمع. ماذا قلت»؟ سألني. «طبعا» قلت له.

فعاود سؤاله «طبعا ماذا، لم أفهم».

في هذه اللحظة أحسست بانه شخص غير طبيعي، وبأنني تورطت معه فقلت له «طبعا سوف يجلب لي الكثير من النقود».

«سوف نرى» قال مبتسما واستطرد «هذا العالم كله قائم على النقود. لا تتصور أن كل الناس لطفاء مثلي».

«آسف، زياد، هل يمكن أن أسأل أين تقيم؟»

«عند صديقتي... انها أميرة». رد بشكل تلقائي وكأن ما قاله لي أمر طبيعي.

«هل هي سعودية»؟

نظر اليّ مبتسما بسخرية «ما بك؟ هل يبدو عليّ انني من الذين يصاحبون أميرات سعوديات»! واضاف وهو يصطنع ابتسامة صغيرة «صديقتي أميرة فرنسية تقيم في الحي الراقي «نويي سور سين»، في فيللا على النهر.. سوف آخذك معي يوما ما».

هززت رأسي ووضعت طابعتي على الطاولة. «هل تريد علبة بيرة» سألته وأنا في طريقي إلى الثلاجة. «اعطني واحدة من فضلك» أجاب. «يبدو عليك انك شاب منظم». قال مبتسما متناولا من يدي علبة البيرة. فقلت له «لقد قمت بالتسوق من البون مارشيه». خطا زياد بضع خطوات ووقف في الزاوية القريبة من السرير، «انظر» قال وأشار إلى كومة من

المجلات الفرنسية المصفوفة بعناية «هذه اعداد من مجلة «پوان دو ڤو» (Point de Vue) يعني «وجهة نظر»، إنها مجلة تعبر عن رأي الحركة الملكية في فرنسا. تصفحها وسوف ترى كم هم جميلون هؤلاء الملكيون».

«أنا ملكي» قلت بحماس.

«مهلا مهلا» رد زياد. «صحيح أن صديقتي أميرة، ولكنني كنت دائما أفصل بين علاقتي الشخصية بها وبين مبادئي السياسية. لقد كنت دائما مع الثورة الفرنسية».

«أعتقد ان الأنظمة الملكية هي الشكل الأنسب لبلداننا العربية». قلت له وأنا اتجه نحو الثلاجة لأخذ علبة أخرى من البيرة.

«ربما. آسف، انا مضطر لأن اتركك تشرب لوحدك» قال زياد، وتوقف عند الباب والتفت «هل معك ٢٠٠ فرنك؟» سألني.

«طبعا» أجبته ورحت أمد له المبلغ وأنا أعرف انه لم يتبق لي سوى ٩٠٠ فرنك.

صرفت وقتا طويلا متصفحا مجلة «پوان دو ڤو» مسحورا بصور الأميرات والكونتيسات، في حفلاتهن الفاخرة. وقد اعجبتني بشكل خاص صورة احدى الفتيات، كانت بيضاء وحمراء، ممتلئة كأنها احدى «سباحات» رينوار. وضعت المجلة فوق السرير وخرجت إلى مقهى دانتون لأشرب بضع كؤوس. كان الوقت منتصف الليل تقريبا حين عدت إلى البيت. فوجئت بزياد جالسا فوق السرير. كنت عازما على الكتابة في تلك الليلة. شعرت بالحيرة، ولم أعرف ماذا أفعل.

«ليس من اللائق أن تدخل الستوديو اثناء غيابي» قلت له بعد فترة من الصمت.

«أردت أن أطمئن عليك وأرى ان كل شيء على ما يرام». قال وهو ينفث دخان سيجارته نحو الأرض.

وأخذ يتصفح مجلة «پوان دو ڤو» إلى أن توقف عند صورة «الشابة» التي كانت قد لفتت انتباهي. وضع الصورة أمامي قائلا «هل تستطيع أن تقول لي لماذا أخترت أن تضع صورة هذه الفتاة على سريرك؟ أنا أعرف لماذا. لم أكن أعرف انك من هذا النوع. أنها الأميرة جولييت. انها تخصني شخصيا». قال بصوت حاد.

«عم تتحدث. هل أنت مجنون يا زياد؟ لو كنت أعرف أنك بهذا الشكل لما تركت سكني في لو روشتون وأوقعت نفسي في هذه الورطة. أعطني أسبوعا وسوف أخلي لك الستوديو».

أشعل سيجارة أخرى وعاد ليجلس على السرير «هل يمكن أن تسخّن لي القليل من الحليب، من فضلك؟» قال واضاف بصوت واهن «ليس من اللطف أن تصفني بالمجنون، أنا مثل أخيك الأكبر» ثم نهض ووقف لبرهة وسط الستوديو «لا تغضب مني، ولا داعي حتى للحليب» واستدار متجها نحو الباب، لكنه فجأة التفت «بالمناسبة هل معك ٢٠٠ فرنك»؟

«آسف، لا أملك اي نقود الآن، استطيع ان أتدبر الأمر غدا».

مساء اليوم التالي، كنت واقفا في زاويتي المعتادة في مقهى دانتون عندما جاء زياد. كان منظره بائسا، وقد بدا بلحيته غير الحليقة تعيسا جدا، حتى أنني شعرت بالخجل منه حين أخذ يحدثني. وقد لاحظت ان بعض الزبائن كانوا ينظرون الينا. «هل يمكن ان اعطيك مائة فرنك الآن لكي تذهب وترتاح قليلا». قلت له، متذكرا انه طلب مني بعض النقود في اليوم السابق.

«لماذا؟ هل يزعجك وجودي هنا».

«لا اطلاقا. أنت في مقهى ولست في بيتي».

«أوه، هذا صحيح، بيتك في شارع بابيلون، أليس كذلك»؟

قلت له مازحا «عزيزي زياد سوف أترك لك الستوديو في الاسبوع المقبل وأدفع لك ما تشاء، ونستطيع أن نبقى أصدقاء».

«يبدو انك تنتظر شخصا ما».

في الحقيقة لم أكن أنتظر اي شخص ولكن أجبته قائلا «نعم، أنتظر فتاة، قررنا ان نذهب إلى السينما».

«بهذه السرعة اصبحت باريسيا! لقد اصبحت تعطي المواعيد للفتيات. يا لك من شاب لامع». ثم اضاف وهو يبتسم بخبث «اذن هات المائة فرنك، قبل أن تصرفها».

حين أعطيته النقود، حدق في عيني وقال بالفرنسية «حظا سعيدا، مسيو» وغادر المقهى.

كانت الثالثة صباحا حين عدت إلى شارع بابيلون، ما أن اقتربت من البناية التي أقيم فيها، حتى رأيت طابعتي وحقيبتي مرميين عند مدخل البناية. تفقدت محتويات الحقيبقة فلم أجد محفظة أوراقي التي تحتوي على السيناريو. كنت على وشك أن أصعد إلى الستوديو، ولكني ترددت فورا. فكرت انه ليس من الذكاء ان أكون في داخل الستوديو مع زياد، خصوصا إذا أراد ان يفتعل معركة ستكون وخيمة العواقب. كل ما كنت اريده هو محفظة أوراقي، لذلك ضغطت على الجرس للتحدث معه عبر مايكرفون الباب الخارجي: «ان لم تذهب حالا فسوف أطلب لك الشرطة» جاءني صوته عبر المايكروفون.

«ان لم تفعل ذلك، فسوف أقوم أنا بطلب الشرطة» أجبته.

«انتظرني لحظة، انني نازل» قال.

«أريد محفظة أوراقي» قلت له عندما وقف أمامي.

«أريد أجرة الأيام التي أقمتَ فيها في الستوديو». قال وهو يحاول ان يغلق باب البناية، فاندفعت نحوه قائلا «لن اذهب من هنا، ما لم تأتني بمحفظة أوراقي».

«أي أوراق»؟ قال وهو يحاول أن يبعدني عن الباب

«محفظة أوراقي أيها اللص». قلت وأنا أحدق في عينيه الغائرتين في محجريهما واللتين بدتا مخيفتين.

«أنا لست لصا، أيها العراقي الحقير» صرخ وبحركة مباغتة وجه لكمة إلى وجهي ودفعني لأقع على الأرض، وأغلق الباب. أخذت الدماء تسيل من أنفي فأخرجت تي شيرت من حقيبتي ووضعتها فوق أنفي. ظللت أضغط على زر الجرس إلى أن ظهر زياد ثانية وألقى بمحفظة أوراقي في الشارع وهو يصرخ» «ما الذي ورطني معك؟. لقد أقسمت أن أقطع علاقتي بالعرب. انهم لا يحبون إلا البؤس».

«أنت مريض يا زياد، أنت مريض ويجب أن تذهب إلى الطبيب». صرخت بأعلى صوتي، دون أن أعرف انني سوف أقتله بهذه الجملة. فصار يضرب الباب برأسه ويكرر «أنا لست مريضا يا ابن الشرموطة، أنا لست مريضا يا ابن الشرموطة». كان زياد يرتدي فانيلة بيضاء ولباس نوم أخضر اللون، وقد بدا نحيلا جدا. حملت أغراضي وركضت بضعة أمتار ووقفت أمام فندق ليتيسيا القريب من المكان.

في تلك اللحظة جاءت شاحنة صغيرة ووقفت قبالتي تماما. فنزل منها رجل في الخمسين من عمره، بدا فرحا ومنطلقا فحياني بابتسامة واسعة «بونجور أيها الشاب».

«بونجور مسيو» أجبته وحاولت أن أبدو سعيدا.

أزاح الرجل الغطاء عن مؤخرة الشاحنة ورمقني بنظرة سريعة، وقال بصوت عال ومد يده إلى صينية مليئة بالفطائر ثم التفت اليّ: «خذ ايها الشاب، هذه فطيرة من (الپان أو شوكولاه) الطازجة». لقد ذكرني هذا الرجل بأبي الذي كنت أذهب لزيارته في المخبز وأنا طفل.

«أنت رجل طيب، مسيو». قلت له وأنا أتناول «الپان أو شوكولاه».

حمل الرجل صينية كبيرة مليئة بفطائر «الكرواسان» و«الپان أو شوكولاه» ودخل إلى فندق ليتيسيا. وبعد لحظات قليلة عاد قائلا بصوت

عال «لا تحزن ايها الشاب، نحن في الفجر، واليوم كله أمامك. دعني أروي لك هذه الحكاية».

«تفضل مسيو».

«تماما في المكان الذي تقف فيه أنت الآن، اعتقل النازيون أبي. كان أبي قد حاول أن يضع قنبلة في هذا الفندق عندما كان المقر العام لرجال الغستابو في فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية. وأنظر اليّ الآن، أنا ابن ذلك البطل، أحمل كل صباح فطائر الپان أو شوكولاه والكرواسان لزبائن هذا الفندق». ثم بدأ يقهقه وهو يحمل صينية أخرى من الفطائر ويختفي في الفندق.

«لا، مسيو، أنني لست حزينا» قلت للرجل الذي انتهى من توزيع بضاعته «لقد طردتُ من البيت الذي كنت أسكن فيه، وأحتاج إلى بعض الوقت لأفكر بما سأفعله».

«هذا أمر سهل جدا» قال الرجل ضاحكا. «ما زلنا في الفجر، ايها الشاب. اذهب وضع اغراضك في محطة أوسترليتز. خط الميترو من هنا مباشر إلى الأوسترليتز». وأشار بيده إلى محطة سيفر بابليون القريبة منا «باريس مدينة الرحمة». قال الرجل.

كانت نصائح موزع الفطائر، غير المتوقعة، عونا كبيرا لي.

لقد وجدت في محطة أوسترليتز انني استطيع ليس فقط وضع أغراضي في صناديق الايداع، بل يمكنني ان أستحم وأغسل ثيابي أيضا. وهذه من الأمور الضرورية جدا بالنسبة لي. على الفور قررت أن أتخلى عن بعض الكتب والثياب وحتى بعض الصور الشخصية. قمت بكل شيء بشكل غريزي: أخذت دوشا، غيّرت ثيابي، ثم وضعت أغراضي وطابعتي في صناديق الايداع في المحطة كأن الأمر كان طبيعيا جدا بالنسبة لي. ثم ذهبت إلى مركز بومبيدو.

تلك الليلة، كانت ليلتي الاولى في التشرد في باريس. وقفت في

وسط أحد الشوارع وأشعلت سيجارة. لم أفكر ولو للحظة واحدة أنني كنت بلا مأوى. بالعكس، لقد شعرت بسلام داخلي كأنني كنت أتخلص من أدران الماضي: «هل أحتج على ماضيَ الكئيب؟». تساءلت مع نفسي. ثم قلت: إنني فقط اريد ان ابتعد عنه. أريد أن أتيه. لا لم أكن أريد شيئا آخر. فقط أريد أن أبدأ حياة جديدة، بغض النظر عن كيف تكون هذه الحياة.

كنت أمشي طوال الليل من شارع إلى شارع إلى أن ظهر ضوء النهار، وطوال الوقت كنت أردد أغنية كتبتها لنفسي:

هنيئا للذي لامس جسدي

هنيئا للأرض التي وطئتها قدمي

هنيئا للذي يعرف اسمي

هنيئا للذي رأته عيني

هنيئا هنيئا

هنيئا للذي شمّ أزهاري

هنيئا للذي استظل بأشجاري

هنيئا للذي أخذ هواي

هنيئا للذي سرق شبابي

هنيئا هنيئا

هنيئا للذي تيّهني.

منازل الأصدقاء

في الواقع لم تكن نصيحة «ابتعد عن العرب..» سليمة دائما، اذ ان معظم الاصدقاء العرب من المثقفين والصحفيين وغيرهم، كانوا لطفاء معي باستمرار. فقد ظللت أتردد على بيوتهم، وأنام عندهم ليلة أو أكثر من ليلة. وكثيرا ما كنت أستدين منهم بعض الفرنكات (التي لم أرجعها لهم حتى الآن).

«انهم لطفاء معك لانهم ينظرون اليك باعتبارك مشردا» قال لي رياض مرة، ونحن في مقهى كلوني.

«ولكني لست مشردا يا رياض» أجبته ببعض الغضب.

«آسف سامي، إنني لا اقصد ان أجرحك، ولكن هذا ما يوصف به من يقيم في الشوارع».

«أنا لا أقيم في الشوارع يا رياض. انني فقط ارفض ان يكون لي بيت، على الاقل في الوقت الحاضر. لو أردت أن يكون لي بيت لاستطعت ان افعل ذلك بسهولة». كنت أجيبه وأنا أعرف ان ما أقوله لم يكن صحيحا. حسنا، ربما كنت استطيع، ولكن كان يجب ان أنسف كل الافكار التي كانت في ذهني.

«عندما يكون عندك بيت وسيارة وزوجة جميلة، سوف ترى كيف أن هؤلاء (اللطفاء) يحاربونك». قال رياض.

«لندع الأمر اذن، إلى ان يكون عندي بيت وزوجة جميلة». أجبته ضاحكا.

لكن رياض لم يتوقف عن الحديث عن هذا الامر. فعاد ليقول، وكنا قد التقينا في يوم آخر وفي نفس المكان «هؤلاء الصحفيون الذين يبدون تعاطفهم معك، انما يحاولون التخفيف من عقدة الذنب التي يشعرون بها طيلة الوقت جراء عملهم في الصحف التابعة للانظمة العربية الدكتاتورية». وأضاف وهو يعانقني مازحا «لا تزعل مني يا صديقي، هؤلاء الصحافيون لو لم تكن موجودا لكانوا خلقوا شخصا آخر يشبهك».

كان رياض يحبني ولكنه كان ينزعج مني حين يراني أسير مع بعض الأشخاص. ذات مرة وكان ينتظر صديقته فيرونيك في مقهى في ساحة السوربون قال لي: «كيف يمكنك أن تتحمل الكلام مع ذلك البغل الذي يمتدح دكتاتورا مثل القذافي»؟ ومرة أخرى «لقد صدمت وأنا أراك مع ذلك العميل السعودي»! كنت أقول لرياض انني أحاول ان لا أكون مسؤولا عن مواقف الآخرين. كان يهزأ من أفكاري ويقول «أنت فقط طيب القلب».

بالرغم من أنني كنت أتوق لحياة التشرد ـ مثل ذلك الطفل المغامر الذي كان يمد الخيط لطائرته الورقية وهو يشعر بالسعادة كلما رآها تبتعد أكثر فأكثر ـ فقد كنت أيضا أشعر بالحاجة إلى أن اكون في مكان فيه مطبخ وحمام ومكتبة وغرفة نوم وناس. وقد كان ذلك متاحا لي بشكل ما. فبمجرد مكالمة تلفونية واحدة، كنت أجد نفسي منتقلا من النوم على كارتونة مفروشة على أرض كاراج أوسترليتز، إلى سرير دافئ في منزل واحد من الأصدقاء الذين كانوا يرحبون بي على الفور، حتى لو كانت الظروف غير مناسبة.

ذات مرة، اتصلت بممدوح، وهو مذيع في اذاعة عربية مشهورة تبث

من باريس. قال لي ممدوح انه مرتبط بموعد مع مغنية تونسية شابة في مطعم لبناني في الشانزيليزيه «ولا مانع على الاطلاق ان تلتحق بنا إذا كان الامر يناسبك». ذهبت على الفور. كانت تلك هي المرة الاولى التي ادخل فيها إلى تلك المطاعم اللبنانية الشهيرة بالغناء والرقص، وبسبب ارتفاع صوت الموسيقى العربية فان هذه المطاعم غالبا ما تقع تحت الأرض.

استقبلني ممدوح بالأحضان وقدمني إلى المغنية التونسية الشابة فوزية، التي بدت لي منذ الوهلة الاولى اصطناعية، تماما مثل اجواء المطعم الذي لم يعجبني على الاطلاق. بل انني تساءلت مع نفسي كيف يمكن لبعض الاصدقاء ان يقضوا لياليهم في مثل هذه الامكنة، وبعضهم يرتادها يوميا.

في الخامسة فجرا، شعرت بالحرج وأنا أصعد في السيارة مع ممدوح وصديقته المغنية. قلت له بصوت خافت ان كان من الممكن ان يضعني عند فوهة اقرب ميترو. فالتفت الي بعينين غاضبتين «كيف تسمح لنفسك ان تفكر ولو للحظة بانني سأتركك في هذا البرد، ايها الأحمق».

كانت فوزية في الحمام، حين قال لي ممدوح مبتسما وهو يضع أمامي طابعة يدوية قديمة «حاول ان تطبع أي شيء عندما اكون مع فوزية في غرفة النوم، انها خجولة». وهكذا ظللت أطبع طوال الفجر، فكان صوت الطابعة يختلط بتأوهات فوزية التي كانت من القوة بحيث كنت أضرب على مفاتيح الطابعة بأقصى ما يمكن، ولم أتوقف إلى أن مدّ ممدوح برأسه من خلف باب غرفة النوم قائلا «أوقف الطباعة أرجوك، نريد أن ننام».

لاحقا قرأت في احدى المجلات حوارا مع المغنية التونسية الناشئة تتحدث فيها عن نشأتها قائلة: «ولدت في عائلة محافظة، تنظر إلى الفن باعتباره عملا معيبا، ولكنني بموهبتي وبالصبر والعمل الدؤوب تمكنت

من اقناعهم بحبي للفن والحمد لله انني اخيرا بدأت ألقى التشجيع من الجميع».

أما شامل، الذي كنت أتردد على بيته أكثر من ترددي على بيت أي شخص آخر، فقد كنت معجبا بطريقة حياته، من جهة. ومن جهة أخرى، كان أقرب لي من الآخرين، كان قد أعد اطروحة ماجستير عن أدب جيمس جويس، ونال الدكتوراه في السينما. كما انني كنت أجلس امام مكتبته ولا أتحرك ليومين. وعن طريقه تعرفت على الكثير من الادباء والسينمائيين العالميين الذين كان يحاورهم للمجلة التي يعمل فيها.

كان شامل مغرما بفتيات المغرب العربي، وماهرا في اصطيادهن. فبالرغم من انه كان يمتلك سيارة، الا انه كان يفضل ركوب الميترو في كثير من الأحيان. كان يذهب إلى المحطات المكتظة بالنساء العربيات، مثل «بلاس دو لا ريبوبليك» و«باربيس». كنا نقف في الميترو، وفجأة أجد شامل يقفز خارجا وهو يقول لي «انتظرني على رصيف المحطة التالية» ثم يختفي بين المسافرين. وفي المحطة التالية، كنت أراه قادما ومعه فتاة يقدمها لي بطريقة مسرحية «تصور يا صديقي العزيز سامي، كم أنا محظوظ اليوم، اذ تشرفت بمعرفة الآنسة مليكة وهي من بلدنا الشقيق المغرب» ثم يقول وهو يتعمد اسماعها «لقد تعبت من النساء الفرنسيات وعقدهن، مثلما تعبت من حياة العزوبية» وينهي معزوفته «يبدو ان الله يريدني أن أعيش مع امرأة تجمعني بها نفس الثقافة والدين». بعد ذلك كان شامل يعطيني بعض الفرنكات لأشرب بضع كؤوس من البيرة في المقهى الجزائري المجاور لبيته، وعندما أعود إلى البيت أجده وقد أنهى مضاجعته، فيما الفتاة المسكينة في المطبخ تعد طبقا من المطبخ المغربي لتثبت انها ربة بيت أيضا.

«أخيرا وجدنا بنت الحلال التي تنقذنا من أكل المطاعم السيئة، ومن لحم الخنزير» يقول شامل بصوت عال.

مثل هذه القصص كانت تقع لشامل، مرتين في الاسبوع على الاقل، وكان الأمر عاديا جدا بالنسبة له. شيء أشبه بالروتين، حتى وجودي معه صار جزءا من المشهد، لم يشأ ان يتخلى عنه. لكنه فيما بعد وجد انني كنت أكلفه الكثير من الفرنكات حين يرسلني لانتظره في المقهى في فترة المضاجعة، فراح يقول للفتيات اللواتي يأتي بهن إلى البيت «سامي، ليس صديقا فحسب، انه أخي» ثم يسحبهن ويدخل إلى غرفة النوم، فكنت أذهب لأطالع كتابا وأنا ممدد على الأريكة في الصالة، القريبة من الحمام. كانت الفتيات يخرجن من غرفة النوم ملتحفات بالروب دو شامبر ويدخلن إلى الحمام (الله وحده يعلم كم فتاة لبست ذلك الثوب)، وقليلا قليلا تعودن على وجودي، فصرن يقفزن بسرعة من غرفة النوم إلى الحمام وهن عاريات، وفي مرحلة لاحقة أصبحن لا يجدن أي حرج حين يقفن أمامي، وهن يغطين فروجهن بأيديهن، ويسألنني ان كان ممكنا أن أشرح لهن موضوع الكتاب الذي كنت أقرأه.

وفي فترة ما كنت قد قررت أن أتوقف نهائيا عن التردد إلى منازل الاصدقاء مهما كلف الأمر، ليس فقط بسبب المواقف المحرجة، بل لأنني بدأت أشعر في بعض الاحيان وكأنني اصبحت جاسوسا على حياتهم الشخصية، رغما عني. دعاني صديقي التونسي رمضان للاقامة عنده بضعة أسابيع، بعد أن أقنع زوجته، فحملت أغراضي وذهبت معه إلى «بورت دو لا شابيل». بعد أسبوع وكنت أكتب على طابعتي سمعت صراخا في غرفة النوم فلم اهتم لانني لاحظت ان صديقي وزوجته كانا يتخاصمان باستمرار خصوصا أثناء اعداد الطعام في المطبخ. ولكنني رأيت في ذلك الصباح زوجة صديقي تدخل إلى غرفتي وتقول بصوت غاضب «من فضلك أترك المنزل فورا». حملت حقيبتي وطابعتي على الفور، وقبل مغادرتي المنزل قالت لي «منذ ١٧ سنة وزوجي يتناول طعامه معي. البارحة فقط ذهب معك إلى الهمبرغر، الله يعلم إلى أين ستأخذه في المرة القادمة».

ولن أكون مفتريا إذا قلت انني التقيت برمضان بعد أقل من سنة، فوجدته مطلقا وكان يعمل مديرا لفرع البيرغر كينغ في «بلاس دي كليشي» فبت أزوره من وقت لآخر، كان يدعوني لشرب بضع كؤوس في مقهى «ويپلر» المواجه لمحله. وقد حاولت مرة أن أقنعه بالعودة إلى زوجته، لكنه أجابني مبتسما «على الأقل ليس في الوقت الحاضر، خصوصا وأن شارع بيغال على مبعدة بضع خطوات من هنا» وقد انتبهت إلى نسخة من كتاب هنري ميللر «أيام هادئة في كليشي» بالفرنسية، كانت موجودة على الطاولة.

وكذلك الأمر مع صديقي الجزائري، مراد، وهو معلم رياضيات، كان يصر أن يدعوني إلى بيته كلما تأخرنا في السهر. كنت أقول له «وماذا أفعل بغرفة الفندق التي دفعت حسابها»؟. فكان يرد ضاحكا «انني أعرف كيف تبدو حين تكون عندك غرفة في الفندق». فكنت اضطر للذهاب معه وأقضي وقتا طيبا معه ومع زوجته، خديجة، التي كانت تودني كثيرا. «صموئيل، انتظرني قليلا، سوف أصنع لك ساندويتشه، لقد اشتريت لك خصيصا جامبون دو باري». كانت تقول حين أتركهم في الصباح.

وقد اصبحت أتهرب من دعواته، منذ أن جاء أخوه عبد العزيز من مرسيليا ليقيم عنده، وكثيرا ما كانت تنشب مشادة كلامية بين الأخوين بسببي. كان عبد العزيز اسلاميا متطرفا، بلحية طويلة ويغطي رأسه بالطاقية البيضاء حتى وهو في البيت.

«لا أعرف ما الذي يعجبكم في هذا اليهودي الذي تقحمونه في حياتنا»؟ قال عبد العزيز ذات مرة.

«يا أخي هذا بيتي وليس بيتك» رد عليه مراد، وغمز لي وكنت جالسا إلى جانب خديجة ونحن ندخن سجائرنا. فراح عبد العزيز يمشي في الممر وهو يدردم مع نفسه. كنا نعرف انه كان منزعجا من وجودي.

«هذا اليهودي يأتي ليتجسس علينا» قال عبد العزيز. وبالرغم من انني لم أكن أتدخل بين الأخوين الا انني وجدت نفسي أقول «أنا لست يهوديا». فقام مراد من مكانه غاضبا وقال لأخيه «لماذا لا تذهب إلى غرفتك وتتركنا مرتاحين. لماذا لا تكون عادلا، لقد جئتني وقلت انك تريد ان تبقى معي بعض الوقت حتى تدبر أمورك».

«هل تطردني يا مراد؟».

«انني لا أطردك، ولكن إذا كنت لا ترتاح لاصدقائي فابحث لك عن مكان آخر».

«يجب ان تشعر بالعار من هذا الكلام» قال عبد العزيز.

«آسف مراد، أنني أفضل أن أخرج الآن». قلت.

«اذا خرجت من هنا لن أكلمك طيلة عمري». قال لي مراد والتفت إلى أخيه «اسمعني جيدا، نحن أخوة، نحن جزائريان، يعني عندنا نفس الرأس القاسي، بالله العظيم لو سمعتك تتدخل في شؤوني بعد اليوم، سوف ترى ما أفعله».

«هل تهددني يا مراد» قال عبد العزيز

«لا تتهجم على صديقي في بيتي، هذا ما أريدك أن تفهمه، إذا لم يعجبك الأمر، احمل أغراضك واترك البيت غدا، هذا كل ما استطيع ان اقوله لك اليوم».

كانت خديجة تبتسم وتنظر بفخر إلى زوجها. بينما ذهب عبد العزيز إلى غرفته وأغلق الباب وراءه.

وهناك صديقي الرسام السوري جوزيف، صاحب القلب الطيب. ذات مرة اتصلت به في الثامنة صباحا. قلت له انني احتاجه لأمر ضروري. سألني «أين أنت»؟ فقلت «في ساحة الشاتليه». قال لي «هناك

أربعة مقاه تتوزع على أطراف الساحة، واحدة منها تدعى ساره برنارد، انتظرني هناك».

«هل تعرف روبرت دي نيرو»؟ سألت جوزيف ونحن جالسان في مقهى ساره برنارد.

«طبعا» أجاب وقد بدأ يشرب قهوته.

«اسمع جوزيف، لقد شاهدت الكثير من افلام روبرت دي نيرو، وقد أمضيت أمس كله في مركز بومبيدو في قراءة عدة كتب عن روبرت دي نيرو وشاهدت العديد من صوره المهم قمت بدراسة معمقة عنه، تصور انه في الثالثة والاربعين وقد قام بأدوار مهمة جدا في الأفلام التالية:

(Taxi Driver, The Dear Hunter, Raging Bull, Once Upon a Time in America, The king of Comedy)

لقد تمكن دي نيرو من لعب أدوار مختلفة في كل هذه الافلام.

«ممتاز» قال جوزيف وهو يهز رأسه موافقا.

«لذلك ايها العزيز جوزيف اتمنى ان تساعدني. هل يمكن أن ترسم لي بورتريه لروبرت دي نيرو يبدو فيه في الستين من عمره؟».

«لماذا تريده يبدو في الستين».

«لقد اخبرتك في المرة الماضية، انني اكتب سيناريو فيلم يدور في الخمسينات والستينات».

«عن أبيك الأخرس الاطرش الفران المغرم بملكة أنكلترا».

«بالضبط. لقد اكتشفت من خلال البحث الذي قمت به بالأمس، ان دي نيرو هو الوحيد الذي يمكنه أن يلعب شخصية الفران الاخرس الأطرش».

ابتسم جوزيف وقال لي «انني لا اريد ان أحبط من همتك، لكنك حسب معلوماتي، بحاجة على الاقل لسنتين أو ثلاث لانجاز السيناريو،

وخمس سنوات لايجاد التمويل، أضف إلى ذلك سنتين أخريين لكي يدخل السيناريو حيز التنفيذ. في ذلك الوقت يكون دي نيرو قد اصبح قريبا من السن الذي تريد ان تظهره فيه بالرسم»

«طيب، اعمله يبدو في السبعين».

«أوكي، أنا تحت أمرك يا صديقي». قال جوزيف.

«صدقني يا جوزيف سيكون البورتريه عملا تاريخيا، ألا تعتقد ذلك»؟

«سأنفذ ما تريد».

نظرت إلى جوزيف وقلت له «هل يمكنك ان تسلفني مائة فرنك، جوزيف؟». وعندما سمعته يقول «طبعا»، ناديت الغارسون وطلبت كأسا من الباستيس.

أما صديقي المغربي، مهدي الطنجاوي، فقد كان يحدثني طيلة الوقت عن حياته السعيدة مع خطيبته السورية وهي فتاة من حلب. «تحالف الطنجاوي والحلبية» كان يحلو له ان يقول. فذات مساء وكنت جالسا على المصطبة المواجهة لمحل دورييز في السان جيرمان فاجأني الطنجاوي: «أخيرا وقعت في قبضتي، سوف أجعلك تشرب اليوم إلى ان تموت من السكر» قال وهو يحاول ان يخنقني مازحا «هيا هيا تعال معي لنشرب» فدخلنا مقهى بوليميش القريب. «لقد حددنا موعد زواجنا» قال الطنجاوي وهو يضرب كأسه بكأسي. وعندما جاءت خطيبته رشا دعانا الطنجاوي لتناول فواكه البحر في مطعم «پروكوپ» الشهير، الذي كنت دائما أتمنى أن آكل فيه يوما. وامتدت السهرة إلى الفجر، فذهبت وقضيت الليل عندهما.

في الويك اند التالي، وكانت الساعة الحادية عشرة ليلا، كنت على مبعدة بضع خطوات من «سريري» في كاراج اوسترليتز، فجأة كأنني سمعت صوتا ينبثق من اعماقي «ماذا تفعل هنا في هذا البارد القارس»؟ تذكرت صديقي صادق، وعلى الفور أخذت القطار إلى «ڤيل نوف لو

روا» في ضواحي باريس. وجدت صعوبة في العثور على العنوان، لانني كنت قد زرته بالسيارة. ثم اهتديت إلى المنزل في الساعة الثالثة صباحا. كان صادق يقيم في واحدة من البنايات التي تملكها البلدية، وهذه البنايات غالبا ما تكون محطمة الابواب. فصعدت مباشرة إلى شقته في الطابق الثالث وطرقت الباب، دون أن يخطر ببالي ما سيقع! حين انفتح الباب وجدت أمامي، الفتاة الحلبية، خطيبة صديقي المغربي، الذي سافر ليعلم أهله بمشروع زواجه. وكما كانت رشا قد ودعتني بالقبل منذ ايام، استقبلتني بمثلها. بقينا صامتين للحظات إلى ان قالت «لقد شرب صادق البارحة كثيرا جدا». تبادلنا الابتسامات، وعادت إلى غرفة النوم. ألقيت بنفسي على الأريكة في الصالة. في الصباح تناولنا فطورنا سوية.

بعد سنة من زواجهما، أخبرني صديقي الطنجاوي، وهو يدعوني بنفس الحماس إلى الشرب، انه طلق زوجته الحلبية «لقد خنتها كثيرا، حتى بتُ اشعر بتأنيب الضمير، لذلك كان لابد ان اطلقها، لتجد من يخلص لها ويحترمها»! هززت رأسي موافقا وأنا أشرب نبيذ الشاردونيه، في ذلك النهار التموزي، مفكرا بما قاله شامل ذات مرة «لولا الوهم لكانت الحياة عبارة عن جحيم حقيقية».

لماذا لا يحب العرب الأحذية

حسنا، لم يكن العيش بلا مأوى أمرا صعبا فقط، بل انه أمر متعب جدا. لذلك حاولت بضع مرات أن أبحث عن غرفة أستقر فيها. وقد تحدثت مع العديد من الاصدقاء شارحا «تعرفون كم هو صعب ايجاد غرفة في هذه الايام». وقد اخبرني صديق لي كان يقيم في ابينار سو سونار، ان جارته الفرنسية تؤجر بعض غرف المنزل، وانه يمكن ان يدبر لي غرفة عندها، فيما لو وجدت عملا. وخلال يومين، وعن طريق مكاتب العمل المؤقت، وجدت عملا كدهان مع مجموعة من العمال الأتراك الذين علموني أسرار المهنة. فذهبت للاقامة عند السيدة پولين، ولا اعرف ان كان من حسن حظي ام سوئها انه جاء في نفس اليوم شاب من الكاميرون وأقام في المنزل، كان يدرس الهندسة، وفي نفس الوقت يعمل نصف دوام لصالح البلدية.

بعد ساعات من اقامتنا في منزل السيدة پولين، لاحظ «صديقي» الكاميروني انني لا أمتلك الا زوجا واحدا من الأحذية ومع ذلك شاء أن يتأكد من الأمر «لقد لاحظت انك تملك زوجا واحدا من الأحذية، هل هذا صحيح». نظرت اليه وأنا أتوجه إلى المطبخ «نعم هذا صحيح». توقف الكاميروني للحظة وكأنه انشغل في شيء هام، ثم قال «هذا يعني أن العرب لا يحبون الأحذية»! ثم لحقني إلى المطبخ وسألني «لماذا لا يحب العرب الأحذية»؟.

«لا أعرف» أجبته مبتسما وأنا أواصل الطبخ.

في ذلك المساء، طرق الكاميروني باب غرفتي وقال «آسف، انني أشعر بالأرق ولا أستطيع النوم، هل أستطيع أن آخذ قنينة من البيرة الخاصة بك في الثلاجة»؟.

«طبعا». أجبته.

في اليوم التالي قال لي «انني آسف يا صديقي، لقد استعملت بعضا من بصلك كما اخذت القليل من الفلفل الأسود». وفي مرة أخرى «أخذت القليل من الرز من عندك»، ومرة أخرى «لقد اضطررت أن أستعين بالطماطم والخيار من عندك». ثم يقف ويبدو وكأنه يتأمل شيئا ويقول لي فجأة «ولكن لا أعرف لماذا لا يحب العرب الأحذية»؟

«صدقني لا أعرف». أجيبه ضاحكا.

«صباح الخير يا صديقي العراقي» قال لي وهو عائد من عمله كمنظف في البلدية «صباح الخير يا صديقي الكاميروني».

«سوف أكون ممتنا لو اعطيتني سيجارة». قبل أن أمد له السيجارة يقول «آسف البارحة أردت أن اطلب منك بعض السباغيتي، لكن يبدو انك نمت مبكرا، فسمحت لنفسي بأخذ القليل من السباغيتي».

ناولته سيجارة ثم أشعلتها له «ميرسي» قال ثم نظر اليّ وقال «صباح اليوم حين كنت خارجا، رأيت حذاءك عند الباب، بدا لي متعبا، فقلت في نفسي انني حقا اريد ان اعرف لماذا لا يحب العرب الاحذية»؟

ذات يوم أحد خرجت إلى الحديقة فرأيت صديقي الكاميروني يلمع أكثر من ٦ أزواج من الأحذية، سوداء وبيضاء وبرتقالية، ضحك وقال «الأحذية من علامات التحضر، ألا تعتقد ذلك»؟

هززت رأسي موافقا ومبتسما «انني أعمل القهوة للسيدة پولين ولي، هل تريد قليلا من القهوة».

«أنت شخص رائع، يا أخي». قال.

ناولته قدحا كبيرا من القهوة وقلت له «هل تريد أن تعرف لماذا لا يحب العرب الأحذية»؟

«نعم نعم أرجوك، أنني أتوق لمعرفة لماذا لا يحب العرب الأحذية».

«لأن العرب يشترون البيرة والبصل والرز والطماطم والسباغيتي والسجائر والخيار والفلفل الأسود». وأضفت رغما عني «وهم لا يمتلكون عقدة نقص تجاه الأحذية».

منذ تلك اللحظة لم يعد صديقي الكاميروني يكلمني، ولا يحييني عندما نلتقي. وقد تعمد في اليوم التالي أن يريني أنه كان في السوبرماركت اذ أحسست بضجيج في الممر وعندما خرجت وجدته محملا بالكثير من المواد الغذائية «آسف للضجيج، لقد عدت توا من السوبرماركت» قال وهو يروح ويجيء بين غرفته وبين المطبخ.

كانت تلك المرة الوحيدة التي رأيته فيها يذهب إلى السوق. بعد ايام سمعت السيدة پولين تشكي من اختفاء موادها الغذائية من المطبخ. «لقد اختفى كيس الرز» ثم «اعتقد انني اشتريت منذ ايام كيسا من السباغيتي» «من منكما رأى كيس البيتروت، انها ليست في الثلاجة» كانت تتساءل كل يوم.

«هل تستطيع ان تفسر لي ايها السينمائي، اختفاء اشيائي من المطبخ»؟.

«آسف مدام، لم ألمس أي شيء غير خاص بي». كنت أجيبها.

«هل تستطيع ان تفسر لي ايها المهندس اختفاء أشيائي من المطبخ»؟

«اسف جدا مدام. أنا لا أقترب من حاجاتك على الاطلاق».

تتناول السيدة پولين حبة من الاسبرين ثم تعود إلى غرفتها وهي تهز رأسها.

بعد أيام رأتنا سوية في المطبخ فقالت وهي غاضبة «اسمعا انني لم أعد احتمل ما يجري. غرفة نومي مفتوحة، ومجوهراتي مبعثرة في كل مكان، ومع ذلك فانها لم تسرق. إنني استغرب أن تتم السرقات في المطبخ فقط. أريد أن أعرف ما الذي يجري في هذا المنزل بالضبط؟».

كان الكاميروني الذي يتحدث الفرنسية بطلاقة يدافع عن نفسه قائلا «مدام پولين، انني اخرج في الفجر لأكنس الشوارع، ثم اعود لارتاح قليلا ثم اذهب إلى الجامعة. لو كنت اريد ان اكون سارقا لكنت التحقت بالعصابات التي تملأ باريس، بدلا من كنس شوارع (ايپينيه سو سونار)».

«وأنت أيها المخرج السينمائي، ما رأيك في غياب السباغيتي والفلفل الاسود والاحمر والبصل والرز والسكر والقهوة»؟.

نظرت اليها، وأنا أحاول أن اقول شيئا فقالت لي بالانكليزية «سپيك انغلش مش مشكلة».

«مدام، هذه الأشياء لا تهمني كثيرا، صدقيني».

«لقد قامت حروب من أجل هذه الأشياء».

«أعرف، مدام، لقد شاهدت العديد من الافلام عن ذلك»!

«انت لا تعرف الا الحديث عن الافلام، لماذا لا تكتب سيناريو عن سرقة مطبخي، ها» وخرجت مهتاجة.

في صباح اليوم التالي تركت لي تحت الباب رسالة تطلب فيها ان اترك البيت في اقرب فرصة. وفي الظهيرة جاءني الكاميروني يسألني ان كنت قد استلمت رسالة بالطرد، فهززت رأسي بنعم.

«النساء الفرنسيات مريضات نفسيا» قال الكاميروني وأضاف «عندما لا يجدن من ينكحهن جيدا، يتخيلن سرقات في مطابخهن. هل تعتقد يا أخي اننا بحاجة إلى بصلها ورزها وفلفلها الأسود»؟

آلدو ماتشيوني

لا أريد أن أقول إني فجأة قررت أن أحلق شاربي. فالمسألة تمت بشكل طبيعي، كنت في حمام أوسترليتز واقفا أمام المرآة وأنا أحلق ذقني، فوجدت نفسي أحلق شاربي أيضا، للمرة الاولى في حياتي. لم أكن أعرف أنني بهذا العمل أضع نفسي في مواقف غريبة، لم اكن بحاجة اليها على الاطلاق. لقد بدأت «المشكلة» بعد خروجي من غرفة الدوش مباشرة. اذ نظرت اليّ المرأة الصربية المشرفة على الحمام، واخذت تضحك بشكل غير طبيعي، بل بدت غير قادرة على السيطرة على نفسها،

«لماذا تضحكين، مدام». سألتها وأنا ابتسم مندهشا.

«مسيو، صدقني، لقد فاجأتني، لقد اعتقدت ان ألدو ماتشيوني كان يأخذ الدوش عندنا».

«ألدو ماتشيوني؟» قلت وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة الكبيرة التي كانت وراء مكتبها.

«نعم مسيو، انك تشبه ألدو تماما، صدقني!» وعادت تضحك.

«ألدو ماتشيوني يعمل افلاما غبية، وأنا يا مدام أحاول ان اعمل افلاما مختلفة»

«لا تنس مسيو، ألدو ماتشيوني محبوب جدا في فرنسا».

كانت الصربية على حق، فأينما كنت أسير كنت أشعر بالمارة وهم

يرمقونني بنظرات غير طبيعية، كما كان بعضهم يبتسم لي. لم اكن اعتقد ان ألدو ماتشيوني بهذه الشعبية. في الشارع، في الميترو، في المقاهي كان الناس يحدقون فيّ. ذات مرة وفيما أنا جالس في الميترو كانت أم وابنتها المراهقة، واقفتين عند باب الميترو وقد لاحظت انهما كانتا تنظران الي وتتحدثان «تقول الأم ربما. لا اعرف». «نعم ماما نعم، انه هو» ترد المراهقة مصرة. «اعتقد انك على حق يا ابنتي، انه هو» تقول الأم. فترد الابنة Oui mama, c'est lui! (نعم أمي أنه هو)، وحين توقف الميترو نزلت المراهقة ثم نظرت اليّ وصرخت وهي تلوح بيدها «أورفوار ألدو ماتشيوني، أورفوار ألدو ماتشيوني». في تلك اللحظة رأيت عشرات المسافرين يتوجهون بأنظارهم نحوي بطريقة غريبة، لم استطع أن أصدق ما كان يحدث. فأضطررت أن أنزل في المحطة التالية.

عندما أخبرت مراد بالقصة، قال مراد وهو يحاول ان يسيطر على قهقهاته: «هناك حلان، اما أن تعيد شواربك مرة أخرى، أو أن تقرأ صحيفة عربية كلما دخلت إلى الميترو. كانت فكرة معقولة، خصوصا وان مراد أضاف ساخرا «أنت غير مضطر لشراء الجريدة كل يوم، بامكانك استخدام نفس النسخة دائما، لا أحد يعرف العربية ليقول انك تقرأ صحيفة قديمة»، وهذا ما فعلته. وسارت الأمور بشكل جيد لبضعة أيام. لم يكن أي من المسافرين ينظر نحوي، خصوصا وانني كنت أغطي وجهي بصفحتين كبيرتين من جريدتي العربية. يمكنني أن أقول، بالعكس، أنا الذي أخذت أنظر إلى المسافرين الآخرين، لأرى ان كانوا ينظرون الي خفية.

ذات يوم وكنت أقرأ جريدتي القديمة في الميترو، اقترب مني شاب أفريقي وجلس إلى جانبي «هل أنت مسلم، يا أخي» سألني بالفرنسية فأجبته «لا». فقال لي «كيف تقرأ جريدة عربية اذن»؟ فقلت له بشكل جدي «ان اللغة العربية موجودة قبل الاسلام». ابتسم الشاب الافريقي

ونظر اليّ بطريقة ساخرة «ولكنها لغة القرآن». قلت له «هذا صحيح. أين المشكلة»؟ قال لي بابتسامة غبية «من المخجل ان تقول انك غير مسلم وتقرأ بلغة القرآن» فذهب وجلس في المقعد المواجه لي وظل يرمقني بنظرات غاضبة، فاضطررت ان انزل في المحطة التالية، قائلا لنفسي: سوف أكون أكثر ذكاء في المرة المقبلة.

بعد أقل من أسبوع، كنت أيضا جالسا في الميترو أقرأ الجريدة العربية، فقفز رجل افريقي وجلس إلى جانبي وقال لي انه من السنغال «من أين أنت يا أخي؟» سألني بالفرنسية. «من العراق» أجبته. ابتسم «هل أنت مسلم، يا أخي»؟ فأجبته «نعم». وأضفت بسرعة «آسف انني لا أتكلم الفرنسية». فقال بالانكليزية «وي آر مسلمز، وي آر غريت بيپول». (نحن مسلمون، نحن شعب عظيم)، هززت رأسي قائلا «ييس وي آر» (نعم، نحن كذلك). وعدت إلى مطالعة جريدتي، فجأة قال لي «أخي نحن مسلمان، من فضلك ساعدني اعطني عشرة فرنكات». فقلت له «لماذا لا تذهب إلى مسجد باريس» فرد عليّ مبتسما «لا توجد نقود في مسجد باريس» فقلت له وأنا أطوي جريدتي «أنا أيضا لا املك النقود» وتركت الميترو. ألقيت بالجريدة العربية في أول صندوق قمامة واجهني: «أن أكون ألدو ماتشيوني أسهل وألطف» قلت لنفسي دون أن أدري ان هناك مفاجأة تنتظرني.

كنت واقفا في زاويتي في الدانتون، حين سمعت أحد الغارسونات يقول لزميله «أنظر، ها هو مارشيلو ماستروياني». التفت فرأيت مارشيلو يسير على الرصيف الملاصق للمقهى. نظرت اليه مبتسما، من خلال الواجهة الزجاجية، توقف مارشيلو ورمقني بنظرة كأنه يعرفني، ثم ابتسم وواصل طريقه. خرجت من المقهى ولحقته، قلت له انني معجب بأفلامه، فضحك وقال لي: «أوكي آلدو ماتشيوني».

مقبرة بير لاشيز

كان نهارا مشمسا وكان الكثير من الشباب يجلسون في الساحة الأمامية لمركز بومبيدو. كنت أسير شارد الذهن حين قابلت الشاعر أدامس. كان يعتمر قبعة رمادية اللون ويمسك بيديه غليونا وصحيفة فرنسية. كنت سعيدا بلقائه. قال لي تعال لنمشي قليلا حول هذا المكان الجميل. لكنه توقف فجأة وقال «عندما رأيتك منذ لحظات قليلة، بدوت لي حزينا»؟.

«لم أكن حزينا، لكنني كنت لا أزال متأثرا بقصة كئيبة قرأتها للتو في مكتبة مركز بومبيدو».

«لمن كانت القصة»؟

«لسكوت فيتزجيرالد، قصة اسمها Babylon Revisiting قرأتها مرتين»

وقف أدامس للحظة مفكرا ثم قال «عنوان جميل». وأضاف «شيء عظيم أن يقرأ الانسان نصا أدبيا ويتفاعل معه». أخذني الحماس أمام الشاعر الذي كنت معجبا به فقلت له «منذ يومين رأيت فيلما يابانيا عن الحب والجنس والطبيعة».

«هذا الموضوع يهمني جدا» قال أدامس.

«كان بطل الفيلم مغرما بالطبيعة إلى درجة تجعله ينفر من زوجته ومن عشيقته ليتيه في الغابة، ممارسا الجنس مع الأشجار. وفي النهاية يقوم البطل بقتل كل افراد أسرته وينتحر هو أيضا».

«هذا رجل مجنون» قال أدامس «هل يوجد أجمل من جسد المرأة في هذا الكون»؟

كان أدامس قد قرر الإقامة بشكل نهائي في باريس، وكان يلقي بعض المحاضرات في الكوليج دو فرانس، وكتبت عنه الصحف الفرنسية بانه من المرشحين الاقوياء لنيل جائزة نوبل للآداب في تلك السنة. (سيظل على قائمة المرشحين لسنوات عديدة أخرى).

«في أي منطقة من باريس تقيم»؟ سألني. «في كل باريس» قلت ضاحكا ثم أخبرته بانني في الحقيقة أعيش بلا منزل بسبب غدر أحد الاصدقاء لي. ورويت له الحكاية القديمة للستوديو في رو بابيلون. هز أدامس رأسه وقال لي «ألم أقل لك عندما قابلتك للمرة الاولى، ابتعد عن العرب، لن يأتيك منهم إلا وجع الرأس». وبعد برهة من الصمت سألني «هل عندك مهنة معينة»؟

«اعرف الضرب على الطابعة، بالعربية طبعا».

«ممتاز» قال ثم انشغل في اشعال غليونه. «انني ابحث عمن يطبع لي مخطوطة كتابي الجديد، وهو كتاب كبير الحجم». ثم اضاف «تعال لنصعد إلى شقتي ونتحدث في هذا الموضوع». فذهبنا إلى الشقة الصغيرة التي كان يقيم فيها آنذاك في شارع «رو دو فينيز» المواجه لمركز بومبيدو. «هل تريد ثلجا؟» سأل وهو يعد كأسين من الويسكي «لا، شكرا» أجبته. «أنا أيضا أفضل الويسكي بلا ثلج، خصوصا في الظهيرة». وعندما أخذنا نتحدث عن طباعة اعماله قال لي انه لا يستطيع ان يدفع اكثر من ثمانية فرنكات للصفحة الواحدة. كما اقترح ان يعطيني مقدما ٢٠٠٠ فرنك لأتمكن من السكن في فندق رخيص «على الاقل لمدة اسبوعين. أليس هذا حلا معقولا»؟

«معقول جدا، لن أنسى لك هذا الجميل أبدا» قلت له.

«ولا يهمك، انت شاب طيب».

اتفقنا ان نلتقي في اليوم التالي في نفس المكان لكي استلم منه المخطوطة. وأصبحنا، منذ ذلك اليوم، أصدقاء، وظللت لسنوات عديدة أطبع العديد من كتبه، وكان يقدم لي المساعدة المالية حتى بدون طباعة.

أمضيت أكثر من ساعة في بولڤار ڤولتير باحثا عن فندق مناسب، وكذلك فعلت في رو اوبركامبف وأفينيو بارمنتييه. وبالرغم من انني كنت متعبا، وأحمل معي حقيبتي وطابعتي، الا انني كنت مصرا على مواصلة البحث عن الفندق المناسب، وحين وجدت نفسي أعود ثانية إلى ساحة الريبوبليك، تساءلت «ولكن ما هو الفندق المناسب الذي ابحث عنه». كانت معظم الفنادق الرخيصة تتراوح اسعارها بين ٨٠ و١٠٠ فرنك لليلة الواحدة. دخلت مقهى باروميتر وشربت بيرتين، ثم عدت لأسير في أفينيو دو لا ريبوبليك وبعد ساعة وصلت إلى ساحة غامبيتا. وضعت أغراضي على الأرض شاعرا بانني وجدت أخيرا ما كنت أبحث عنه. وما هي الا دقائق حتى أستأجرت غرفة في الطابق الثاني من فندق بيرينيه، وقد دفعت أجرة عشرة أيام مقدما.

«هذه الغرفة تستحق أكثر من ١١٠ فرنكات» قلت في اعماقي وأنا أنظر من النافذة المطلة على مقبرة بيرلاشيز التي كانت تغطيها طبقة من الشعاع الأحمر في ذلك الغروب.

منذ اللحظة الأولى لدخولي مقبرة بيرلاشيز هتفت في سري «اذا كان مركز بومبيدو منجما للثقافة والفنون، فها أنا أكتشف اليوم حديقة الروح». كانت الساعة التاسعة والنصف صباحا حين دخلت بيرلاشيز، ولم استطع الخروج الا عند اغلاق ابوابها في السادسة مساء. كأن ثمة مغناطيس أمسك بي طوال الوقت وأنا أدور بين شوارع المقبرة وممراتها، بين القبور والأضرحة، أقرأ بنشوة وانفعال أسماء الموتى وما كتب في شواهد قبورهم، ولم يتلاش تأثير المغناطيس الا بعد أن أخذت الشمس بالمغيب.

خلال أربعة أيام صرت أعرف جميع أجزاء المقبرة بدون خريطة. كما صرت أعرف مواقع قبور بعض المشاهير من الفنانين والكتاب والمفكرين. كان يمكنني أن أقول للسياح: هنا ترقد ماريا كالاس، خلفها على اليمين صادق هدايت قريبا منه مارسيل بروست، اذهب إلى اليسار تجد ايزادورا دنكن، خلفها سيمون سينيوريه (لم يكن إيف مونتان قد التحق بها بعد)، اذهب إلى اليمين تجد غيوم اپولينير، اصعد إلى دولاكروا تجد جيرار دو نرفال يقف أمامه، مواجها بلزاك، اصعد إلى بيزيه، انحرف إلى اليمين إلى صديقي جورج ميلييس، ثم واصل صعودك إلى يلماز غوني، بعد ذلك انحرف يسارا نازلا إلى جول رومان، إلى شوبان، واصل نزولك إلى جيم موريسون، إلى اوغست كومت، إلى بارمونتييه (الذي اتذكره كل يوم لانه جلب البطاطا إلى فرنسا من اميركا اللاتينية)، إلى يمينه ترى موليير وإلى جواره لافونتين انزل قليلا إلى سارة برنارد، واصل المشي إلى اليسار ثم اهبط دفعة واحدة إلى موديغلياني واديث بياف حيث تجد بالقرب منها پول ايلوار واذا ما مشيت قليلا وجدت غيرترود شتاين وقبل أن تغادر حديقة بيرلاشيز قف وتأمل اوسكار وايلد، وهو على شكل امرأة مجنحة.

بعد أن انتهيت من طبع مخطوطة الشاعر أدامس، شعرت بالشوق إلى الذهاب إلى السان جيرمان بعد انقطاع خمسة أيام. كنت أنظر بين فترة وأخرى من النافذة إلى المطر المتساقط، فأؤجل مشروع الخروج، لكنني حين سمعت صوت سيارة اقتربتُ من النافذة لأرى سيارة تاكسي في موقف التاكسي الواقع تحت نافذتي مباشرة، ارتديت ثيابي ونزلت فورا.

«آسف، انني أنتظر شخصا ما» قال السائق وهو يدخن سيجارته «ها هو زبوني قادم راكضا» قال وهو يشير إلى بوابة بيرلاشيز. لكنني لم أر شيئا سوى المطر الذي لم أعد أذكر ان كان أبيض أو ذهبي اللون في تلك الليلة، وهو يتساقط فوق أضواء الشارع. نظرت إلى السائق

مستغربا، فابتسم «زبوني جالس إلى جانبي الان، مسيو» قال السائق وهو يشغّل محركات سيارته وينطلق. دخلت إلى الفندق ونظرت إلى الساعة المعلقة في صالة الاستقبال، كانت العاشرة الا ربعا، خرجت على الفور إلى بقالية المغربي الملاصقة للفندق، اشتريت قنينة نبيذ أحمر وعلبة حمص وعلبة من جبنة «كرافت» الصفراء وصعدت إلى غرفتي.

لا أعرف كم كان الوقت، عندما أيقظني صوت محرك سيارة بدت وكأنها بالقرب من سريري. كانت قنينة النبيذ فارغة وكذلك علبة الحمص، بينما بقيت علبة الكرافت كما هي. اقتربت من النافذة فرأيت سائق التاكسي واقفا تحت المطر وهو ينظر صوبي وحالما رآني التفت إلى بوابة المقبرة وأخذ يلوح بيده وهو يحرك شفتيه كأنه كان يصرخ «أورفوار، أورفوار» ثم رمقني بنظرة سريعة ودخل سيارته.

في ظهيرة اليوم التالي كنت خارجا من بيرلاشيز، في طريقي إلى ساحة غامبيتا حينما رأيت سائق التاكسي يخرج من سيارته ويعترضني مبتسما «بونجور مسيو».

«بونجور مسيو» قلت له.

«ألا تريد تاكسيا الآن، انني حر».

«لا، شكرا مسيو» أجبته مبتسما وواصلت سيري.

«مسيو، لا تظن انك الوحيد الذي يبحث عن تاكسي في الليل». قال السائق وهو يتبعني «بيرلاشيز هو أيضا فندق، معظم زبائني هم من القاطنين فيه. انهم ايضا يحتاجون إلى التاكسي في الليل. انهم في غاية اللطف، يجلسون إلى جانبي بصمت، وأنا أدور بهم في شوارع باريس قبل أن أعيدهم إلى مكانهم»

نظرت إلى السائق وقلت له ضاحكا «لكنني لم أر أي شخص في سيارتك البارحة».

«انت لا تستطيع أن تراهم، لانك لست سائق تاكسي» قال الرجل.

«على اية حال، شكرا مسيو، انني عطشان اريد ان اذهب إلى المقهى».

«أوه، مسيو، انتظر قليلا. لقد تذكرت الآن، كم هي غريبة هذه الحياة، انها مليئة بالمصادفات العجيبة. تصور ان الزبون الذي كان معي بالأمس، وهو شاب لطيف جدا، قال لي انه يعرفك. أليست هذه مصادفة عجيبة»؟

أخرجتُ سيجارة وأشعلتها وأنا ما زلت انظر إلى السائق مبتسما باستغراب. فواصل الرجل كلامه وقد بدا حزينا «ربما هو يدعي معرفتك، مسيو. لقد قال لي انه ينظر إلى نافذة غرفتك كل ليلة منذ خمسة أيام، وانه يسمع ضربات طابعتك، مندهشا بانك ما زلت طباعا سريعا. قال انك جعلته يطبع اسمه بطابعتك العربية منذ سنوات. قال انك اهديته مرة تي شيرت فيه جبال وشمس وبساتين وعاشقان في قارب صغير قبالة منزل تظلله نخلة كبيرة. قال انك حين استأجرت غرفة للمرة الوحيدة في حياتك، اشترى لك ورق حائط، مطرزا بالأسماك والزهور والنساء العاريات المستلقيات تحت ظلال نخيل عالية على شواطئ هونولولو أو تاهيتي، قال انه كان يسميك زا لايير (الكذاب)، لانه كان يحبك، كما قال انك الوحيد الذي أسر له بقصة حبه للفتاة التي هجرته فاضطر ان يغادر بلده ولم يعد اليه الا جثة. قال انه حزين الآن لانك في باريس ولا تزوره».

«فرانسوا» قلت للسائق والدموع تسيل فوق خدي. «انك تذكرني بصديقي الجميل فرانسوا، الذي قُتل في بيروت. لم أكن أعرف انه هنا في بيرلاشيز، أقسم بالله إنني لم أكن أعرف ذلك».

كانت ثمة فتاة فلسطينية جميلة تعمل معنا، تقول لي «أرجوك قل له انني أحبه، يا لله كأنه ألان ديلون». فلما قلت ذلك لفرانسوا نظر اليّ وهو يحمل صحيفة «اللوموند» وقال ضاحكا «زا لايير» (الكذاب). وأخذ

منذ ذلك الوقت يطلق عليّ هذا الاسم. كنت أقول له «انني لا أكذب عليك يا فرانسوا، انها تحبك» كان يهجم عليّ ويخنقني مكررا «زا لايير». بعد أن مات فرانسوا، حصلت الفلسطينية الجميلة على منحة دراسية إلى بلد ما واختفت.

«هات لنا قنينة نابليون» قال لي في ذلك الصباح من تموز ١٩٨١ دون أن ندري ان الطائرات الاسرائيلية ستلقي فوقنا أطنانا من القنابل، في اللحظة التي مد لي فرانسوا ١٥ ليرة لبنانية: «سوف آتي في المساء إلى غرفتك لنسكر الليلة، زا لايير» قال مبتسما وهو يتركني، وما أن قطع بضع خطوات حتى قامت القيامة.

أتذكر أنني حالما تعرفت على فرانسوا سألته فورا «هل يمكن أن تحدثني قليلا عن النوفيل فاغ؟». ضحك يومها وأخبرني باسماء المخرجين الذين كانوا يؤلفون هذه الحركة السينمائية. فقلت له بعفوية «انت فرانسوا تروفو» فرد عليّ بالعربية «وأنت جان لوك غودار» وضحكنا.

لم يكن اسمه الحقيقي فرانسوا، بل لقبا أطلقه عليه الفلسطينيون. كيف لي اذن أن أعرف اسمه لأستدل على قبره. قبل أن تغلق بقالية المغربي نزلت واشتريت قنينة نابليون، حيث أمضيت الليل كله مسترجعا ذكرياتي مع فرانسوا. تذكرت انني كنت احتفظ بصورة لي التقطت في مكتب الاعلام الذي كنت اعمل فيه في بيروت، بعد ثلاثة ايام من مجزرة الفاكهاني التي راح ضحيتها فرانسوا. في الصورة أبدو جالسا خلف مكتبي وثمة ملصقان معلقان على الحائط، خلفي. ملصق لمجموعة من ضحايا المجزرة، وآخر لفرانسوا. على الفور أخرجت من حقيبتي الكيس النايلوني الكبير الذي احتفظ فيه بصوري، فعثرت على الصورة التي اريدها. لم يكن يظهر في الصورة، سوى سنتيمتر واحد من الجزء السفلي من ملصق بني اللون وكتابة بحرف صغير جدا لا يمكن

قراءتها بسهولة. في الصباح استعرت من مكتب الاستقبال في الفندق مكبرة تمكنت بواسطتها من قراءة ثلاث كلمات كانت مكتوبة بالعربية (نيكولا روايبه «فرانسوا»).

لم يستغرق بحث موظفة مكتب الاستعلامات في مقبرة بيرلاشيز سوى بضع دقائق حتى حددت لي بدقة أين يقع قبر فرانسوا: (نيكولا غيوم روايبه ١٩٥٦ باريس - ١٩٨١ بيروت) هذا ما كان مكتوبا على قبره، الذي لم يكن بعيدا عن قبر ماريا كالاس وصادق هدايت ومارسيل بروست. منذ ذلك اليوم، لم أنقطع عن زيارة صديقي أبدا. كنت أنظف قبره وأضع الزهور فوقه، ثم أتمدد على المصطبة القريبة منه مفكرا في الأوقات الجميلة التي أمضيناها معا.

محاولة انقلابية

كنت نازلا من الطابق الأول من مقهى كلوني، حين رأيت عبد الوهاب جالسا في الطابق الأرضي، على يمين السلم، كان يتصفح بعض الكتب التي يبدو انه اقتناها للتو. كان عبد الوهاب مهووسا بالكتب السياسية بشكل عام، وسير الزعماء السياسيين بشكل خاص. كنت قد رأيته مرات عديدة يقلب كتبا عن حياة ساموزا ميشيل، سوكارنو، ميخائيل غورباتشيف، تيتو، بن غوريون، بنازير بوتو وآخرين. كما كان يعشق كتب المذكرات التي يكتبها الجواسيس، أو مدراء أجهزة المخابرات.

كان عبد الوهاب، صحفيا ناجحا، وكنت من المعجبين بمقالاته التي كانت مزيجا من التحليل السياسي والسرد القصصي. كان يعتني بمظهره بشكل مبالغ فيه، بل كان يتفاخر بانه لا يرتدي ثيابا إلا من أرماني وشيروتي ولاكوست. وكان نزقا، حاد المزاج، وتشعر في بعض الاحيان أنه يبحث عن أسباب ليفتعل مشاجرة.

ذات مرة كنت جالسا مع فائزة في مقهى «ماندران». رآنا عبد الوهاب فدخل المقهى وجلس معنا. قدمته كصحفي مرموق، وقدمت فائزة كرسامة موهوبة. قال لها فورا «هناك بعض الرسامين غير الموهوبين يجب سجنهم». وعندما قلت له ان «فائزة تدرس الهندسة المعمارية أيضا». قال بسرعة «هذه مناسبة جيدة، هل يمكن أن أطرح عليك سؤالا»؟.

«طبعا، تفضل» قالت فائزة بتهذيب.

«برأيك، كم كيلوغراما من (تي ان تي) نحتاج لنجعل برج ايفل ينبطح على الأرض؟». التفتت فائزة اليّ مصدومة، ثم سحبت فاتورة الحساب من تحت فنجانها وقالت «آسفة، لا أستطيع مواصلة الجلسة» وراحت تبحث عن النادل، دون أن تودعني بقبلة كعادتها.

«هكذا هن الفتيات العربيات، يحاولن اصطناع الرهافة». قال عبد الوهاب منزعجا.

«فائزة فتاة حساسة بالفعل، ثم يا اخي ألم تجد سؤالا آخر لتطرحه عليها».

«هل نكحتها»؟ سألني عبد الوهاب بطريقة مفاجئة ليغير مجرى الحديث.

«لا. نحن مجرد اصدقاء».

صحيح ان فائزة كانت فتاة جميلة، ولكني كنت أستغرب هذا السؤال الذي طرحه عليّ العديد من أصدقائي المثقفين العرب الذين رأوني معها. حتى شاعرنا الكبير آدامس سألني ثلاث أو ربع مرات «هل نكحت تلك الفتاة الناعمة»؟

«ابق معي، أدعوك على كأس من الكالسبيرغ» قال عبد الوهاب بعد أن غادرت فائزة.

«لم أرك منذ مدة طويلة. أين كنت»؟ سألته.

«كنت في بعض الدول الافريقية، ومن هناك سافرت إلى القاهرة» قال وهو يشرب قهوته وأضاف: «في القاهرة التقيت ببعض المثقفين العرب، يعيشون بشكل بائس، وقد اكتشفت انهم لم يسمعوا بمعظم الكتب الجديدة. يا لهم من تعساء». وراح يسهب في الحديث عن الحياة السياسية في العالم العربي فوصفها في النهاية بانها «منحطة»، وفجأة سألني «هل أنت جائع»؟

«نعم». أجبته.

كانت الساعة السادسة مساء، فقال عبد الوهاب «نذهب إلى مطعم Chez Hamadi انه يقدم طعاما جيدا، لأن صاحبه يهودي تونسي» وأضاف «ان المطاعم العربية الجيدة في باريس، عادة يكون أصحابها من يهود شمال أفريقيا». ثم قال وهو يلوي فمه ممتعضا «أما المطاعم اللبنانية فهي كذبة كبيرة. كل طعامهم يتكون من الحمص والفول والفلافل وبعض المشويات التي سرقوها من المطبخ التركي» وسألني «ألا تتفق معي ان اصحاب المطاعم اللبنانية مجموعة من الدجالين»؟

هززت رأسي موافقا.

قبل أن ندخل في شارع «رو دو لا هارب» في طريقنا إلى مطعم «شي حمادي» قال لي عبد الوهاب فجأة «انتظرني هنا. لا تتحرك» وهرع داخلا مطعم الماكدونالد الواقع في رأس الشارع. بعد دقائق عاد بصحبة فتاة سمراء نحيلة، في العشرينات. قالت ان اسمها ليلى. وقدمني لها: «سامي، سينمائي عراقي». واقترح ان نقوم بالتسوق من احد السوبرماركات ونذهب للسهر في بيته قائلا: «سامي طباخ ماهر». وافقت ليلى وقالت بمرح «ما رأيكم لو ذهبت وجلبت أختي الصغيرة سهير، انها تقيم على بعد خطوات من هنا، بالقرب من ساحة السوربون».

«فكرة مذهلة» قال عبد الوهاب، الذي أغرم بسهير منذ اللحظة الاولى. كانت شقراء، ممتلئة وقصيرة ولم تكن تبلغ العشرين. «اترك الصغيرة المدورة لي، أنا أعرف كيف أتعامل مع هذا الصنف». قال لي هامسا ونحن في الطريق.

اختار عبد الوهاب لحنا راقصا، ثم فتح قنينة من النبيذ الاحمر، أخذت ليلى ترقص، وحين أرادت مراقصة عبد الوهاب قال لها ضاحكا «انني لا أجيد الرقص الا مع هذا النوع من الفتيات» وسحب سهير من

يدها وراح يراقصها، ثم قليلا قليلا أخذها إلى غرفة النوم. سمعت سهير تقول «انني جائعة» فرد عليها «سوف نأكل فيما بعد».

«أنت أيضا تشتهي أختي أليس كذلك؟» قالت ليلى وهي تجلس على الأريكة.

«هذا غير صحيح» أجبتها، وأضفت «عفوا سوف اعود بعد قليل». في طريقي إلى التواليت، كانت غرفة النوم الخاصة بعبد الوهاب مفتوحة، فرأيته ممسكا بحزامه الجلدي وهو يجلد سهير، التي كانت جاثمة على ركبتيها وهي تمص قضيبه.

عدت إلى الصالة فوجدت ليلى وقد خلعت بنطالها الجينز وكانت تدخن سيجارة. جلست إلى جانبها.

«ألم أقل لك أنت أيضا تشتهي أختي»؟ قالت مبتسمة وهي تطفئ سيجارتها.

«لماذا تقولين هذا الكلام؟» أجبتها وأنا أمد يدي واسحب كيلوتها الصغير، فنهضت وجلست في حضني. كنا نمارس الجنس حين جاء عبد الوهاب وقال بغضب «ليلى! لماذا لم تخبريني بأن أختك عذراء»؟.

كانت ليلى تصعد وتهبط في حضني، فقالت وهي تلهث: «ماذا أفعل لك، أنت أخترت أختي، وأنا أخترت صاحبك. كل واحد منا قام باختياره بشكل حر».

«حسنا أيتها الفتاة المسلمة، تتحدثين عن الاختيار الحر! هل تعلمين انك تنكحين الآن مع يهودي»!.

«أنظر، أنني فوقه وليس العكس» قالت ليلى وقد أخذت تسرع من حركاتها، وتنظر اليّ بعينين بدتا شديدتي اللمعان وسط الكحل الأسود المحيط بهما وقالت بالفرنسية «ولكنك لست ضد الفلسطينيين، أليس كذلك»؟. حين همست في أذنها بأنني لست يهوديا، سمعتها تصرخ

منتشية «سيه ترو تار، سيه ترو تار (فات الأوان، فات الأوان) ثم نامت على كتفي.

هاج عبد الوهاب وأخذ يصرخ غاضبا «أخرجوا من بيتي فورا. هيا أخرجوا، لا أريدكم ان تبقوا هنا ولو لحظة واحدة» وأخذ يجمع أغراض الفتاتين ويلقي بهما عند الباب. كانت الساعة الثالثة صباحا حين وجدنا أنفسنا في الشارع. قالت سهير ضاحكة «هل صحيح انه صحفي». فهززت رأسي بنعم.

نزلت ليلى في شارع «رو مونج» لأنها لا تزال تقيم مع أمها، كما قالت. بينما ظللنا سهير وأنا في التاكسي حتى بولڤار السان ميشيل.

قالت سهير «تعال معي إلى غرفتي حتى يبدأ الميترو بالعمل». فقلت لها «مش مشكلة، سوف أمشي على قدمي، شقتي ليست بعيدة من هنا». ضحكت سهير وهي تتكئ على شجرة وسط بولفار السان ميشيل: «أنت لا تملك أي شقة، صديقك الصحفي قال لي كل شيء» وواصلت الضحك.

كنا نصعد السلالم الخشبية المؤدية إلى غرفتها الصغيرة في الطابق السابع».

«نعم، أنا بلا مأوى، انها الحقيقة». قلت.

«ماذا كنت تعمل في السابق»؟

«صحفي»

«وكيف اصبحت في الشارع اذن؟»

«ألا تعتقدين أنه من الغباء ان أظل صحفيا طوال عمري!»

فردت سهير وهي تلهث من جراء صعود السلم «معك حق. حسنا، أنا لست عذراء، وليلى ليست أختي، أيضا».

بعد أقل من شهر اعترضني عبد الوهاب في الشانزيليزيه، قال لي انه

يأسف لما حدث في تلك الليلة. وأصر أن يدعوني لشرب أي شيء في المقهى. كانت الساعة الثامنة ليلا، وكنا في مقهى «لو باريس». لم أكن أحب هذا المقهى، لأن العديد من رواده من الصحفيين العرب المتعاونين مع اجهزة المخابرات التابعة للدول للعربية أو التابعة للسفارات العربية في باريس. هذا ما كنت أسمعه باستمرار من المثقفين العرب المقيمين في باريس. اذكر انني سألت ذات يوم عبد الوهاب عن أحد الصحفيين العرب. فقال لي عبد الوهاب «انه يعمل مع دي اس تيه»! (أي المخابرات الفرنسية، كما شرح لي لاحقا). يومها ضحكت وقلت له «أنا أيضا يسمونني اس دي اف». (تطلق على الشخص الذي يكون بلا عنوان ثابت).

كنا نقف عند البار، طلب لي عبد الوهاب كأسا من الكالسبيرغ، ثم وضع ورقة نقدية في جيبي قائلا «هذه مائة فرنك، اشرب كما تشاء، ولا تزعل مني. أنني مضطر للجلوس وحدي. لقد تعرفت اليوم على سيدة لبنانية تعمل مستشارة لبعض الشركات الخليجية» ثم أضاف «لقد ذهبت لتضع سيارتها في كاراج في ساحة (بورت مايو) لانها مسافرة إلى دبي غدا صباحا» وقبل أن يذهب ويجلس قرصني من خدي وقال: «من يدري، لعلها تأتي معي الليلة»!

رغم انني كنت جالسا عند البار، فانني كنت استطيع رؤية المستشارة التي كانت تبدو جميلة. كانت تتحدث طوال الوقت وكان عبد الوهاب يصغي اليها ويبتسم. لم أشأ ان أصرف وقتي وفرنكاتي في ذلك المقهى المضجر، كنت على وشك المغادرة حين ناداني عبد الوهاب وقدمني لصديقته المستشارة: «صديقي كاتب بوهيمي». ابتسمت السيدة التي كانت جميلة حقا وصافحتني «لا يبدو انه بوهيمي» ثم أضافت وهي تداعب عبد الوهاب «يا عزيزي، لا تحاول أن تخفي الأمور، أنا أعرف، انه البودي غارد الخاص بك».

في تلك اللحظة برقت عينا عبد الوهاب، وراقت له فكرة «البودي غارد»، فأمسك بيدي: «أين يمكننا أن نشتري الشمبانيا الجيدة في مثل هذا الوقت»؟ سألني.

«دروغستور شارل ديغول ايتوال». أجبته.

غمز لي وقال هامسا «ابق معنا».

في تلك الليلة أخذت مني المستشارة أربع سجائر. واحدة عندما كنا لا نزال نتحدث في مقهى «لو باريس». والثانية حين راح عبد الوهاب يشتري قنينة الشمبانيا من الدروغستور، والثالثة عندما كنا نشرب الشمبانيا في شقة عبد الوهاب، والرابعة حين كنت مستلقيا فوق الأريكة الجلدية البنية اللون، عندما جاءت ووقفت عارية بالقرب من رأسي، أخذت سيجارة من العلبة الموضوعة على الطاولة، أشعلتها وسألتني مبتسمة «هل تجد صعوبة في النوم؟». لم أعرف بماذا أجيبها، خصوصا وانني كنت احاول أن أبعد نظري عن فرجها المحلوق بدقة، تماما مثل فروج نساء مجلات البورنو. سَحبت نفسا من سيجارتها ونفثت الدخان بقوة وعادت إلى غرفة عبد الوهاب.

في الصباح، أخبرني عبد الوهاب بنبرة فخورة أنه استيقظ مبكرا وطلب لها تاكسيا أقلها إلى مطار شارل ديغول. وقال وهو يشرب قهوته ويحك خصيتيه «لم أنكح امرأة في حياتي مثلما نكحت بالأمس».

«هل أخذت منك نقودا»؟ سألته. نظر اليّ عبد الوهاب بانزعاج «كنت أعتقد بانك آشوري متحضر، ولست مثل العرب. هل تحاول أن تهينني بسؤالك الأحمق؟. هل تريد ان تقول ان تلك السيدة عاهرة»؟

«آسف عبد الوهاب، ليس هذا قصدي». قلت معتذرا

«ما هو قصدك اذن»؟

«أوكي، انها الغيرة يا عزيزي» قلت لكي أرضيه.

«لم يحطم العرب إلا غيرتهم من بعضهم» قال وهو يحك خصيتيه ويدخل الحمام.

اقترح عبد الوهاب أن نتناول طعامنا في البيت، كما اقترح ان نطبخ المعكرونة بالبطاطا ولحم البقر. في طريقنا إلى السوبرماركت قال لي انه سيطلعني على أمر هام جدا «لا يعلم به حتى الآن إلا رئيسا دولتين عربية وافريقية». ثم توقف عند أحد المصارف، نزل من السيارة وراح يسحب بعض النقود. حين عاد دس بعض الأوراق النقدية في جيبي قائلا: «هذه مجرد ألف فرنك للدخان والشراب» وقهقه بصوت عال «يا مرافقي العزيز». وعندما خرجنا من السوبرماركت قال عبد الوهاب وهو يضع نظارته الشمسية: «لن تنام في الشوارع بعد اليوم. سوف أقوم بعمل نقلة نوعية في حياتك»، وقبل أن ندخل منزله قال وهو يحك خصيتيه: «هل تعتقد ان الوزراء العرب أذكى منك». ثم فجأة انتقل للحديث عن السيدة اللبنانية: «نعم، لقد أعطيتها ألفي فرنك لتشتري هدية لنفسها. ربما احتاجها ذات يوم كمستشارة اقتصادية»!. وأضاف بصوت لطيف «انني اعتذر لك، كان يجب أن أنظر إلى سؤالك على انه نوع من الحرص عليّ».

فقلت له ساخرا «لقد أخذت مني تلك المستشارة أربع سجائر. هل تعرف ماذا يسمون ذلك بالفرنسية»؟.

«ماذا؟» سألني.

«سي ديه آ».

«هذه جديدة، ما تعني»؟

«مدخنو سجائر الآخرين». وضحكنا.

بعد أقل من ٤٨ ساعة من مضاجعته لـ«مستشارته»، شكا لي عبد الوهاب من وجع في قضيبه. كنا في مقهى كلوني. قلت له «ربما لانك أكثرت من وضع الهريسا في المعكرونة». فرد عليّ وهو يشعر بألم «لا

لا، الهريسا تحرق مؤخرتك فقط». قلت له «تعال معي إلى التواليت في الطابق الأول». وصعدنا فورا، فوجدنا قضيبه ملتهبا وكانت تصدر منه روائح عفنة.

«اسمع مسيو، عليك أن تخبر السيدة التي نمت معها بمراجعة طبيبها في أسرع وقت». قال الطبيب مخاطبا عبد الوهاب، وأضاف «أنها سيدة خطيرة، كانت تعرف مسبقا بما تقوم به».

«ها أنا أصبح مرافقا وممرضا خاصا لك يا سيدي» قلت لعبد الوهاب ضاحكا وأنا أحقنه في مؤخرته.

«ما رأيك بمصطفى الحداد»؟ سألني عبد الوهاب ونحن نشرب الكالسبيرغ في زاوية في عمق مقهى «كافيه دو فلور». لقد اصبح عبد الوهاب منذ عودته من سفرته الاخيرة «إلى افريقيا» التي استغرقت ثلاثة اسابيع تقريبا، يتجنب مقاهي الشانزيليزيه: لو باريس ودوفيل ومادريغال. «لا أسرار في تلك المقاهي» كان يقول.

كنت قد سألته ذات مرة لماذا لا يرتاد مقهى الفوكيتس «انها واسعة، ويمكن التحدث فيها بحرية». نظر اليّ وقال ساخرا «الفوكويتس مقهى مصاب بالشيزوفرينيا، في الليل يرتاده بعض نجوم السينما، بينما يعشعش فيه طوال النهار كويتيون وسعوديون وقطريون، تراهم جالسين مفتوحي الأفواه مثل طيور المقابر».

«مصطفى الحداد، شاعر موهوب، وهو من أعز أصدقائي» أجبته.

«ألا تعتقد انه ثرثار»؟ سأل عبد الوهاب.

«انه ذكي وموهوب، لذلك يتحدث كثيرا عن الشعر والفلسفة».

«انه صديقي أيضا، ولكنني أخشى من لسانه أحيانا».

«لماذا تخشى من لسانه، انه باق في باريس اسبوعين آخرين فقط وبعدها سيرجع إلى البلاد».

«بالضبط. لذلك أريد أن أتفاهم معه حول بعض الأمور قبل عودته».

«عبد الوهاب، منذ فترة وانت تلمح إلى شيء ما، لم أفهمك. هل هناك شيء تريد ان تعلمني به ولا تثق بي».

«بالعكس» قال عبد الوهاب «أنا أثق بك تماما. ولكنني ارغب ان اطرح الموضوع أمامكما، أنت ومصطفى».

«انه يسهر في المقاهي المحيطة بالسوربون، في هذه الايام». قلت وأنا أنهي بيرتي.

«اذا وجدناه سوف ادعوكما إلى مطعم فرنسي فاخر». قال عبد الوهاب.

مررنا بكلى المقاهي المحيطة بالسوربون دون أن نعثر على مصطفى. جلسنا في احد المقاهي التي كان يرتادها في شارع شامبليون المتفرع من ساحة السوربون، سألت الغارسون ان كان مصطفى قد مر في ذلك اليوم.

«انه في مونت كارلو» قال الغارسون.

«ماذا يفعل الصعلوك في مونت كارلو؟» قال عبد الوهاب «ألا تعرف متى يعود؟»

ضحك الغارسون وقال دون أن يتوقف عن تجفيف الكؤوس التي كانت بين يديه «لا تفهمني خطأ، مسيو، انه في فندق مونت كارلو» وأشار بيده إلى الفندق المواجه للمقهى. فضحكنا.

كان عبد الوهاب في التواليت، حين قال مصطفى هامسا: «نحن في أرقى مطعم فرنسي في السان جيرمان، اسمعني جيدا، عبد الوهاب ابن بلدي وأنا أعرفه جيدا، لو لم يكن في حاجة ماسة لنا لما جاء بنا إلى هذا المطعم». وظل مصطفى يهمس في اذني بين لحظة واخرى، وعندما

جاء عبد الوهاب قال مبتسما «لماذا لا تتحدث بصوت مسموع يا مصطفى؟»

«ما بك يا عبد الوهاب؟. هل تريدني أن أقول بصوت عال انني مارست العادة السرية صباح اليوم فوق صورة صديقتي الموجودة حاليا في احدى الجزر اليونانية. هل هذا يهمك»؟ وحين قرّب مصطفى كأس النبيذ من فمه لاحظت أن يده كانت ترتعش. كانا صديقين لدودين، وقد تعاركا بالأيدي أكثر من مرة. لذلك فان مصطفى لا يستبعد أن يقوم عبد الوهاب بالاعتداء عليه في أي لحظة.

«رغم أنك شيطان حقيقي يا مصطفى، فأنا احبك» قال عبد الوهاب وهو ينظر اليّ.

كنا نشرب «الهينيسي» في شقته عندما فاجأنا عبد الوهاب قائلا «سنعينك وزيرا للتربية والتعليم يا مصطفى» ثم نظر اليّ «وأنت يا سامي ستكون وزيرا للثقافة، بالرغم من كونك عراقيا. سنقتدي بتجربة الثورة الكوبية»! نظر اليّ مصطفى متعجبا. فواصل عبد الوهاب كلامه «اشترينا ١٥ سيارة اسعاف، وسوف تكون في البلد في الشهر المقبل. كما قمنا بادخال نصف مليون دولار إلى البلاد».

«لماذا لا تشرح لنا الأمور بالتفصيل يا عبد الوهاب»؟ سأل مصطفى

«إنني اعمل على مشروع ثورة هادئة في بلدنا».

«تقصد انقلاب» قال مصطفى.

«تقريبا» رد عبد الوهاب، ثم حمل قنينة الهينيسي وجلس إلى جانب مصطفى وقال وهو يملأ كأسه «يا مصطفى أنت من أذكى الناس الذين التقيتهم. انظر إلى وضعك، اصبحت في الأربعين من عمرك وما تزال تعيش عبئا على أبيك. لماذا؟ إلى متى تظل تلك المجموعة من المجرمين تنهب مقدرات بلادنا فيما الشعب غارق في الفقر والجوع والمرض. أنا لا أريد أن أؤذي احدا، فقط أحلم بتطوير بلادي».

«من يقف وراء هذا الانقلاب»؟ سأل مصطفى

«أنا وأنت وسامي» أجاب عبد الوهاب.

«هل سنقوم بالانقلاب من باريس»؟

«سنقوم بالثورة من داخل البلد يا عزيزي مصطفى». قال عبد الوهاب «سوف تراني هناك قريبا. سامي سيصل قبلي وسيكون مجهزا بأحدث كاميرا فيديو، سيلعب دور الصحفي، كما سيقوم بتصوير الثورة. لن تستغرق العملية أكثر من ١٢ ساعة. كل شيء سينفذ بهدوء وبدون اراقة أي قطرة دم».

«ما هي الخطة بالضبط هل تستطيع أن تشرح لنا»؟ سأل مصطفى.

«اسمع يا مصطفى، بلدنا يحكمه رجل أصبح خرفا».

«انني أسأل عن الخطة» قال مصطفى.

«لا يوجد أبسط منها». قال عبد الوهاب «ولكن انتبه يا مصطفى سوف أقتلك لو سمع بها أي شخص».

«اذا كنت لا تثق بي، لماذا لم تتركني مرتاحا في مونت كارلو».

«لا تحاول ان تفتعل المشاكل، انني أحبك يا مصطفى وانت تعرف ذلك، ولكني اشعر احيانا انك تحاول استفزازي».

«اذا كنت تريد ان تكون قائد ثورة لماذا تشعر بالاستفزاز من صديق؟».

«حسنا، حسنا» انحنى عبد الوهاب وقبل رأس مصطفى.

«ايها الرفاق» قال عبد الوهاب ونهض من مقعده وسار ووقف في وسط الصالة: «الخطة بسيطة للغاية، سوف تتوجه سيارات الاسعاف وتطوق المقر الرئاسي، وسوف يشارك في الهجوم ٣٥ عنصرا، جميعهم يرتدون الزي الطبي، وهم مجهزون بالاسلحة الرشاشة والار بي جي ٧، رغم انني واثق اننا لن نحتاج اليها. كما أحب أن أعلمكم باننا حصلنا

على الضوء الاخضر من البلدان المجاورة، ومن سفارات بعض الدول الغربية».

«هل هناك يد للقذافي في هذ العملية»؟ سأل مصطفى.

«فقط التمويل. لقد التقيته ثلاث مرات وبحثنا في استقلالية قرارنا».

«أنت تعرف يا عبد الوهاب انني اعتبر هذا الشخص دكتاتورا كبيرا». قال مصطفى بغضب.

«أتفق معك انه دكتاتور. لكننا بحاجة اليه في الاشهر الاولى».

«متى تبدأ العملية؟» سألتُ.

«قبل نهاية السنة الحالية»، رد عبد الوهاب.

«أنا موافق» قال مصطفى «حتى لو كذبت عليّ بصدد الوزارة».

«المسألة منتهية يا سيادة الوزير» قال عبد الوهاب وهو يحتضن مصطفى ويقبله. أخذنا نضحك حتى الفجر، دون أن يعلم عبد الوهاب ان مجموعة أخرى كانت تقوم بالتخطيط لنفس الأمر، وقامت بالفعل بتنفيذ خطتها الانقلابية في أحد أيام ذلك الشتاء. في ذلك اليوم، كان عبد الوهاب جالسا في مقهى كلوني، عندما بلغه نبأ الانقلاب في بلاده. وقد حزن أيما حزن، ليس فقط لأن بعض الضباط في بلاده قد سبقوه إلى الانقلاب، بل لانه في تلك الظهيرة، تماما، كان في مركز بومبيدو يشاهد فيلما وثائقيا عن الثورة الكوبية، وانه دوّن العديد من الملاحظات الثورية الاستراتيجية الهامة.

وقد أصبح عبد الوهاب منذ ذلك اليوم لا يرتاح الا إذا افتعل مشاجرة مع شخص ما.

ذات مساء. خرجنا من مقهى «بيريغوردين» في ساحة السان ميشيل. كنا أربعة عبد الوهاب وخلف ونبيل وأنا. اتفقنا أن نذهب إلى مطعم. قال عبد الوهاب أنه يقترح مطعما عربيا شعبيا قريبا من المكان. فرد

خلف، وكان يعمل قنصلا في سفارة بلاده «اعرفه، انه مطعم سخيف، اصحابه متدينون لا يقدمون الخمر».

«منذ متى أصبحت تمتنع عن دخول المطاعم التي لا تقدم الخمر، يا أستاذ؟». رد عبد الوهاب ساخرا.

«توجور» (دائما) أجاب خلف بالفرنسية مبتسما. ثم وضع خلف يده على كتفي «ايها الصعلوك الجميل، جد لنا مطعما جيدا يقدم لنا النبيذ الفرنسي الفاخر».

«مطعم فرنسي أم عربي؟» سألت؟

«فرنسي» قال خلف.

شعرت بأن عبد الوهاب بدأ يغلي في داخله. بدا قلقا. فقال مخاطبا خلف «في نهاية المطاف، نصبح نحن الشمال أفريقيين غرباء عن الثقافة الفرنسية، ويتحول بدو الصحراء متذوقين للنبيذ الفرنسي، كل هذا بفضل آبار النفط».

«ليس من اللياقة أن تحدثني بهذه الطريقة يا عبد الوهاب» قال خلف.

«كيف تريدني أن أكلمك يا حضرة القنصل». رد ساخرا.

«كن مهذبا من فضلك». قال خلف.

«أنا أكثر تهذيبا منك» رد عبد الوهاب.

«في هذه الحالة، أنا آسف لا أريد أن أنزل إلى هذا المستوى من الكلام» قال خلف وأراد أن يودعنا.

«كس أمك وأم البدو». قال عبد الوهاب بغضب وكان يرتعش. لقد صدمت بما قاله عبد الوهاب، ولم أفق من صدمتي إلا حين رأيت خلف وهو يوجه لكمات عنيفة نحو عبد الوهاب ويلقيه أرضا ثم ينقض عليه مثل النسر «لا أحد يشتم أمي يا جبان». قال خلف خانقا عبد الوهاب بكل قوته. ولا أعرف من أين جاءتني القوة إذ تمكنت من ابعاد خلف عن عبد الوهاب الذي ظل يسعل وهو ملقى على الأرض.

«لولا تدخلك، كنت قضيت عليه ودخلت السجن مدى الحياة» قال لي خلف فيما بعد.

بينما ظل عبد الوهاب يردد أمام بعض الاصدقاء: «لقد وقف الكلب الآشوري ضدي» وسمعت انه ينتظر ان تتحسن صحته لكي يصفي حسابه معي. وقد نفذ ذلك في أحد أيام الكريسماس، اذ وجدني واقفا في بار مقهى «روليه أوديون».

«لقد خنتني عندما وقفت مع ذلك الخليجي الحقير». قال وهو يطلب فنجاة قهوة.

«هذا غير صحيح، لقد أنقذت حياتك يا عبد الوهاب» أجبته.

«أنت سكير، كيف تستطيع أن تنقذني»!

«شكرا» قلت له وخرجت من المقهى، دون أن أنتبه إلى انه كان يتعقبني.

كنت قد وجدت صديقي الكاتب التونسي محمد القروي وبعض اصدقائه الفرنسيين في بار جميل جدا في شارع «مسيو لو برانس»، فطلبوا أن أسهر معهم. كانت هناك فتاة تغني Je suis venu te dire لسيرج غينسبورغ وكان محمد القروي يشاركها الغناء ايضا. كانت الأغنية المفضلة في وقت ما. بعد دقائق رأيت عبد الوهاب يدخل إلى البار ويتحدث مع الغارسون، الذي وضع أمامه قنينة من الكالسبيرغ. (عبد الوهاب يعتبر الكالسبيرغ من أفضل أنواع البيرة). بعد برهة اقترب عبد الوهاب من طاولتنا، وخاطبني أمام الجميع «أنت شخص تافه ومشبوه، لا أحد يعرف كيف تعيش. سوف أفضحك، سوف أكشف تعاملك مع أجهزة المخابرات، من يدري ربما نكتشف انك تعمل مع الموساد الاسرائيلي أيها النذل». ظل يشتمني بعبارات بذيئة. مما اضطرني أن أرد عليه قائلا: «أنت جبان يا عبد الوهاب، لا تقدر إلا على ضرب النساء». قذف عبد الوهاب قنينة الكالسبيرغ تجاهي، فجاءت في رأسي، ثم فر

خارجا من البار. لحقته على الفور، لكنه كان قد أختفى. كانت الدماء تسيل من رأسي وأنا أتنقل من مقهى إلى آخر، كنت أفتش حتى المراحيض. وهكذا أمضيت الليل حاملا عصا غليظة وأدور في الشوارع بحثا عن عبد الوهاب الذي لم يجرؤ على دخول الحي اللاتيني طيلة أسابيع، إلى أن أرسل لي شخصا يعرض الوساطة بيننا، فقبلتها شرط أن يدفع ٣٠٠٠ فرنك. وقد وافق عبد الوهاب على ذلك. حين التقينا في مقهى كلوني، قال لي انه كان قد سلفني في السابق بعض النقود. فأجبته «لا تنس يا عبد الوهاب، لقد كنت آنذاك وزيرا للثقافة في حكومتك الانقلابية». وضحكنا.

موت الأب

كانت ظهيرة باردة حين خرجت من صالة السينما بعد مشاهدة فيلم The Glass Menagerie، لم أكن أعرف ان پول نيومان، الذي أحببته دائما كممثل، سوف يفاجئني بمقدرته على صنع فيلم مذهل من كل النواحي. «ذي غلاس ميناجيري» سيظل لسنوات في مخيلتي. تصوير رائع للحزن النقي. كنت على وشك أن أدخل مقهى روليه أوديون، لكنني حين نظرت إلى الساعة المعلقة إلى جانب تمثال دانتون، وكانت تشير إلى الرابعة والنصف، هرعت إلى مكتب بريد «الأوديون» لأتفقد رسائلي في «البوست ريستانت». كانت هناك رسالة واحدة بست طوابع عراقية تحمل كلها صور صدام حسين. أخذت أقرأ الرسالة: «أخي العزيز، لقد وصلتنا بطاقتك الجميلة التي أرسلتها من مدينة «كان» أثناء حضورك المهرجان السينمائي هناك. انني شديد الأسف اذ اعلمك بان والدنا العزيز قد توفي منذ ثلاث سنوات، وانه يرقد تحت رعاية السيد المسيح والسيدة مريم العذراء. أمي تسأل ان كنت قد بدأت بالعمل في السينما. كلنا نصلي من أجل أن تحقق أحلامك. المخلص أخوك تيدي».

نظرت إلى الرسالة للحظات ثم مزقتها وألقيتها في صندوق القمامة في مكتب البريد وخرجت إلى بولڤار السان جيرمان. كانت الحياة بلا صوت، وكان الناس يمشون مسرعين، بخطوات قصيرة، تماما مثلما في الأفلام الصامتة.

شربت كأسين من البيرة في مقهى «روليه أوديون»، ثم رحت أسير في بولڤار السان جيرمان. ذهبت أبحث عن صديقي جان كلود مينغ الذي كان يبيع اللوحات في البولڤار. فلم أجده. بل وجدت فابيان، الذي كان جالسا على الأرض متكئا على سياج كنيسة السان جيرمان، وكان كعادته يرتدي ثيابا أنيقة. كان قد وضع أمامه قطعة كرتونية كتب عليها «أنا بحاجة إلى عمل. يمكنني ان اكون طباخا خاصا أو سائقا خاصا»، وكان بعض المارة يلقون ببعض القطع النقدية في قبعة فابيان الموضوعة على الأرض.

«ألم تر مينغ اليوم، فابيان»؟ سألته.

«لم أره منذ أيام، أعتقد انه ذهب للاقامة عند ذلك الشخص، انت تعرفه، اقصد الثري الذي يستغله موفرا له بضعة أيام من المنام، فيرسم له مينغ لوحات جميلة».

هززت رأسي موافقا.

«على فكرة، رأيتك منذ أيام تتحدث مع مارشيلو ماسترورياني، إنه جار جدتي في السان سولبيس». قال فابيان.

هززت رأسي.

«يبدو انك حزين».

«فابيان، اليوم وصلني خبر وفاة أبي».

«أنا آسف جدا» قال فابيان «أرجوك خذ بعض الفرنكات من القبعة واذهب واشرب كأسا من البيرة. أعرف انك مفلس، هيا، لا تخجل، يجب ان نتضامن مع بعضنا. خذ كل الفرنكات ان شئت، انت تعرف انني لست شحاذا. كم كان عمر والدك»؟

«لا أعرف».

«جدتي اصبحت في التاسعة والتسعين الآن».

لقد أخبرني فابيان ذات مرة، ان جدته سجلت في وصيتها أن يكون منزلها في السان سولبيس من نصيب فابيان. منذ ذلك اليوم أصبح يخبرني كلما التقيته: «لقد أصبحت جدتي في السابعة والتسعين» أو «جدتي صارت في الثامنة والتسعين» واليوم أضاف سنة أخرى.

مددت يدي في قبعة فابيان قائلا: «هل أستطيع أن أخذ ٣٠ فرنكا»؟

«خذها كلها ان شئت». قال فابيان.

«حسنا سوف آخذ ٤٠ فقط».

«اذهب، اذهب واشرب شيئا، الله يكون في عونك».

عبرت إلى الجهة الاخرى من البولڤار، ودخلت مقهى «سان كلود»، وطلبت كأسا من الباستيس. بعد لحظات اقتربت مني صاحبة المقهى مدام بياتريس التي كانت تجلس عادة وراء كشك السجائر وقالت لي «صاحبك مينغ لم يظهر في البولڤار منذ مدة» ثم حدقت فيّ وقالت: «هل أنت حزين»؟

«نعم مدام»، ثم اخبرتها بوفاة والدي. نظرت الي مدام بياتريس «آسفة، ألم تكن أنت من ابلغني بوفاة والدك منذ فترة»؟

«لا لا مدام، ذلك كان فريد». قلت لها.

«أوه، ذلك الرسام الكردي الذي شنق نفسه» قالت..

«نعم» أجبتها.

كان فريد من أكراد تركيا، وكان رساما موهوبا، كان الوحيد الذي يرسم لوحات زيتية في بولڤار السان جيرمان. كانت لوحاته عبارة عن فضاء أزرق يمتزج فيه البحر بالسماء، ونجد في كل اللوحات زورقا صغيرا، تارة نراه في اليمين وأخرى في اليسار، أو في العمق، وأحيانا على حافة اللوحة أو خارجها. كان فريد قد حصل على الجنسية الفرنسية وسافر لزيارة أهله في تركيا، وبعد عودته بأيام فوجئ الجميع بنبأ انتحاره. كان قد شنق نفسه في الغرفة التي كان يقيم فيها.

لقد حزن العم صالح كثيرا حين أعلمته بوفاة أبي. خرج من وراء البار وعانقني، ورغم انني غالبا ما كنت أشرب في محله البيرة أو النبيذ، إلا انه صب لي دوبل بلاك ليبل وقال وهو يربت على كتفي «عندنا كسكسي اليوم».

كنت أشرب عند البار ناظرا إلى رصيف شارع «رو دو لا تومب اسوار»، بعد لحظات رأيت صموئيل بيكيت واقفا في الشارع وهو ينظر اليّ. كان العم صالح مشغولا بغسل الكؤوس ثم ذهب إلى المطبخ. بقي بيكيت جامدا في مكانه لدقائق. أنظر اليه فأراه ينظر اليّ دون أن يتحرك من مكانه. شعرت ببعض الحرج واحترت فيما يجب أن أفعله، إلى أن جاء العم صالح الذي حالما نظر إلى الشارع وهتف بصوت عال وملوحا بيده «بون سوار شير مسيو، سافا بيان». فهز بيكيت رأسه مبتسما ولوّح بيده هو الآخر ثم واصل طريقه إلى أن اختفى في آخر الطريق، الذي سيسمى بعد أن يموت بيكيت بعد سنتين «طريق صموئيل بيكيت».

كان العم صالح قد اخبرني انه يعرف «ذلك الرجل الطيب» منذ سنوات بعيدة: «انه يقف أمام المحل ولا يتحرك إلى أن يحييني. انه يفعل هذا منذ سنوات طويلة». هز العم صالح رأسه وكرر «نعم أنه رجل طيب».

منذ بضعة أشهر، كنت قد ذهبت مع صديقي شامل لزيارة الفنان والكاتب الاسباني فرناندو أرابال، المقيم في باريس، من اجل حوار لمجلة عربية. ما ان سمع أرابال باسمي حتى نظر اليّ بطريقة خاصة، ثم ابتسم وذهب إلى احدى غرف شقته الواسعة، بجدرانها وسقوفها المغطاة بلوحات أصلية من أعمال أصدقائه مثل بيكاسو وسلفادور دالي واخرين. كما كانت هناك أربع لوحات زيتية كبيرة معلقة في السقف، كلها تحمل صورة أرابال وهو على شكل ملاك طائر في السماء، وعنده قضيب طوله متر. في بعض اللوحات نصف متر. حين عاد أرابال الذي كان يحمل

نسخة من احدى كتبه القديمة «هذا كتاب لا يوجد منه الا نسخ معدودة، أحب أن أهديك نسخة منه» قال لي وأخذ يكتب بضع كلمات في صفحة الاهداء ومده لي: «أرجو أن تحتفظ به وألا تبيعه». ويبدو انه أحس انني استغرب اهتمامه بي، فأخبرني ان ولده يدعى صموئيل: «وقد يكون الوحيد الذي يحمل هذا الاسم في كل اسبانيا» وأضاف مبتسما «وقد أسميناه تيمنا بصديقي العزيز صموئيل بيكيت الذي كان معنا عند ولادة ولدي».

في تلك الليلة بقيت عند العم صالح حتى الثانية صباحا. شربت كثيرا، وأكلت كسكسي طيبا، كما بكيت كثيرا، وكتبت قصيدة لأبي:

«بونجور، جان فالجان، بونجور، جان فالجان». فتح عينيّه، فأحس بصداع هائل في رأسه. ظلام الفجر كان مخيما فوق بلدية الدائرة الخامسة لمدينة باريس. نظر إلى بوابة «البانتيون» الرخامية، فرأى شبحا ضخما بلحية كثة يدخل البانتيون وينغلق الباب وراءه. كان متعبا في الليلة السابقة فلم يستطع مواصلة طريقه المعتاد، من ساحة البانتيون منحدرا شارع مونتاني سانت ـ جينيفييف، إلى شارع ديزيكول ثم كاردينال لوموان بعدها رصيف لا تورنيل ثم رصيف سان برنار ليصل إلى محطة قطارات اوسترليتز، حيث يبيت مثل كل ليلة. وحين لمح سيارة الشرطة تقترب من البانتيون، استيقظ بسرعة، اتكأ بظهره على سياج المقبرة، وراح يقلب في محفظة الاوراق: مخدته. كان خائفا من الشرطة، فليس مسموحا للاجئ مثله أن ينام في الشارع. نظر رجال الشرطة اليه ومروا بسيارتهم. حمد الصوت الذي أيقظه من نومه «بونجور جان فالجان» وقال في نفسه «من سواه، يحنو على

المشردين في الفجر، غير عدو الشرطة، ذلك العملاق، فيكتور هوغو». في ذلك الفجر، كانت أوراق الخريف تغطي بولڤار سان جيرمان، حين لمح علبة سجائر فارغة، ضربها بمقدمة حذائه الرياضي، فراحت العلبة تتدحرج وتكبر وتكبر، حتى وصلت إلى ساحة «الأوديون» قرب تمثال «دانتون» تماما. عندها بدت العلبة بحجم التمثال، ضرب بيده في الريح وسحب سلما لا مرئيا، تسلقه حتى نهايته، وعندما فتح العلبة الضخمة، رأى فيها أباه نائما، مبتسما.

مهرج امبرتو ايكو

أوسترليتز،

أوسترليتز

أنتِ بيتي ووطني،

أيتها المحطة العزيزة،

أوسترليتز

عدت من ميونيخ بعد أن أمضيت ثلاثة أسابيع عند بعض الأصدقاء هناك. وضعت ثيابي وأوراقي وطابعتي في «صناديق الايداع» في بيتي: أوسترليتز، ثم ذهبت لأستلقي على مصطبة في حديقة «جاردان ديه بلانت» المواجهة للمحطة. كنت أنظر إلى السماء الغائمة، إلى «السيناريست الأعظم»، وقد تملكتني رغبة كبيرة بالصراخ بأعلى صوتي «لقد سئمت هذا الدور الرتيب، يا إلهي»! ولم أبارح الحديقة الا عندما أخذ المطر يتساقط بنعومة. فهرولت عائدا إلى المحطة لأغير الماركات الالمانية القليلة التي كانت معي، ثم انطلقت في شوارع المدينة التي بتُّ أعرفها وأنا مغمض العينين.

ذهبت لأشرب في حانة «الايرلندي» في ساحة الكونترسكارب. بعد كأسين من الغينيس، شعرت بالانزعاج، اذ سرعان ما امتلأت الحانة بالزبائن. لقد اصبحت الحانات الايرلندية موضة في باريس في هذه الايام على الرغم من أن سعر كأس الغينيس يتراوح بين ٣٨ و٤٥ فرنكا. وقد

تكاثرت هذه الحانات إلى درجة ان اصبحت هناك نقابة خاصة بعمال الحانات الايرلندية، وكذلك مجلة تهتم بشؤونهم. ثم انتقلت من «الايرلندي» إلى حانة «ماي فلور» في شارع ديكارت القريب، ولم اخرج من هناك الا حين شعرت بالجوع. كان الوقت قد قارب منتصف الليل وما زال المطر يسقط، فأخذت اركض إلى ساحة البانتيون، ثم شارع سوفلو ودخلت شارع فكتور كوزان ومنه إلى ساحة السوربون، نازلا إلى شارع ديزيكول. وقد فعلت كما كنت أفعل كلما مررت من أمام تمثال «مونتاني»، وقفت للحظة أتأمل ابتسامة صاحب التمثال فيما احدى يديّ كانت تلامس حذاءه. ثم تابعت هرولتي داخلا شارع كلوني، وهو شارع فرعي وشبه مظلم، ورغم ان رصيفه كان مكتظا بالسيارات فان عيني لمحتا «جثة» رجل كانت ملقاة بين سيارتين. كان الرجل لا يزال يتنفس، فقلبته على ظهره، ورحت أنظف أنفه ووجهه من الدماء والاوحال. كانت رائحة كحول قوية تنبعث من فمه. حملته ووضعته على مقدمة احدى السيارات، فأخذ الرجل يردد بصوت واهن «ميرسي، ميرسي مسيو».

سألته ان كان يريدني أن أذهب وأستدعي الاسعاف، فرد بصوت قوي «لا لا، لا داعي، شكرا جزيلا». تلفت يمينا ويسارا وقال «لقد انقذت حياتي، نعم لقد انقذت حياتي ايها الرجل الطيب». وبعد أن استعاد حيويته حدق فيّ وسألني «من أي بلد أنت»؟.

ابتسمت له ابتسامة كبيرة، دون أن أقول شيئا. كنت قد عرفت، منذ أن تحدث الرجل معي، بانه ايراني، من خلال اللكنة التي تخللت لغته الفرنسية. كانت الحرب العراقية ـ الايرانية لا تزال مستمرة، ففكرت ربما انني سأزعجه فيما لو اخبرته بكوني عراقيا.

«من الباكستان». أجبته أخيرا.

ضحك الرجل ضحكة طويلة، ثم قال بصوت واضح «تصور يا

أخي، من بين ١٢ مليون خنزير يقيم في هذه المدينة، يرسل الله لي أخا مسلما لينقذ حياتي، أليست هذه معجزة»؟!

ظللت محتفظا بابتسامي، وكنت على وشك أن أجيبه «بأنني واحد من هؤلاء الخنازير». لكنني فضلت ألا أفسد عليه تلك المعجزة، خصوصا وان صديقا لي، حدثته ذات مرة، ونحن نشرب في مقهى «أولد نيفي»، عن الاعمال الطيبة التي أقوم بها أثناء جولاتي الليلية في شوارع باريس، فوصفني بالسامري الصالح، ثم ضرب كأسه بكأسي.

رغم مضي أربع سنوات على وجودي في باريس فأنا لم أتعود على الذهاب إلى المطاعم. كثيرا ما كنت ألقي السبب على قلة الفرنكات التي أمتلكها. لكن ذلك لم يكنْ صحيحا. مرات عديدة كان معي الكثير من المال ومع ذلك كنت أنفقه في الشراب ولا أنتبه إلى مسألة الطعام الا حين أشعر بآلام في بطني، فأجد نفسي متجها صوب «لا روز دو تونس» لأتناول ساندويتش «مرغيز مع البطاطا المقلية». وهذا أسوأ ما يمكن أن يتناوله المرء على الاطلاق.

أكثر من مرة قلت لصاحب المطعم التونسي «ساندويتشاتكم قذرة» فكان يرد عليّ مبتسما «لم يجبرك أحد على المجيء إلينا». فأرد عليه «ماذا أفعل إذا كان لا يوجد أحد غيركم بعد منتصف الليل؟».

كان الرجل يضحك ويرد «بل قل الحق، انك تأتي الينا لانك لا تستطيع ان تجد في كل باريس ساندويتشه باثني عشر فرنكا».

«أثنا عشر فرنكا»؟ أقول متهكما.

«وهل تدفع أكثر من ذلك»؟ يسألني

«صحيح أن ساندويتشكم باثني عشر فرنكا، ولكن لا تنس انني اضطر في كل صباح إلى استهلاك قنينتين كبيرتين من مياه «البيرييه» لكي أنظف معدتي من مرغيزكم القذر».

«يا أخي من فضلك لا تأت الينا مرة اخرى» يصرخ صاحب المطعم

ثم يشير إلى شارع «رو دو لا هاشيت: «هناك، تجد العشرات من محلات ساندويتشات الأتراك».

ورغم ان ساندويتشات «لا روز دو تونس» غير صحية، الا انني كنت أفضله على ساندويتشات الأتراك (غالبا يسمونه الساندويتش اليوناني). فهؤلاء، عدا عن كونهم يتصرفون مثل عصابات المافيا، كان سلوك بعض العمال مقززا. مثلا، ترى العامل الواقف أمامك، وهو يقطع اللحم ويرتبه لكي يصنع لك ساندويتشا، في نفس الوقت تراه يمد رأسه إلى الشارع ليصفر لفتاة جميلة تكون مارة من امام المطعم، ثم يلتفت اليك قائلا «هل رأيت، مسيو، كم هو جميل فمها، أكيد أنها تمص جيدا». وقد حدث انني كنت آكل عند أحدهم حينما رأيت العامل يحك قضيبه بكلتا يديه وهو ينظر إلى فتاة كانت تمر في الشارع ودون اي خجل قال لي «هل رأيت مؤخرتها، مسيو، أنا متأكد أنها تضاجع من دبرها»! وليس مفاجئا أبدا أن يترك العامل التركي مطعمه، قافزا إلى الطابق الثاني، ليعود بعد لحظات مبتسما، بعد أن قام بالاستمناء، بالتأكيد.

كما تجد بينهم من المتبجحين والكذابين. خذ هذا مثلا: ذات ظهيرة، وكنت آكل ساندويتشي، مرت بائعة فيتنامية متجولة، طلب منها بائع الساندويتش التركي ان تستعرض له ما عندها، أخيرا أعجبته قداحة مطلية بالذهب، ظل يماطل مع البائعة المسكينة إلى ان أوصل سعر القداحة إلى خمسة فرنكات، ولما وافقت البائعة، قال لها «هل أعطيك كأسا من اللبن أو البيبسي كولا مقابل ذلك؟». فردت المسكينة انها غير عطشى. وبعد مضي دقيقتين قال العامل لزميله المجاور، انه حصل على القداحة الذهبية، من فتاة دانماركية كان قد نكحها في احد الفنادق الملاصقة لكنيسة النوتردام.

ان العديد من بائعي الساندويتشات في الحي اللاتيني في باريس هم من هذه النوعية. بينما اصحاب «لا روز دو تونس»، إذا تناسينا حبهم

الشديد للمال، وهذا من طبائع البشر، فأن اقصى ما يفعلونه هو انك ترى عمالهم يمخطون أمامك ثم يمدون لك الساندويتش، ويمكن اضافة ملاحظة اخرى، وهي انهم يستخدمون نفس الزيت لقلي مئات الآلاف من المرغيز.

*

كنت في مكتبة مركز بومبيدو (بوبور) أقرأ «Wait Until Spring, Bandini» للكاتب الاميركي جون فانته، الذي كنت قد قرأت له أيضا «Ask the Dust» بعد أن دلني صديقي محمد القروي على هذا الكاتب، الذي ذاق هو الآخر مرارة الفقر والتشرد في شبابه. بعد قراءة فانتهَ، توجهت إلى قسم اللغات لأتابع دروسي في تعلم اللغة الالمانية. أنني أحب هذه اللغة، وكنت أرغب في تعلمها منذ وقت طويل. كانت الدروس التي نطالعها يوميا تتحدث عن حكايات طريفة تقع في أسرة المانية مكونة من ڤالتر وغريته وابنائهما غونتر وكريستيل وانغه وفريتز. والحق انني كنت استمتع بالمنهج السلس المتبع في كتاب التعليم: «إيش كان دويتش».

كنت في بعض الاحيان عند انتهاء المدة المخصصة لي وهي ساعة، أقوم بتسجيل أسمي لحصة أخرى. كنت أستنسخ دروسي كل يوم وأظل أردد المفردات الجديدة طوال الطريق من «مركز بومبيدو» مرورا بساحة «الشاتليه» إلى «السان جيرمان»:

der Mantel المعطف

der Pelz الفرو

der Knochen العظم

der Frieden السلام

الحرب der Krieg

الله der Gott

الحبيب der Liebling

حيوان البيت das Haustier

الكتاب das Buch

الحياة das Leben

الثلج das Eis

الفأر die Maus

العالم die Welt

الليل die Nacht

ثم أدخل مقهى دانتون، مازحا مع مانويل قائلا «غوتن آبيند مانويل» (مساء الخير مانويل)، يبتسم مانويل، يضع سيجارته جانبا، يستل كأسا فارغة يعبئها بالبيرة ويضعها أمامي.

«سا فا» (كيف الحال؟) يسألني.

«تريه بيان» (جيد جدا) أجيبه.

ذات مساء وكنت أشرب في زاويتي المعتادة، دخل المخرج السينمائي جان لوك غودار، طلب فنجانا من القهوة وراح يستعرض الجالسين في الصالة كأنه يبحث عن شخص ما. حين بدأ غودار يشرب قهوته، كان ينظر إلى السقف تارة، وإلى الأرضية تارة أخرى. في هذه اللحظة، أشرت إلى مانويل أن يقترب مني، وهمست في أذنه قائلا «أرجوك لا تأخذ النقود من هذا السيد (وأشرت إلى غودار)، قل له من المحل، وأنا أدفع لك الثمن». ابتسم مانويل وقال «حاضر».

حين انهى غودار قهوته، أخذ يمسح نظارتيه، ونظر اليّ وصنع ابتسامة خفيفة. فابتسمت له بدوري. ثم التفت إلى مانويل.

«كم من فضلك»؟

«الحساب مدفوع، مسيو»؟

«ممن»؟

«من المحل» رد مانويل مبتسما.

«ميرسي مسيو» قال غودار وهز رأسه مبتسما.

«من هو هذا الرجل»؟ سألني مانويل بعد أن خرج غودار.

«انه الرجل الذي أنقذ حياتي». أجبته وأنا أدفع أمامه كأسي الفارغة ليملأها.

*

كان الطقس شديد البرودة، وقد ذكرت الأخبار ان عددا من المشردين ماتوا في شوارع باريس. ربما بسبب هذه الأخبار، قررت أن أذهب للمبيت عند شامل، وهو الصديق الوحيد الذي أستطيع أن أطرق بابه في أي لحظة أشاء. هبطت إلى الميترو وتوجهت إلى بورت دي كليشي.

لم يكن شامل في البيت، فذهبت إلى مقهى الجزائري في بولڤار بيسييه، القريب من شقة شامل. بعد لحظات هرعت خارجة من المقهى سيدة شقراء كانت جالسة في الزاوية. سرعان ما عادت وهي تقول بالفرنسية «القحبة التونسية سبقتني» ثم نظرتْ إلى صاحب المقهى «أنها لا تخشى البرد».

عندما بدأت التردد على حي «بورت دي كليشي» لاول مرة، خرجت من محطة الميترو وسرت على رصيف بولڤار بيسييه الملاصق لسياج مدرسة البنات الابتدائية، وقد رأيت العديد من قناني المياه البلاستيكية

مثل ايڤيان وڤيتيل وڤولڤيك وغيرها، ملقاة عند سياج المدرسة. وقد لاحظت في زياراتي المتكررة، ان تلك القناني كانت دائما تبدو نظيفة وحديثة الاستعمال. ولم أستطع أن أجد أي رابط بينها وبين مدرسة ابتدائية للبنات، إلى أن أوضح لي شامل قائلا: ان الرصيف الملاصق للمدرسة يتحول في الليل إلى مبغى لسواق الشاحنات الكبيرة، وان تلك القناني تستخدم حتما للتطهير بعد العملية الجنسية.

«ومن يستخدمها» سألتُ شامل بكل بلادة.

«لم أفكر في ذلك الامر». قال شامل وهو يفتل شاربه.

«في الأمان» رد عليّ صاحب المقهى حين اخبرته انني ذاهب لأرى ان كان صديقي قد عاد إلى منزله. في هذا الوقت رأيت نادية (التونسية) تنزل من شاحنة كبيرة. كانت على الرصيف الآخر الملاصق لسياج المدرسة، حين لوحت لي بشالها وقد بدت في غاية السعادة.

«سافا، توحشتك» قالت وعانقتني.

«وأنا أيضا» قلت لها.

«صديقك شامل قال لي انك سافرت إلى ألمانيا لتبقى هناك بعض الوقت».

«صديقي على حق. للاسف لم استطع المكوث لاني لا املك فلوسا كافية».

«الفلوس الفلوس، اللعنة على الفلوس، أنني أترك أطفالي لوحدهم وأقف في هذا البرد، كل ذلك من أجل الفلوس».

ثم أخرجت نادية من حقيبتها علبة مياه صغيرة وقبل أن تشرب سألتني ان كنتُ عطشانا. «فيها القليل من المياه أشربيها أنت». قلت لها.

ضربتْ على صدرها وقالت «صحيح لا نملك الفلوس، ولكن لا يوجد عندنا أكثر من الماء. أنظر» وأشارت إلى عدة قنان بلاستيكية

جاثمة في احدى زوايا الشارع الفرعي الذي كنا نقف عنده، ثم ذهبت وجلبت لي قنينة «خذها معك». قالت.

كانت نادية بمثابة صديقة حقيقية. لقد خرجنا وشربنا معا مرات عديدة. كنا نذهب إلى محل بقالية يمتلكها تونسي ونشتري منه بعض علب بيرة الكرونبورغ، خصوصا ١٦٦٤ التي كانت تفضلها. كان صاحب البقالية غيورا وذا ملامح عنيفة، قال لي ذات مرة «هل أنت الماكرو الجديد لنادية؟». لم أفهم كلامه، كما ان نادية لم تشرح لي معنى «الماكرو» الا بعد يومين أو ثلاثة قائلة «لقد سألك ان كنت القواد الجديد لي». وضحكنا.

كانت نادية قد روت لي ذات مرة قصة حياتها فقلت لها «كل قصص المومسات العربيات في باريس متشابهة أيتها العزيزة نادية». احتجت وقالت بحماس «على الأقل أنا عندي بعض المبادئ». وقد عددت لي تلك المبادئ، ولكن ذاكرتي لم تحتفظ للأسف إلا ببعضها:

«أنا مؤمنة ومتمسكة بتعاليم الاسلام، وقد توقفتُ عن ممارسة الجنس مع الزبائن النصارى خلال شهر رمضان، حيث أبرمنا اتفاقا مع البنات الفرنسيات، يتركن سواق الشاحنات الأتراك والألبان لبنات شمال أفريقيا طوال الشهر»!

«لا أنكح أي عربي اطلاقا» كان ايضا واحدا من مبادئها.

«وهل هذا لأسباب دينية أيضا»؟ أذكر أنني كنت قد سألتها بخبث.

«على الاطلاق، بل لأسباب مالية» وقد شرحت المسألة قائلة: ان الزبون العربي يدفع في الايام الاولى كامل التعريفة، ثم يعود ثانية ليدفع نصف التعريفة، بعدها يقول انه أغرم بي ويريد ان يصبح عشيقي، وبعد ان يصبح عشيقي يأتي ليسكن عندي، وبعد أن يسكن عندي يبدأ بمطالبتي بالنقود كل يوم، واذا مرضت ولم أخرج للعمل يضربني! اعرف العديد من البنات اللواتي وقع لهن مثل هذا السيناريو، فلماذا أورط

نفسي معهم؟. يومها قربت وجهها من وجهي قائلة: «أنظر، لا توجد آثار سكينة أو شفرة. في حياتي كلها لم أتلق الضرب إلا من زوجي السابق»!

*

في اللحظة التي ذهبت لأنظر فيها إلى نافذة شامل، التي كانت لا تزال مظلمة، فجأة اشتعلت الأنوار في النافذة المجاورة. «دينو» هتفت في داخلي، ثم نظرت إلى السماء السوداء وهرعت ضاغطا على زر الجرس الخاص بدينو.

«من»؟ جاء صوته عبر المايكروفون.

«دينو، هذا أنا، العراقي الضائع». هكذا كان يسميني احيانا.

«هاهاها. ززززززز» اختلطت ضحكته بصوت انفتاح الرتاج الكهربائي للباب الخارجي للمبنى.

كان دينو، وهو من أصول ايطالية، يعمل حارسا في احد الاندية الليلية في في حي «نويي سور سين»، وكان يعمل أيضا كمهرج في بعض المسارح الباريسية الصغيرة، اسكيتشات ضاحكة يؤلفها بنفسه ويقوم بدور الكلاون (المهرج). وقد روى لي في السنة الماضية انه، بينما كان يقوم بتقديم عرضه كمهرج في مهرجان فني في مدينة كاراكوفيا، فوجئ بعد انتهاء العرض بالكاتب الشهير امبرتو ايكو يزوره في غرفته ويقدم له التهنئة والاعجاب بعرضه. وقد أخبره امبرتو ايكو، أنه شديد الولع بشخصية «المهرج»، وانه يحضر لكتاب عن هذا الموضوع يستند فيه على أعمال المخرج فيديريكو فيلليني، الذي يشاركه هو الآخر هذا الإعجاب بشخصية المهرج. وقال لي دينو إن امبرتو ايكو أبدى رغبته أن يلتقيا في المستقبل.

«هل تحدث معك بالايطالية»؟ سألته في حينها.

«طبعا. كان الأمر حميميا جدا».

رحب بي دينو بحرارة وقال لي فورا «يمكنك ان تغتسل ان شئت» فأخبرته بانني اغتسلت في الصباح في أوسترليتز، فنظر اليّ غاضبا «يمكنك أن تأتي عندي أو عند شامل». ثم راح يصب لي كأسا من النبيذ «أنت تعرف أنني أحبك كثيرا» وبعد صمت قال «لقد وصلت توا من روما. هل تعرف مع من كنت»؟

«مع امبرتو ايكو». أجبته بسرعة.

«بالضبط. من أخبرك»؟

«لقد حدست ذلك. هل نسيت أنك رويت لي قصة لقائكما».

«هل تعرف، إنك تمتلك مخيلة قوية وذاكرة جبارة، لا يجب ان تكون في الشارع. خراء، انت لا تستحق كل هذه الآلام». كان دينو يتحدث بحماس. ثم سألني «أكيد أنت جائع».

هززت رأسي بنعم.

«سأعمل لك بعض السباغيتي».

كنت قد تعرفت على دينو اثناء زياراتي لشامل، الذي كان كلما افتقد إلى البصل أو الثوم واحيانا إلى الخبز يذهب طارقا باب دينو طالبا منه هذه الأشياء. وكنا أيضا حين نقيم الحفلات نطرق بابه وندعوه ليشاركنا. مع مرور الايام اصبحنا أصدقاء.

أذكر أنني في اليوم الأول الذي ذهبت فيه إلى مسكن دينو، كان الوقت عصرا وكان في المطبخ، فسألته «ما هو عملك يا دينو»؟ رأيته يتناول واحدة من الطماطم الصغيرة، أفرغ جوفها ووضعها فوق أرنبة أنفه «هذا هو عملي» قال مبتسما.

أخذت ألتهم السباغيتي بسرعة. «ما زلت تحتفظ بهذه العادة السيئة» قال دينو «لا تأكل بسرعة». وبعد أن تحدثنا عن المسرح والسينما، وعن المشاريع والأحلام، نظر اليّ متسائلا.

«منذ فترة طويلة وأنت تعيش بلا مأوى، أعتقد ان هذا الوضع يسبب لك الكثير من الآلام، هل يمكن أن تخبرني كيف تتعامل مع هذه الآلام»؟

«أؤجلها» أجبت بسرعة، «نعم أحاول أن أؤجل آلامي إلى وقت آخر».

«كيف»؟

«عزيزي دينو، لقد اكتشفت منذ البداية، أن الانسان عندما يجد نفسه ملقى في الشارع، لا يكون أمامه إلا أن يلعب دور شهرزاد. عليه أن يؤجل الألم. على المشرد أن يكون ذكيا مثل شهرزاد ألف ليلة وليلة، أن يروي أحلامه وأوهامه ليغوي أسفلت الشوارع، ومصاطب الحدائق العامة، ومحطات القطار، ورياح الشتاءات القاسية وكذلك معدته، حينها سيرى المصاطب وقد اصبحت فراشا من ريش النعام، والريح الباردة ستمر من حول جسده بدفء وحنان». ثم نظرت اليه وسألته «وأنت، أيها العزيز دينو، كيف تواجه آلامك»؟

«ان الألم، هو ما يدفع المرء لأن يكون مهرجا». قال بصوت خفيض.

ثم راح دينو يعد لي في الصالة فراشا نظيفا. رأيته كيف يرتب الشراشف، وكيف يلبس المخدة غطاء جديدا مطرزا بالزهور. في الصباح وأنا خارج من الحمام، رأيته ينتظرني وهو يحمل محفظته الصغيرة بيده، مثل أم تداري ولدها الخارج إلى المدرسة. كان قد صنع لي ساندويتشه، ثم مد لي خمسين فرنكا وبضع بطاقات ميترو وبطاقة طعام قيمتها ٣٣ فرنكا. وحين رآني أنظر إلى البطاقات البريدية المعلقة على الحائط في الصالة، وكان من بينها عدة بطاقات كنت أرسلها له من أي مدينة أو بلد أزوره، ضحك دينو وقال لي: «هل تعرف، ان فرانسوا ميتران، يرسل بطاقات بريدية لكل اصدقائه القدامى من أي بلد يسافر اليه، وهو يحافظ

على عادته هذه منذ أن كان شابا». ثم قال لي مازحا وأنا أخرج من شقته «هل رأيت، هناك أشياء مشتركة بين شخص يعيش في الشارع، وبين رئيس الجمهورية الفرنسية».

موريس

«منذ اللحظة التي يبدأ فيها المرء بالتعود على ارتياد الحانات في الصباح، يبدأ بتدمير نفسه». قال لي موريس. «اعرف اصدقاء عديدين تحولوا إلى كلوشارات وبعضهم انتحر بالفعل، وكانوا جميعا ممن يرتادون الحانات في الصباح». كان صباحا ساخنا وكنا نسير في شارع «رو دو سين». فجأة توقف موريس وأشار إلى شارع ضيق «هذا الشارع اسمه «فيسكونتي» كثيرون يعتقدون ان المقصود هو السينمائي الايطالي، لكن الحقيقة ان الشارع سمي باسم المهندس المعماري فيسكونتي، الذي كان قد صمم قبر نابليون في «ليزانڤاليد». حين وصلنا إلى تقاطع شارعي «بوسي» و«السين» المزدحم بالناس، وبأكشاك باعة الفواكه والخضار، علق موريس «انظر، كم هو ساحر هذا المنظر الذي نحن جزء منه. في المقابل، تصور لو انك كنت الآن داخل حانة، بالتأكيد كنت ستكون مسندا خصرك على البار، تحت انارة اصطناعية ولا يوجد أمامك سوى الغارسون وذلك المنظر الرتيب للقناني المصفوفة وراءه بدقة. أليس صحيحا ما اقول»؟

«معك حق موريس». أجبته.

«ما يقوم به المرء في الصباح، هو الذي يقرر مستقبله». وتابع «أنا مثلا، بما ان عملي يبدأ في الظهيرة، أستغل ساعات الصباح في ممارسة الرياضة يوميا».

كنت أستمع إلى موريس وأهز رأسي موافقا. وقد انتبهت للمرة الأولى إلى ان أسنانه كانت مدمرة بفعل التدخين. في تلك اللحظة رأيت مارشيلو ماستروياني يقف أمام احد أكشاك الفواكه وهو يتحدث مع البائعة الشابة التي ناولته بعض الفاكهة نفخ فيها والتهمها، كنت قد رأيت نفس المشهد مرات عديدة.

«انظر، انه ماستروياني» قلت لموريس «تعال نسلم عليه، انني أعرفه شخصيا».

«هل تعرفه حقا»؟ نظر اليّ متعجبا.

«نعم».

اقتربنا من ماستروياني وتعمدت أن أسير من أمامه. «بونجور مسيو» قلت له.

«بونجور مسيو» رد مبتسما وسألني «سافا بيان؟»، فهززت رأسي بنعم وقلت ببعض الخجل «تريه بيان، ميرسي مسيو».

«بون جورنيه» (اتمنى لك يوما سعيدا) قال ماستروياني وابتعد.

وبعد لحظات، وكنا ما زلنا نتمشى في شارع السين، رأينا المخرج ماركو فيريري خارجا من سوبرماركت «شامبيون» فحييته بصوت عال «بونجور مسيو فيريري». توقف فيريري للحظة وهو يرمقني بنظرات صامتة ثم فجأة ابتسم وكأنه تذكرني «بونجور... بونجور، سافا» وتابع طريقه.

«أنت تعرفهم جميعا» قال موريس.

«أراهم ويرونني كل يوم تقريبا».

بدأ موريس يسعل لبعض الوقت، وبعد لحظات قال «هذا أمر طبيعي، أنت في الشارع بشكل متواصل، واذا كنت تعيش في شوارع باريس لسنوات عديدة، فمن الممكن أن تلتقي وجها لوجه حتى مع الله نفسه».

كنت قد تعرفت على موريس منذ سنتين في مقهى اوشيه دو لا أبيي. كنا نشرب عند البار، وبدأنا نتحدث سوية. قال انه سمعني ذات مرة أتحدث عن السينما، وأخبرني انه يعمل كتقني في احدى القنوات التلفزيونية الفرنسية. قلت له إنني أطمح إلى العمل في مجال الاخراج السينمائي، «لكنني اكتفي بمشاهدة الأفلام في الوقت الحالي».

«هل شاهدت Midnight Cowboy»؟ سألني

«طبعا».

«وهل شاهدت Elephant Man»؟

«نعم»

«أنها نوعية الأفلام التي أحبها» قال موريس.

«هل شاهدت فيلم Ironweed»؟ سألته.

«هل هو الفيلم الذي يبدأ بمشهد نرى فيه جاك نيكلسون نائما في الشارع في يوم بارد، ثم يلتقي بصديقته القديمة ميريل ستريب، التي تعيش متشردة أيضا».

«نعم»

«انه فيلم حزين جدا.» قال موريس وجرع بعض البيرة من كأسه «نعم انه فيلم حزين جدا».

«هذه هي نوعية الافلام التي أحبها». قلت له.

في ذلك اليوم قال موريس انه خارج لشراء السجائر، وأصر أن يشتري لي السجائر أيضا، وسألني عن نوعية السجائر التي أدخنها.

«كاميل بلا فلتر» قلت له.

فوجئت حين عاد موريس انه كان يحمل علبتي ونستون، مد لي إحداهما، أخذتها ولم أقل شيئا.

بعد أيام، التقينا صدفة فوق جسر «پون نوف». كان الوقت ظهرا،

فأخبرني موريس وهو يشير إلى حديقة صغيرة على ضفاف السين «هناك، قضيت مراهقتي. كنت أعزف على غيتاري كل يوم تحت تلك الشجرة الكبيرة». وقبل أن نترك الجسر أضاف وهو يربت على كتفي «ذات يوم سأقيم حفلة بيكنيك في نفس المكان، وادعو جميع أصدقائي لاسمعهم كيف كنت أعزف موسيقى الستينات».

ظل موريس، في جميع لقاءاتنا طيلة سنتين، يصر أن يشتري لي السجائر كلما ذهب للبحث عن السجائر. وكان في كل مرة يسألني نفس السؤال «أي نوع من السجائر تدخن»؟ «كاميل بلا فلتر» كنت أجيبه. فكان يذهب إلى محل السجائر ويعود بعد ربع ساعة ويمد لي علبة «ونستون». وقد تعمدت في المرة الأخيرة، وكان هذا منذ اسبوع تقريبا، أن أفاجئه.

«أنا ذاهب لشراء السجائر، أي نوع من السجائر تدخن»؟ سألني وهو يضع كأسه الفارغة على طاولة البار.

«ونستون» أجبته بسرعة.

حدق فيّ مندهشا قائلا «هل غيّرت نوعية سجائرك»؟

في الصيف الماضي، كنت عائدا إلى باريس، بعد أن أمضيت شهرا في كامبينغ «هاميل» في مدينة تروفيل، والتقيت بموريس الذي كان متكئا بخصره على بار «لو كونتي» وكان حزينا للغاية «هل تعرف، عندما تغيب أنت عن باريس، تحدث أشياء حزينة». قال لي. ثم أخبرني عن ألان بائع اللوحات الاصهب: «لقد انتحر البارحة».

«كيف»؟.

«خنق نفسه بالغاز». قال الباريسي الطيب القلب، وهو لا يدري انني في الصيف المقبل، سأكون مستلقيا فوق العشب في كامبينغ «لو ڤيڤر» في قرية «موجان» المطلة على «كوت دازور» (الشاطئ اللازوردي) لمدينة «كان»، وستقول لي صاحبة الكامبينغ مازحة «انك محظوظ مسيو، ففي

حديقة الفيلا المجاورة للكامبينغ، القريبة من خيمتك، يلعب الآن السيد كلينت ايستوود الغولف مع صديقه الفرنسي». في تلك الظهيرة سأشعر انني بحاجة إلى شيء ليحرق صدري، فأنحدر مع الشوارع المنحدرة نحو السوق، بحثا عن قنينة من الجاك دانيلز، ويا لها من صدفة، سألتقي بسيلينا وهي رسامة أرمنية وزوجة سابقة لموريس، ستخبرني انها جاءت لتبيع رسوماتها على أرصفة «الكوت دازور»، وستضيف «أوه، نسيت أن أخبرك، لقد مات موريس ونثرنا رماده في السين، قرب جسر پون نوف، كما أوصى بذلك»، بعدها سأذهب وأنبطح مع قنينة الجاك دانيلز على رمال الشاطئ حتى الغروب، وأردد مع نفسي «نعم يا موريس، أشياء حزينة تحدث عندما أكون غائبا عن باريس».

ساعي البريد المصري

كنت متعبا جدا، حين توقفت في شارع «رو سوفلو» فوجدت نفسي أحدق في صورة فتاة جميلة ومثيرة تقوم بالاعلان للألبسة الداخلية، انتبهت إلى انني كنت أقف بالقرب من فوهة تؤدي إلى بارك للسيارات. بدون أي تفكير، نزلت الدرجات الاسمنتية إلى الطابق الثاني تحت الأرض. فرشت أوراقي تحت السلم الاسمنتي، وتمددت فوقها. في تلك اللحظة خطر ببالي أن أكتب على الحائط الاسمنتي اشارة (لقد نمت هنا تحت هذه السلالم بتاريخ. . .» فتوقفت فورا. كان التاريخ يشير إلى يوم ميلادي، فضحكت.

لا أعتقد أنني كنت قد نمت لأكثر من ساعة، عندما فتحت عيني على صوت لهاث كلب ضخم، كان يحاول أن يندفع نحوي وهو هائج، كان لسانه الطويل يلامس أنفي أحيانا، كان يريد أن ينقض عليّ لولا الحارس، الذي بدا هادئا وهو يسيطر على كلبه الشرس. أشار لي الحارس برأسه نحو فوهة «المَخرج».

«أنا آسف، كنت متعبا ولم أعرف إلى أين أذهب. بالفعل أنا أعتذر». قلت للحارس وأنا أقوم بتجميع أوراقي وإعادتها إلى محفظتي «هي دروسي في تعلم اللغة الالمانية». وأضفت مبتسما «هل تصدق ان اليوم يصادف عيد ميلادي؟»

«داكور. هيا بوليرو، هيا اخرج من هنا فورا» قال الحارس وهو يمضغ علكته.

«أعرف انك لا تصدق، ولكن اليوم يصادف عيد ميلادي بالفعل، أنا أقول الحقيقة».

«قلت لك داكور بوليرو» وعاد يشير إلى فوهة المخرج مرة أخرى.

«لا اكذب عندما اقول ان اليوم يصادف عيد ميلادي. لماذا اكذب؟».

«حسنا يا بوليرو، عيد ميلاد سعيد. أوكي، هيا اخرج من فضلك». وبصق العلكة التي كانت في فمه في الهواء.

«لا أفهم لماذا تناديني ببوليرو، مسيو»؟ قلت له وأنا أتجه نحو المخرج.

«ألا تعرف لماذا؟»

هززت رأسي نافيا.

«كنت نائما، مسيو، تداعب قضيبك وتهذي بوليرو بوليرو بوليرو». قالها ضاحكا.

كان الكلب ورائي تماما. كنت وأنا أرتقي درجات السلم أحس بالحرارة الخارجة من لهاثه وهي تلامس خصيتي إلى أن طلعنا إلى الشارع.

«Auf Wiedersehen Bolero»، صرخ الحارس بصوت عال، وهو يشير بيده إلى فتاة لوحة الاعلان بثيابها الداخلية المثيرة من ماركة بوليرو.

كانت الساعة الحادية عشرة ليلا، عندما ذهبت إلى مقهى «أوشيه دو لا أبيي». انتظرت أن يفرغ مجيد من محادثة بعض الزبائن. قلت له «غدا سأبحث عن أي عمل. لقد نمت اليوم في بارك للسيارات على الرغم من انه عيد ميلادي، أليس هذا مؤلما؟». نظر اليّ مجيد وقال بالانكليزية ضاحكا «Happy Birthday, Monsieur».

«لا أريد هابي بيرث داي، مجيد، أريد أن أشرب وأسدد ثمن الفاتورة لاحقا».

«داكور مسيو» قال مجيد وهو يقرصني من خدي بمودة.

كنت جالسا في صالة المقهى، وقد جلس، غير بعيد مني، رجل وامرأة. كانت المرأة، في منتصف الخمسينات، ممتلئة وشقراء، وكانت تشرب نوعا من الكوكتيل. بينما كان الرجل الأسمر، أكبر سنا، وكان يرتدي بدلة بيضاء ويعتمر قبعة من القش (قبعة الباناما). بعد قليل ذهبت إلى البار وجلبت كأسا أخرى من النبيذ، رأيت الرجل يروح ويجيء في الصالة وهو يحمل كأسا من الويسكي. «أزايك يا معلم» قال لي بلهجة مصرية، ثم اقترب من طاولتي «ايه رأيك أدعوك إلى كأس من الويسكي»؟ قالها بطريقة مسرحية. قبل أن أتفوه بأي كلمة أضاف الرجل «النبيذ ليس جيدا بعد منتصف الليل». ثم أخذ يضحك بصوت عال، فوجدت نفسي أشاركه الضحك، بكل سعادة. قلت للرجل انه كان قد لفت انتباهي منذ أن دخلت المقهى لانه ذكرني بالممثل ألبرت فيني في فيلم Under the Volcano للمخرج جون هيوستن. ظل شارد الذهن لبرهة، ثم التفت إلى المرأة التي كانت معه وسألها ان كانت تعرف جون هيوستن وقبل أن تجيبه السيدة التفت اليّ قائلا: «هذه لودميلا زوجتي. انها اميركية».

«هل نسيت يا فؤاد؟ منذ فترة قصيرة جدا كنا شاهدنا فيلما حزينا اسمه «The Dead». كان الفيلم من اخراج جون هيوستن، وعلى فكرة فان المستر هيوستن من ميزوري، مثلي».

«نعم نعم يا لودي، تذكرت يا هابيباتي». قال الرجل.

كان فؤاد، كما نادته زوجته، يشبه تماما الممثل ألبرت فيني في فيلم «تحت البركان». كان يشرب كأسا تلو الأخرى من الويسكي. كان بين لحظة واخرى يطلب مني أن انهي كأسي. لم يكن هناك أي حاجة لكي

أخبره عن عيد ميلادي، اذ أن فؤاد بدا لي انه يحتفي بشيء ما. كان يتحدث وكأنه يقف فوق خشبة مسرح وليس في مقهى. ومن حسن حظه أن المقهى كان فارغا بعد منتصف الليل، عدا عن بضعة زبائن في البار.

كنا نتقاسم الكثير من الأفكار رغم فارق السن بيننا. قال لي انه يكره التحدث في السياسة لأن «العالم العربي غارق في الفقر والجهل» وأضاف وهو يجرع الويسكي «وان الانحطاط العربي بدأ منذ أن استولى جمال عبد الناصر على السلطة في مصر عام ١٩٥٢ وقام بالقضاء على الديمقراطية. ثم بدأ آل سعود منذ منتصف السبعينات بانشاء الجماعات الاسلامية المتطرفة لتدمير كل انجازات الليبرالية والحداثة في العالم العربي». كنت أهز رأسي موافقا وأنا أشرب كؤوس الويسكي وأقول لنفسي «هذه أجمل حفلة عيد ميلاد».

«كيف تركت العراق»؟ سأل فؤاد.

فرويت له قصة حياتي بشكل سريع، كما أخبرته بانني كنت أكتب سيناريو فيلم بعنوان «الحنين إلى الزمن الانكليزي»، وانني أبحث عن ممثل أميركي اسمه روبرت دي نيرو لكي يلعب دور فران أصم وأبكم. وأنهيت كلامي قائلا «أنا متأكد من اني سأعمل الفيلم في السنة المقبلة».

جرع فؤاد كأسه «لقد دمروا حياتك، أولاد الكلب». قال وهو يهز رأسه بأسى.

فسألته «وأنت لم تخبرني كيف تركت مصر»؟

«انها حكاية أخرى»

فألححت عليه «أرجوك أرو لي قصتك».

«ليس قبل كأسين أخريين من الويسكي»

عندما عاد فؤاد بالويسكي، أشار إلى سيدة كانت واقفة في البار «هل ترى تلك السيدة التي تضع نظارات سوداء سميكة، لا اعتقد انها امرأة عادية. انني أشم النساء غير العاديات».

نظرت اليها، وعلى الفور عرفتها «انها آنا كارينا. تأتي للمقهى باستمرار»

«من هي آنا كارينا»؟

«كانت عارضة ازياء دانماركية وممثلة، تزوجت المخرج السينمائي جان لوك غودار ومثلت في العديد من أفلامه، وكانت اشهر ممثلة في افلام جماعة النوفيل فاغ».

«لقد قلت لك انني أشم النساء غير العاديات».

«هيا يا فؤاد، أرو لي حكايتك».

«انها حكاية طويلة، ولكنني سأختصرها. كنت أشتغل موظفا في احدى دوائر البريد في القاهرة، ذات يوم لفتت نظري امرأة شقراء ممتلئة في الطابور الطويل الواقف أمام نافذتي. شعرت بصعقة كهربائية تخترق جسدي. شقراء وممتلئة. هذا ما كنت أبحث عنه طيلة حياتي. ولما جاء دورها لشراء الطوابع، أخذت بمغازلتها بكلمات من نوع (كنت أتمنى أن اكون الطابع الذي تلصقينه في رسالتك). فأخذت تضحك، وهكذا تعرفت على لودميلا. أخذنا نتراسل لمدة خمس سنوات، وفي العام ١٩٧٥ تزوجنا، ونحن نقيم في ميزوري». ثم رفع فؤاد كأسه وضربه بكأسي قائلا «في العالم العربي الكثير من الناس ينضمون إلى التطرف الديني لانهم يحلمون بالحصول على منزل في الجنة. أنا واثق انه ستكون في الجنة أزمة سكن». وأضاف فؤاد وهو ينظر اليّ «ولكن لماذا أريد أن أبدو شخصا سيئا؟ ألست أمتلك منزلا في ميزوري؟ ألست انسانا سعيدا؟» وراح يغرق في قهقهه طويلة.

كنا جالسين نشرب الويسكي، فؤاد ولودميلا وأنا، عندما رأيت روبرت دي نيرو يدخل المقهى. نظر دي نيرو إلى البار ثم توجه للحديث مع مجيد. ابتسم مجيد وأشار نحوي. فجاء دي نيرو إلى طاولتنا: «أخيرا ها نحن نلتقي»! قال دي نيرو وأكمل: «ما هي حكايتك

بالضبط. يا رجل، ها؟ تتصل بالناس في الفجر، تطلب من أحدهم أن يرسم لي بورتريه أبدو فيه عجوزا في السبعين من عمره. ما بك؟ هل أنت مجنون؟ من قال لك انني أريد أن أصبح فرانا أصم وأبكم؟ من قال لك انني أرغب في الوقوع في حب ملكة انكلترا.. ها؟ ثم من هو ذلك الشخص الذي.. أسمه... ذلك اليوناني التافه.. قر... قر.. قرياقوس؟ لا تهمني على الاطلاق علاقتك بجون واين وجون فورد». ثم فجأة غيّر دي نيرو نبرة صوته وأصبح هادئا. نظر إلى مجيد وصرخ «مجيد، هات لنا قنينة نبيذ فاخرة!».

فتحت عيني فوجدت نفسي ممددا على مصطبة، وثمة رجل فرنسي بوجه طفولي، يرتدي «روب دو شامبر» من الحرير الأزرق اللماع، يهزني قائلا «مسيو.. مسيو، انني غير قادر على النوم. لقد أفسدت عليّ ليلتي!».

نظرت إلى الرجل، ثم نظرت حولي. كنت في حديقة «بارك مونسوري» ولم تكن في الجهة الأخرى أي مصطبة فسألته بصوت مرتبك: «مسيو، أين كنت نائما؟ هذه هي المصطبة الوحيدة في المنطقة!»

أشار الرجل إلى البناية القريبة «هناك. أين يوجد الضوء، تلك هي شقتي في الطابق السادس»!.

ظللت هادئا ولا أعرف ماذا أقول.

فواصل الرجل «لقد أيقظني شخيرك العالي. كان شخيرك عاليا، عاليا جدا، مسيو».

نهضت من المصطبة ووقفت أمامه «أوه، مسيو، انني آسف جدا، حقا أنني آسف. آه لو كانت عندي الآن قنينة من النبيذ. كنت سأجلس وأشرب دون أن أزعجك».

نظر الرجل الي مستغربا «ماذا تريد..؟».

«قنينة من النبيذ» أجبته.

«قنينة من النبيذ! وأي نوع من الجبنة تريد معه؟» قال ساخرا وأضاف «لا تقل انك تريد مخدة أيضا. . !».

«لا ، مسيو، أرجوك، لا تفهمني خطأ». ثم قلت وأنا أضغط بيدي على رأسي «أوه، لقد قتلني ساعي البريد المصري بالويسكي. لا يمكنك أن تتخيل هذا الساعي بريد المصري كيف كان يلح على اعطائي الويسكي طيلة الليل. كان يصرخ «أشرب أشرب».

«ساعي بريد مصري يشرب الويسكي» قال الرجل «أين كان ذلك؟ أين كان ساعي البريد المصري هذا؟».

«انه من ميزوري في أميركا».

«من فضلك، مسيو، أريد أن أذهب وانام. هل يمكن أن تترك هذا المكان. أرجوك، لا تنم في هذا المكان مرة أخرى».

لما ابتعد الرجل سمعته يردد «ساعي بريد مصري يشرب الويسكي في باريس».

عندما أقام روبرت دي نيرو في منزلي

كان موعدي مع فائزة في الحادية عشرة صباحا في مقهى بونابرت. كانت فائزة قد أخبرتني، منذ مدة، أن جدة صديقتها ميلاني عادة ما تقضي الصيف خارج باريس، وانها كانت قد اقترحت على ميلاني أن تقنع جدتها لكي تعطيني مسكنها فترة غيابها. «أنها تقيم في شقة فاخرة تقع في الطابق الأول، مطلة على حديقة بديعة. وأين؟ في بولفار مونبارناس. قرب ميترو دوروك». كانت كلمات فائزة ترن في أذني.

كنت على وشك أن أنهي بيرتي الثالثة حين جاءت فائزة ومعها ميلاني. طلبت فائزة «حليبا ساخنا» وميلاني «الشوكولاتة الساخنة» وطلبت لي فائزة كأسا أخرى قائلة بمرح «من حقك أن تحتفل اليوم». ابتسمتُ وقد شعرت ببعض الخجل من ميلاني، التي كنت ألتقيها للمرة الأولى. نظرت اليّ ميلاني وقالت بود «أنت محظوظ، لقد وافقت جدتي على أعطائك مسكنها» وأضافت «لكنها تريد أن تراك قبل سفرها». فعلقت فائزة، التي بدت سعيدة للغاية «أن ثلاثة أشهر مدة كافية لكي تنجز السيناريو الذي تحلم بكتابته» وأضافت ضاحكة وهي تقرب الحليب من فمها الجميل «لقد قتلتنا بـ(الحنين إلى الزمن الانكليزي)»، فضحكنا كلنا.

في اليوم التالي، قالت ميلاني ونحن في الطريق إلى منزل جدتها «يجب أن تعرف أنني أخبرت جدتي بأنني أعرفك منذ أربع سنوات. أنها تقيم اعتبارا للعلاقات القديمة».

هززت رأسي متفهما.

كانت جدة ميلاني زوجة بحار متوفى، وكانت كثيرة الشبه بالممثلة جيسيكا تاندي، خصوصا في فيلم Driving Miss Daisy. قالت لي الجدة، التي سأسميها جيسيكا تاندي «انني أثق بميلاني وأحترم صداقاتها والسبب الذي جعلني أطلب رؤيتك قبل سفري، هو أنني لا أريد أن أكون في جبال الألب وثمة شبح يقيم في بيتي». ثم جذبتني من يدي وسرنا بضع خطوات لنقف امام خارطة كبيرة معلقة في مدخل المنزل. حدّقتْ جيسيكا تاندي في الخريطة للحظات ثم أخذت عصا طويلة كانت مثبتة تحت اطار الخارطة السميك وقالت «هذه فرنسا، نحن هنا، في باريس» والتفتت اليّ «أرني من أين جئت»؟ قالت وهي تضع العصا في يدي. نظرتُ إلى الخارطة فأشرت إلى العراق، ثم إلى بغداد «أهلي يقيمون هنا».

ضحكت جيسيكا تاندي وهي تأخذ العصا من يدي، وعادت إلى الخريطة ثانية «تأتي من هنا (بغداد) لتقيم في بيتي هنا (باريس) في الوقت الذي أكون فيه هنا (جبال الألب). يا له من عالم صغير، هذا العالم» وضحكت، وهي تقول بصوت خَفيض كأنها تحدث نفسها «عراقي في باريس». واستمرت بالضحك ولما شَعَرت انني كنت أنظر اليها بشيء من الحذر قالت «لا تخف، سوف لن أقع من الضحك. اجلس اجلس، سوف اعمل لك شايا» ثم سمعتها تقول وهي في طريقها إلى المطبخ «العرب الحقيقيون يفضلون الشاي على القهوة، هكذا كان يقول زوجي العزيز».

نظرتُ إلى ميلاني وقلت لها «جدتك على حق، أنا لا أطيق شرب القهوة». فضربتني على مؤخرتي وقالت مبتسمة «بعد أقل من ساعة سيكون هذا البيت بيتك، فلا داعي للنفاق». نظرت إلى يديها وسألتها «ماذا تعملين، ميلاني»؟.

«نحاتة» أجابت.

وهي تسلمني المفاتيح طلبت مني جيسيكا تاندي أن لا اقترب من «تلك الغرفة» وأشارت إلى غرفة مغلقة في آخر الممر، مطلة على الحديقة من جهة بولڤار مونبارناس، وأضافت «انها تخصني شخصيا. أنا واثقة انك ستحترم رغبتي». وعندما هممنا بالخروج، ألقت جيسيكا تاندي نظرة على الخريطة وقالت «على أية حال، مفتاح الغرفة معلق في الجهة اليمنى من الخريطة. لا أحد يعرف ماذا سيحدث»!.

عندما ذهبت وجلبت أغراضي الخاصة من صندوق الايداع في محطة أوسترليتز، كانت النحاتة الجميلة، صاحبة اليدين القويتين، قد ملأت الثلاجة بأنواع مختلفة من الأجبان والمربى والبيض والطماطم الصغيرة ويضع قنان صغيرة من مياه البيرييه، مع رسالة وضعت على مائدة المطبخ:

حاول أن تركز على انجاز عملك، وأنا واثقة أنك في المستقبل ستقيم في شقة أفضل من هذه. هنا رقم تلفوني في حال أحتجته. قبلات، ميلاني.

أي سعادة غمرتني وأنا أقوم بتفريغ حقيبتي الصغيرة ووضع كل شيء في مكانه الطبيعي. كنت كأنني في الجنة. كانت ثيابي مصففة في الخزانة المخصصة لي، وأدوات حلاقتي استقرت أخيرا فوق رف زجاجي قرب المرآة الكبيرة الصافية، التي سأقف عاريا أمامها كل صباح. وكانت طابعتي فوق طاولة من خشب الأبنوس تعود إلى القرن الثامن عشر. ولما كانت الطابعة بلوحة مفاتيح عربية، فأنني توجهت إلى محل دورييز وقمت بطباعة أسمي بحروف لاتينية كبيرة وألصقته على صندوق البريد، قرب أسم جيسيكا تاندي. وقد لفت أسمي انتباه روميرو، وهو رجل طيب، من أصول اسبانية، كان مكلفا بأعمال الصيانة في المجمع السكني. وقد سألني روميرو وقد بدا حائرا: «هل أنت متأكد أن هذا هو اسمك»؟

«نعم مسيو».

«الغريب أن جيسيكا تاندي أبلغتني أن شابا عربيا سوف يقيم في منزلها».

«أنه أنا».

«عربي وتحمل أسما كهذا».

«أنا عراقي ولست عربيا».

«ماذا يعني (أنا عراقي ولست عربيا)»؟ سأل الرجل وكأنه وقع في ورطة. فأضطررت أن أعيد عليه «الاسطوانة» المملة أن العراق يتكون من قوميات عرقية متعددة مثل العرب والتركمان والآشوريين والأرمن والأكراد والصابئة واليهود. وأنهيت خطابي قائلا «وكما ترى أن العراق، مثل طبق البايبلا الأسبانية».

انفجر الرجل ضاحكا «هاهاها العراق مثل طبق البايبلا» وظل يرددها لعدة مرات.

كان المسيو روميرو يتعمد تحيتي كلما رآني خارجا أو داخلا إلى المبنى. وفي احد الصباحات قال لي أنه لاحظ أن العرب الشمال أفريقيين عندما يتحدثون فيما بينهم «يبدون وكأنهم في عراك، مثل الأيطاليين تماما»، وسألني ان كان العراقيون وعرب شمال أفريقيا يتحدثون نفس اللغة. «نعم» قلت له وأضفت ساخرا «الفرق الوحيد هو أن العراقيين يتحدثون مثل الألمان». ضحك المسيو روميرو وقال «أنت تضحكني بسهولة». في هذه اللحظة مرت فتاة شقراء من جنبنا، حيتنا «بونجور» فرددنا تحيتها «بونجور مودموازيل» وتوجهت الفتاة إلى مدخل البناية. «أنها موزعة البريد الجديدة، ولكن لبضعة أسابيع فقط». علق المسيو روميرو، دون أن يدري أنني سوف أصبح مجنونا طوال تلك الأسابيع.

كانت نحيلة، بوجه أبيض جميل. وكان نهداها الكبيران ظاهرين من

خلال قميصها الزيتوني الشفاف. وقد بدت أنها قادمة من المسبح مباشرة، فعندما انحنت لتأخذ الرسائل من حقيبتها، كان مايوهها البرتقالي لاصقا بمؤخرتها مبللا بنطالها الأبيض الشفاف.

«بونجور مودموازيل». حييتها بصوت رقيق مع ابتسامة كبيرة.

«بونجور مسيو» ردت ببرود وانصرفت إلى عملها.

ظلت موزعة البريد باردة معي في الايام التالية أيضا. كنت أختلق الأعذار لفتح حوار معها. كنت أقول لها «يا له من أمر غريب، من المفترض أن تصلني بعض الرسائل المهمة من أميركا» وفي مرة أخرى «من أستراليا» وفي مرة أخرى «من كندا» كانت تهز كتفيها وتقول بجفاء Je ne sais pas. (لا أعرف). ذات مرة قلت لها، محاولا أن ألفت انتباهها إلى أنني أعمل في المجال السينمائي «مدموازيل، أنني أنتظر منذ أيام، على أحر من الجمر، رسالة من شركة غومون للانتاج السينمائي». فنظرت اليّ بدهشة وقالت «مسيو، من فضلك، لم لا تتصل بالشركة وتسألهم عن مصير رسالتك. أورفوار».

«أورفوار مودموازيل».

أحببت شقراء البريد، وأخذت أهتم بمظهري. كنت أحلق ذقني كل صباح، وأرش الكثير من الديودوران فوق جسدي، واشتريت قميصين جديدين، أحدهما أسود والآخر أحمر ليتناسبا مع بنطالي الجينز اللذين أملكهما. وذات مرة وبينما كنت أشذب شواربي صرخت بأعلى صوتي «ألدو ماتشيوني. اللعنة على ألدو ماتشيوني، وليذهب الناس إلى الجحيم». وأزلت شواربي.

كنت قبل بضعة أيام متمددا فوق مصطبة قرب حديقة اللوكسمبورغ. كان الطقس معتدلا، وكنت أفكر أين أذهب. وقد انتبهت إلى أن العديد من المارة كان ينظرون اليّ ثم يلتفون يمنة ويسرة بشكل غير طبيعي! فيما بعد فهمت انهم كانوا يفتشون عن الكاميرا السينمائية، لأن آلدو ماتشيوني

المضطجع على المصطبة، أمامهم، كان يصور فيلما جديدا.

«بونجور مودموازيل».

«بونجور مسيو» ردت الشقراء وأخذت تحدق في وجهي، ثم سألت بصوت مهذب «هل اتصلت بشركة غومون، مسيو»؟. لقد تبدل سلوكها. «من الأفضل أن أنتظر، مودموازيل» أجبتها.

منذ تلك اللحظة، بدأت مخيلتي تعمل بأقصى طاقاتها من أجل اختراع أي قصة أو حجة لكي تقرّبني من شقراء البريد. كنت مسحورا بها. في النهاية توصلت إلى فكرة أن أكتب رسالة مصدرها شركة غومون، موجهة لنفسي «حتى لو وضعت ورقة بيضاء في المظروف».

كنت واقفا في زاويتي في الدانتون، غير قادر على ابعاد شقراء البريد من ذهني، حين سمعت النادل مانويل يحدث أحد الزبائن عن معرفته الشخصية بالممثل الأميركي جون أشتون. وأشار مانويل نحوي قائلا: «وهذا السيد أيضا صديق جون أشتون»، هززت رأسي مبتسما ومؤكدا كلام مانويل. لم تكن هذه المرة الاولى التي أسمع فيها مانويل يحدث الزبائن عن قصة لقائنا مع جون أشتون.

في خريف العام ١٩٨٨ شاهدنا، أنا ونبيل فيلم Midnight Run بطولة روبرت دي نيرو وتشارلز غرودن وجون أشتون. وبعد خروجنا من مشاهدة الفيلم مباشرة دخلنا مقهى «دانتون» المجاور لصالة السينما. وما هي إلا لحظات حتى رأينا الممثل جون أشتون يدخل المقهى ويقف إلى جانبنا ويطلب كأسا من «ريد ليبيل». قال لي نبيل هامسا ومتعجبا «أليس هذا هو الممثل الذي لعب دور مارفن في الفيلم الذي شاهدناه توا»؟. هززت رأسي «نعم، أنت على حق، انه الممثل جون أشتون». بعد لحظات التفت اليه وحييته «هلو مستر أشتون». نظر الي ثم أجاب مبتسما «هلو». أخبرته بأننا شعراء من العالم العربي، فمد يده وصافحنا. ثم

أبدينا اعجابنا بفيلم Midnight Run وبدوره في شخصية مارفن دورفلير. ففرح الرجل كثيرا. في تلك اللحظة جاءت شلة من الأصدقاء الجزائريين والتفوا حول البار، فقدمتهم لجون أشتون، الذي صافحهم واحدا واحدا. وعندما همّ بدفع حسابه قلت له «أرجوك دع الحساب لنا، نحن فرحون جدا لأن الأكاديمية السويدية أعلنت فوز الكاتب المصري نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب».

«شكرا جزيلا» قال الممثل وهو يعيد محفظته إلى جيبه. «ما هو أسم الكاتب المصري»؟ قال وهو يخرج قلما من جيب قميصه. «نجيب محفوظ، مستر أشتون». أجبته. «هل عنده مؤلفات مترجمة إلى الانكليزية»؟ سألني. «طبعا» أجبته.

ظل جون أشتون، ولمدة أسبوع تقريبا يتردد كل مساء على مقهى دانتون، فيجدني واقفا في زاويتي. صرنا نتحدث عن باريس والسينما، كما أخبرته بانني كنت اكتب سيناريو وأتمنى أن يلعب روبرت دي نيرو دور البطولة. كان جون أشتون يشرب ريد ليبيل ويبتسم. فقلت له «في العراق نحن نفضل البلاك ليبيل وليس الريد ليبيل». فضحك بقوة. سألته عما كان يفعله في باريس. فأوضح لي بانه كان يصور في فيلم فرنسي جديد عنوانه I Want to Go Home مع الممثل جيرارد دوبارديو. «من المخرج؟» سألته «ألان رينيه» أجاب. «انه مخرج كبير» قلت.

ذات مساء جئت إلى الدانتون متأخرا قليلا عن الوقت المعتاد، فصرخ بي مانويل: «أين كنت؟ لماذا تأخرت؟ لماذا؟»

«ما بك يا مانويل! لماذا تصرخ هكذا؟» أجبته «أليس من حقي أن آتي في الوقت الذي يناسبني»!.

«أنا آسف، آسف جدا» قال مانويل وواصل «كنت متحمسا قليلا لأن المستر جون أشتون أنتظرك طويلا، أراد أن يودعك قبل أن يعود إلى هوليوود».

أول شيء قمت به في صباح اليوم التالي، هو انني ذهبت إلى محل دورييز، وضعت ورقة بيضاء في الظرف. وأخذت أحدث نفسي: هل أكتب سطرا أو سطرين بالفرنسية؟ أنا واثق ستكون مليئة بالاخطاء. فجأة قفز روبرت دي نيرو إلى ذهني. ربما بسبب الليلة الماضية حين تحدثنا عن فيلم Midnight Run. يمكن توجيه الرسالة إلى روبرت دي نيرو! لم لا؟ انه ممثل وسيم ومشهور، معظم الفتيات يحببنه، وأنا واثق ان شقراء البريد واحدة منهن. في النهاية كتبت رسالة على الشكل التالي:

Cher M. Robert De Niro

Tout va bien

D. F. Hugo

Gaumont Films

ثم وضعت مظروفا في الآلة وطبعت العنوان التالي

Robert De Niro

C/o Samuel Shimon

Boulevard Montparnasse

Paris 75006

أرسلت الرسالة من مكتب بريد الأوديون، ثم دخلت مقهى «لو روليه أوديون» طالبا ألذ ساندويتش في منتصف النهار jambon et cornichons مع كأس من البيرة، منتظرا المعجزة التي ستقع في اليوم التالي.

في صبيحة اليوم التالي، كانت موزعة البريد الشقراء جالسة على السلم القريب من صناديق الرسائل، وما أن رأتني حتى نهضت باتجاهي «بونجور مسيو» قالتها مع ابتسامة عريضة. «بونجور مودموازيل» رددت وأنا أتجه صوب صندوق رسائلي «كيف الحال»؟ سألتها.

«جيدة، شكرا مسيو، وأنت»؟

«جيد جيدا. أوه». هتفت وأنا أقلب الرسائل الموجهة للسيدة جيسيكا تاندي «ها هي الرسالة التي كنا نترقبها».

«عفوا مسيو، هل تسمح لي بسؤال من فضلك»؟

«طبعا» أجبتها وأنا أتأمل وجهها الأبيض الجميل، وقد بدت أصغر سنا.

«هناك رسالة إلى المسيو روبرت دي نيرو، هل هو نفسه الممثل الأميركي الشهير»؟.

نظرت اليها بنوع من الجدية «أنت موظفة في البريد، مودموازيل، أعتقد أنه يجب أن تراعي خصوصية الزبائن، أليس كذلك»؟

«بالتأكيد، مسيو، ولكنه مجرد فضول». قالت بخجل.

«نعم، أنه هو، ولكن أرجوك ليبق الأمر بيننا».

«طبعا، سأحترم ذلك» قالت ورسمت ابتسامة «أنا أدرس الهندسة المعمارية، وأعمل لمصلحة البريد لبضعة أسابيع فقط».

«رائع. أورفوار مودموازيل»

«أورفوار مسيو».

أخذت رسائل غومون تتدفق يوميا إلى السيد روبرت دي نيرو. دون أي تغيير في محتواها (Tout va bien). ومع كل رسالة كانت علاقتي تتوطد أكثر فأكثر بديلفينا، هذا هو أسمها، كانت تستقبلني بقبلة على الخد وتودعني بمثلها.

في احدى الظهيرات، كنا ندخن السجائر ونحن متكئان على البوابة الحديدية لمدخل المجمع السكني. قالت ديلفينا، أن روبرت دي نيرو هو ممثلها المفضل، وأسهبت في الحديث عن أفلامه «التي شاهدتُها كلها تقريبا». ثم اعترفت أنني أكثر براعة منها في تحليل الأدوار التي لعبها

قائلة «أنت فعلا بارع في سبر أغوار شخصيته، اضافة إلى انك مطلع على الكثير من تفاصيل حياته الخاصة» وأضافت وهي تلقي ببقايا سيجارتها نحو بولفار مونبارناس «لو كنت مكانك لبادرت إلى تأليف كتاب عنه»؟.

ملقيا بسيجارتي مثلما فعلت ديلفينا، أجبتها بشيء من اللامبالاة «ولكن يا عزيزتي ديلفينا، أنت لا تعرفين كم هي صعبة الكتابة عن صديق حميم مثل بوبي»!.

«من»؟ تساءلت متعجبة.

«بوبي دي نيرو، عمن نتحدث منذ أيام».

«بوبي دي نيرو» قالت ضاحكة.

«ديلفينا»ـكنت أشعر بسعادة وأنا أكرر أسمها «ديلفينا لابد أن تلتقي ببوبي» خرجت الكلمات من فمي بتلقائية فوجدت نفسي أقول «نعم نعم، لابد أن أقدمك له».

«حقا أنا سعيدة بمعرفتك، يا سام» قالت وعانقتني.

«أرجوك أن لا تخبري أحدا بالأمر» وأشرت لها نحو نافذة الغرفة المطلة على الحديقة، تلك التي طلبت مني السيدة جيسيكا تاندي بعدم دخولها «انه هناك، في تلك الغرفة» قلت وأنا أهز رأسي بشيء من الأسى.

صمتت ديلفينا لبرهة وسألتني «ولكن لماذا يحاصر نفسه في تلك الغرفة»؟

«آسف، سأوضح لك القصة فيما بعد. هناك بعض المشاكل المؤقتة. بوبي يعاني من مشاكل عائلية نتيجة اشاعات دنيئة نشرتها الصحافة الأميركية عن حياته الخاصة. على أية حال سوف لن يبقى مختبئا هنا، قريبا جدا سينتقل إلى سان تروبيه عند صديق له لاعب تنس مشهور».

«يا لها من صدفة، أنا من فريجوس القريبة من سان تروبيه. أنا نصف فرنسية ونصف اسبانية».

أخذت أتأمل وجهها قائلا «عدا عن أسمك، ما هو الشيء الأسباني فيك، ديلفينا»؟

هزت كتفيها ببراءة، كأنها تقول «لا أعرف» أو «لا أريد أن أقول».

عندما ودعت ديلفينا الجميلة، كان الشيء الذي تبادر إلى ذهني هو أنني بحاجة إلى بعض الفرنكات. فماذا ستقول ديلفينا إذا دخلت المطبخ ولم تر في الثلاجة سوى كرتونة بيض وعلبة زبدة وبضع علب من البيرة، ورأت الرفوف مكدسة بعلب الحمص والفاصوليا والعدس والبصل ومعجون الطماطم، وبضع قنان من نبيذ «الكوت دو رون» الرخيص! هل هذه هي الأطعمة المفضلة لنجوم هوليوود!

كان لابد من الأتصال بالشاعر آدامس.

قال آدامس وهو يقلب قصيدته الطويلة التي طبعتها له «هل أعجبتك»؟

«جدا» قلت له.

فقال «لا تكن مجاملا، يهمني رأيك، أنت تملك حساسية مختلفة». «صدقني آدامس، أنها قصيدة عظيمة». كان آدامس يسألني دائما رأيي عن أي شيء أطبعه له. من جهة، كان هذا تواضعا منه، ومن جهة أخرى، كان ينظر اليّ باعتباري «مسيحيا»، كما قال لي ذات مرة «لم يمارس القرآن بلاغته اللغوية عليك».

كنا في مقهى «سان كلود» في السان جيرمان، الذي كان يفضله آدامس في تلك الفترة. وكان آدامس قد جلب معه مخطوطة جديدة لكي أطبعها له، وصفها بأنها «خطيرة للغاية» وقال «أنت تعرف أنني أثق بك دائما، أرجوك أرجوك، يجب أن لا يطلع على هذه المخطوطة أي شخص غيرك» وسألني، وكنا نشرب «ستيلا أرتوا»، إن كان هناك شخص عربي يقيم معي في محل سكناي.

«فقط السيد روبرت دي نيرو». قلت مازحا، فضحك آدامس بعمق، ثم قال «أنت تحكي كثيرا عن السينما ولكنك لا تعمل اي فيلم. مثل أغلب الرجال العرب، يحكون كثيرا عن الجنس، دون أن يمارسوه، وحتى إذا مارسوه فأنهم مساكين يظلون مكبوتين». حين وضع المخطوطة بين يدي قال «لقد عملت على هذه المخطوطة ثمانية عشر شهرا. لقد قمت بإعادة كتابة «سيرة ابن هشام» بطريقة روائية حديثة. هل تعرف ماذا يعني ذلك»؟ هز رأسه مبتسما «يعني أنها مش مزحة».

«أنت تعرف انني أحبك يا آدامس». أجبته.

ومن البنك الملاصق لفندق «ماديسون» سحب لي آدامس ما يقرب ٢٠٠٠ فرنكا، ثم لف منديله الحريري حول رقبته وذهب.

قنينتان من الشمبانيا في الثلاجة، ومجلة «نيوزويك» على طاولة المطبخ، وجريدة «لوس أنجلز تايمز» على الأرض عند مدخل الشقة، وأنا في الصالون أضرب على البيانو، وبين لحظة وأخرى، أرفع رأسي وألقي نظرة من النافذة المطلة على الحديقة البديعة ومدخل البناية. ها هي ديلفينا تدفع بإحدى يديها الناعمتين البوابة الحديدية، وفي الأخرى تحمل باقة من الزهور الحمراء. حتى حقيبة البريد المهترئة كانت تبدو ثمينة وهي مستقرة فوق كتفها.

«إنها لبوبي» قالت وهي تقرب الزهور من أنفي الكبير. «يا لها من باقة أنيقة». قلت وأنا آخذ الزهور. «هيا ديلفينا، قومي بتوزيع الرسائل بسرعة، وتعالي لتعطي الزهور لبوبي بنفسك».

«بهذه الثياب المبهدلة» قالت بدلع. مددت يدي ومسحت خديها ثم أحتضنتها «أنك باهرة الجمال، ديلفينا» وتبادلنا ابتسامات خجلة.

ذهبت ديلفينا إلى الحمام، فهرعت فورا وأخذت مفتاح «الغرفة المغلقة» الذي كان معلقا في مكانه، في الجانب الأيمن من خريطة العالم الكبيرة. ودخلت تلك الغرفة للمرة الأولى. كان كل شيء مغطى

بالشراشف. سرير النوم الكبير والمقاعد وحتى اللوحات المعلقة على الجدران، كانت مغطاة بشراشف مطرزة برسوم لبواخر وموانئ وبحارة. أمضيت برهة وسط الغرفة، ثم قلت بصوت مرتفع متعمدا أن تسمعني ديلفنيا.

It's Ok Bobby, don't worry no thing bad will happen. Be sure, Bobby.

قالت ديلفينا «هل هناك مشكلة في مجيئي». «لا لا، اطلاقا، بوبي ليس من هذا النوع. الحق عليّ، يا ديلفينا، كان عليّ أن أعلمه بمجيئك. لقد نسيت. لندع الأمر إلى الغد» ثم أخذت منها باقة الزهور وتوجهت ثانية إلى الغرفة المغلقة، وضعتها على السرير الكبير. أخرجت من جيبي أكثر من ١٥٠ دولارا (كنت أشتريتها بالأمس، وسوف تظل هذه الـ ١٥٠ دولارا دائما في جيبي) وعدت إلى الصراخ ثانية وأنا في طريقي إلى الصالون.

Very Kind of you, Bobby. Ya ya I will. All the papers of course.

وقد تعمدت أن أترك الدولارات بين يدي وأنا واقف أمام ديلفينا. «لقد أعطاني بوبي بعض النقود لكي آخذك في المساء، لأي مطعم تختارينه».

«كم هو لطيف» قالت.

«يجب أن نذهب إلى شارع سان بينوا لنشتري لبوبي الصحف الاميركية».

«أوكي. سأموت توقا لملاقاته، أكاد لا أصدق أنني وبوبي دي نيرو في نفس الشقة».

«تصوري يا ديلفينا، أن «لوس أنجلس تايمز» كتبت في عدد البارحة، أن بوبي موجود في لندن، في منزل ألتون جون. أليس هذا هراء»!

ردت ديلفينا Incredible Story.

فأجبتها It is Indeed.

وقبل أن نخرج، هتفت «أوه، لقد نسيت، أنه وقت الشمبانيا بالنسبة لبوبي». توجهت إلى المطبخ ووضعت قنينة شمبانيا مع كأس في صينية من الصواني الأنيقة للسيدة جيسيكا تاندي، ووضعتها قرب الزهور في الغرفة المغلقة.

في شارع سان بينوا أشترينا «نيوزويك» و«لوس انجلس تايمز» و«هيرالد تربيون». فجأة قالت ديلفينا «لماذا تشتري «النيوزويك» ثانية، عندك هذا العدد في البيت».

«هل أنت متأكدة»؟

«of course.»

ألقيت بالصحف الأميركية في «الغرفة المغلقة»، وتوجهت إلى المطبخ وفتحت قنينة الشمبانيا «لا يوجد أفضل من الشمبانيا في الظهيرة» قلت لديلفينا ثم بدأت أغني «موناليزا» للمغني الأميركي نات كينغ كول. وعندما جلسنا على الأريكة الواسعة، قلت لديلفينا بصوت ناعم إن بوبي قال لي «Enjoy your self guys» لكني أجبته «أنها هنا من أجلك يا بوبي».

وضعت ديلفينا كأسها على الطاولة وقالت «أنت أيضا لطيف جدا» وقبلتني من فمي. فأخذت أقبلها وعندما وضعت يدي داخل بنطالها الشفاف. «ليس اليوم، رجاء» قالت هامسة.

وقبل أن ننهي قنينة الشمبانيا قالت لي Embrasse moi encore فأخذت أقبلها وحين راحت يدي تفتح أزرار قميصها كررت هامسة «ليس اليوم رجاء». أمضينا أياما عديدة في القبلات، وعندما كنت أقبل نهديها، كانت تقول «ليس الآن».

ورغم أن سعادتي كانت لا توصف، فأن بعض مشاعر الأسى كانت تنتابني بين وقت وآخر، إذ لم يكن بمقدوري أن أروي لديلفينتي الجميلة عن «الطفل الذي كان يحلم بأن يصبح سينمائيا، ليعمل فيلما عن أبيه الفران الأخرس والأطرش الغارق في حب ملكة انكلترا، وحكاية بحثه عن روبرت دي نيرو لكي يمثل دور ذلك الفران». هذه الحكاية التي من كثرة ما رويتها في البارات والمقاهي والحدائق العامة، وفي الشوارع، حتى بت أشعر أن نصف سكان باريس يعرفونها.

كنا نخرج، ديلفينا وأنا، كل يوم للمقاهي والمطاعم. وكلما نفدت نقودي كنت أتصل بآدامس مستنجدا. كنت أقول لديلفينا وأنا أدفع الحساب «بوبي العزيز هو الذي يصرف علينا». حتى جاء ذلك المساء الذي شعرت فيه أن ديلفينا أصبحت قريبة جدا مني، وأنها بين لحظة وأخرى ستقول لي من كل قلبها «Je t'aime» وسوف أصارحها بحبي لها أيضا. لذلك قررت أن أقول لها في صباح اليوم التالي (تماما كما فعل مانويل البرتغالي معي) «أين كنت يا ديلفينا؟ لماذا تأخرت؟ لقد أنتظرك بوبي طويلا، أراد أن يودعك قبل أن يعود إلى هوليوود». لكن، للأسف، كنت تعيس الحظ.

في ذلك المساء، بعد أن خرجنا من احد مطاعم شارع «مابيون»، مشينا على الأقدام إلى مقهى لو ١٠، الواقع في شارع أوديون، وأذكر، قبل أن ندخل إلى المقهى، أشرت لديلفينا إلى البناية المجاورة للمقهى وقلت لها «عام ١٩٢٢، هنا في ١٢ رو دو لا أوديون، أتفقت الناشرة الأميركية سيلفيا بيتش، مع جيمس جويس على طبع روايته الشهيرة «يوليسيس».

في لو ١٠ شربنا الكثير من السانغريا، بحيث عدنا إلى البيت شبه ثملين، ألقينا بنفسينا في السرير. وعندما قبلتها قالت لي ديلفينا، «Je t'aime» وأخذت تخلع ثيابها «الآن، سوف أريك ما هو الأسباني فيّ»

وضحكنا. مارسنا الحب. جلبت قنينة «كوت دو رون» وشربناها. مارسنا الحب مرة أخرى. أذكر أنني كنت عاريا وكنت أفتح قنينة شمبانيا، وكنت أغني «موناليزا»، وكنت أسمع ديلفينا تقول «أخفض صوتك أرجوك، أخفض صوتك، ليس لطيفا أن نزعج بوبي في آخر الليل. أرجوك أرجوك أخفض صوتك، أخفض صوتك أرجوك». ظللت أسمع صوت ديلفينا إلى أن أستيقظتُ في الصباح. وجدت نفسي وحيدا في السرير، لا أثر لديلفينا أو ثيابها. كانت قناني الشمبانيا والكوت دون رون، فارغة، وعلبتان فارغتين للحمص والفول. لم أجد ديلفينا في الحمام ولا في المطبخ. وعندما رأيت باب «الغرفة المغلقة» مفتوحا، شعرت بالغيرة ورحت أقترب من الغرفة بحذر، لقد كنت على وشك أن أصدق أن بوبي دي نيرو كان في البيت وأنه كان يضاجع ديلفينا. لم يكن هناك غير الشراشف المطرزة برسوم لبواخر وموانئ وبحارة، وباقة زهور ذابلة وكمية من الصحف والمجلات الأميركية.

ذلك الصباح، تركت لي ديلفينا رسالة في صندوق الرسائل. تقول فيها:

عزيزي المحتال، أنا سعيدة لأنني اكتشفت حيلتك مع انتهاء عملي في البريد. أمس، حين رأيتك تذهب عاريا إلى غرفة الاشباح تلك وتأتي بقنينة شمبأنيا (التي شربتَها ساخنة) عرفت أنك كنت تضحك عليّ. لقد أضحكتني كثيرا وأنت تلتهم حبات الحمص والفول بسرعة عجيبة. أيضا، أعجبتني حكاية والدك الفران، الأخرس الأطرش، وبحثك عن دي نيرو ليجسد هذه الشخصية في الفيلم الذي تحلم بعمله. أتمنى لك التوفيق، ماذا يمكنني أن أقول!؟ انني لست غاضبة منك يا ألدو ماتشيوني!» ديلفينا

ملحوظة: عندما رأيتك للمرة الأولى لم أرتح لك أبدا، كنت بشواربك تذكرني بسائق تاكسي من برشلونة كان قد آلمني ذات يوم.

تولوز

فوق جسر الكونكورد
وجد الآشوري الحزين
ذات ليلة
لغته الضائعة
فوق جسر الكونكورد
لم يكن وحده
كان يحمل جوعه
ثيابه القديمة
وذقنه
شحوب وجهه
وحذاءه المتعب
مثل جيبه،
في تلك الليلة
تحسس الولد القديم أنفه الكبير وقال:
اصدقائي ما عادوا اصدقائي
ولم أعد صديقهم

فوق جسر الكونكورد
لم يكن وحده
حين التفت إلى نهر السين
المتجمد من البرد.

عندما استيقظت في أوسترليتز، شعرت على الفور بذنب كبير. لقد كانت عندي فرصة ثمينة في ذلك الصيف لأجد حلا لوضعي البائس. لكنني أهدرتها في الأحلام. إنني مصمم الآن على أن أجد عملا مهما كلف الأمر. رغم اني أشعر في بعض الأحيان ان الله هو الذي يقود خطواتي، وانه لا يريدني أن أقع في كمين الحياة الروتينية.

ففي الأسبوع الفائت، كنت على موعد عمل في مطعم ايطالي. توجهت للقاء صاحبة المطعم التي وافقت، عبر التلفون، ان أحل محل صديق لي ترك العمل عندها. لم يكن يهمني أن أعمل «غسال صحون»، فمعظم زوجات أصدقائي طالما اعتبرنني «أفضل غسال صحون في التاريخ». كنت أفكر، وأنا أمشي مزهواً، بالراتب الذي سيدخل جيبي في آخر الشهر، وفي استئجار غرفة صغيرة تنقذني من حياة الشوارع وإزعاج الاصدقاء أحيانا. وعلى مبعدة خطوات من المطعم ذي الواجهة الأنيقة والحديثة، توقفت للحظات، ربما لأعدل من هندامي أو شعري المزيّت والمصفف إلى الوراء على طريقة مغنّي الأوبرا الايطالية، فجأة، سرى في جسدي شيء مثل البرق جعل قدمي تبتعدان عن المطعم، وتتجهان صوب منطقة السان جيرمان، لتلقيا بيّ في مقهى «أوشيه دو لا أبيي». هناك ظللت أشرب نبيذي المفضل «غاميه». في ذلك اليوم، قال لي سائح أميركي بعد ان دفع عني بضع كؤوس «ان العاطلين عن العمل يعرفون مباهج الحياة وملذاتها، وهم الأقرب إلى رحمة الله وحنانه».

أما اليوم، حالما أستيقظت من نومي، تبادلت التحية مع عمال التنظيف في المحطة، الذين يعاملونني دوماً بلطف فهم حين يرونني

مستغرقاً في نومي، يمررون مكانسهم برقة بالقرب من رأسي حتى لا يؤججوا الغبار. كم هم رقيقون هؤلاء المغاربة والأفارقة! (عندما يريدون ذلك). استيقظت بنشاط، وأنا أهمس لنفسي «إلى متى تبقى بلا عمل؟». وعلى الفور ذهبت إلى حمام المحطة وأخذت دوشاً بعشرين فرنكا. وأقسمت بقبر أبي ألا اقترب من السان جيرمان وما يحيطها، على الأقل لمدة ثلاثة أشهر، حتى أُحسّن أوضاعي الاقتصادية. وهكذا بعد الدوش، غسلت ثيابي مباشرة، وأعدتها إلى صناديق الايداع في المحطة. بسرعة أخذت الميترو وألقيت بنفسي في ساحة الريبوبليك: «باريس، ليست السان جيرمان فقط» قلت في نفسي. دلفت «بولفار ماجنتا» الطويل، ورحت أدور على مكاتب «الأشغال المؤقتة» التي تناسب مؤهلاتي، مثل أعمال البناء والدهان والتنظيفات. كنت استعرض لوائح الأشغال الشاغرة، وأرى نفسي، تارة معلقاً في الهواء وأنا أدهن واجهة بناية مرتفعة ومن هناك أرى الناس كالأقزام. وتارة أرى نفسي أحفر الشوارع! وفي هذه اللحظة يمر من أمامي شبح صديق دائماً ينافسني في الشوارع يقف للحظات، يشعل سيجارة ثم يخرج من جيبه علبة بيرة، يتأملها ثم اسمعه يقول «آه، حقاً الحياة جميلة». وتارة أخرى أجد نفسي أنظف بلاط أحد المكاتب وثلاث موظفات فرنسيات يدخنّ السجائر ويتحدثن عن الليلة الماضية.

لم أكن أعرف في غمرة تخيلاتي ان قدمي كانتا تنحرفان قليلاً قليلاً وتنزلقان باتجاه «بولفار سيباستيبول» وتعبران «ساحة شاتليه» ثم «شارع باليه دو جوستيس» ثم «جسر سان ميشيل» لأجد نفسي في السان جيرمان وتحديداً في مقهى «لو روليه أوديون» واقفاً مع أحمد صديقي الجزائري.

قبل أن أشرح مشكلتي، دعاني أحمد إلى كأس من البيرة. بدا لي قلقاً. وبعد ان دعاني إلى كأس ثانية قلت له بصوت مكسور «آسف، أحمد، انني في كل مرة ألتقيك تكون أوضاعي صعبة».

«طز بالفلوس، اشرب عشرين كأسا» قال بعصبية، وهو يلقي نظرة خاطفة نحو يديّ، ثم مدّ لي سيجارة مارلبورو، ما لبث ان سحبها بسرعة «آسف انت لا تدخن هذا النوع من السجائر».

بعد ان أشعل سيجارته، أضاف بنبرة محبطة «لقد تعبت من زوجتي ومن باريس... ولم يبق الا الهرب منهما، من الاثنين معاً. خلاص، يجب أن أهرب... نعم يجب أن أهرب..».

كنت أجرع بيرتي وأتطلع إلى دخان سيجارته، فأشار أحمد للنادل لكي يأتي بكأسين آخريين. «أنا أقدرك كثيرا» قال أحمد، ثم نظر باتجاه الخارج، وأضاف «لا توجد في المقهى نوعية سجائرك الفاخرة» ثم ابتسم وهو يمد لي خمسين فرنكا، أخذتها وهرولت خارجا لأشتري علبة «دنهيل»، التي اصبحت أدخنها بعد وفاة موريس. حين عدت رفض ان يأخذ بقية النقود، أغمض عينه اليسرى وطبطب على فخذه اليمنى، ففهمت انه يقصد أن ثمة نقودا كثيرة في جيبه.

«الجزائري لا يترك صديقه في أزمة، أبدا» قال أحمد.

«Je sais» (أعرف) قلت، وأنا أجرع بيرتي.

«اننا اصدقاء منذ عدة سنوات، كما اننا كجزائريين وعراقيين نعيش أوقاتاً صعبة جدا جدا» قال أحمد.

«C'est Vrais» (هذا صحيح) أجبت.

نظر الي أحمد لبرهة، ثم أضاف منزعجاً.

«ما بك؟»

«Rien» (لا شيء). قلت

«يا دين الرب، كيفاش Rien، نهدر معاك بالعربية وتجاوبني بالفرنساوية».

«آسف جداً، يا أحمد. أنت على حق».

أخرج أحمد سيجارة، ففعلت مثله، ثم جرع ما في كأسه بسرعة فأنهيت كأسي. وقبل ان أتفوه بكلمة (كنت أود الاستئذان)، قاطعني بأن طلب مشروباً أضافياً، وراح يدخن بألم ويقول «أنا تعبت من باريس، تعبت من زوجتي، نعم عليّ أن أهرب منهما. لو بقيت هنا يوماً آخر، فانني حتماً سأموت. لا استطيع، لا استطيع أن أتحمل هذه المرأة الشريرة، لقد أقسمت بقبر أبي وحياة ابنتي الجميلة، انني لن أبقى في هذه الوضعية المزرية. سأسافر إلى تولوز. أنا لا أحب باريس ولا أحب زوجتي. في تولوز سأكون أسعد انسان، صدقني يا صديقي» ثم أخرج تذكرة قطار من جيبه قائلاً «ها هي البطاقة، ذهاب فقط» ثم نظر اليّ «ألا تريد أن تسألني لماذا تولوز وليس غيرها؟»

«لماذا تولوز وليس غيرها؟» سألته.

«لأنني أحب امرأة هناك. نساء تولوز أجمل من نساء باريس. تأكد ان ما أقوله صحيح مئة بالمئة». وبعد أن أنهى كأسه، أخرج ورقة من فئة الخمسمائة فرنك، ودسها في جيبي «أعرف انك تحب باسكال»[1]، ابتسمت وأنا ألتفت إلى النادل لكي يملأ كأسينا. فقال أحمد «من الأفضل أن تحتفظ بالنقود، عما قريب ستفتقدني، ولا اعتقد ان هذا المبلغ سيكفيك حتى الصباح. ألا تريد أن تسألني متى سأسافر؟»

«متى ستسافر؟»

«غدا فجرا... ذهاب فقط، نعم ذهاب فقط. وفي القطار سأغمض عينيّ حتى يخرج القطار من دائرة باريس ومحيطها. يا إلهي كم سأكون سعيدا في تولوز. لا يمكنك ان تتصور ذلك، كم سأفرح وأنا أغادر باريس. أنت تعرف انني لا أحب باريس. يجب ان أهرب بسرعة، يجب

---

(١) باسكال: قطعة الخمسمائة فرنك كانت تحمل صورة الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال. وكنا نتبادل حوارات مشابهة، مثل «أنا محتاج إلى مونتسكيو» فيرد الآخر «آسف أستطيع أن أسلفك دولاكروا». الأول ٢٠٠ فرنك والثاني ١٠٠ فرنك.

أن أنقذ نفسي من جنون مؤكد. ثمة مؤامرة بين باريس وزوجتي لتدميري».

«أحمد...».

«نعم».

«حاول ان تعطي زوجتك فرصة أخرى».

«هل جننت؟ كنت اعتقد انك تكره العائلة.. لا تحاول ان تلعب دور الانسان الطيب».

«انني أقصد يا احمد، ان تذهب إلى البيت... وأن..».

«لماذا لا تغير عادتك الرديئة.» قاطعني أحمد وهو يهز رأسه بمرارة وألم، ثم أضاف «ما إن وضعت النقود في جيبك حتى صرت تريد ان ترسلني إلى البيت لكي تذهب وتشرب في مكان آخر»؟

«أرجوك، لا تفهمني غلط».

«أنا.أعرفك جيدا، انت دائما هكذا. تستغل حبنا وصداقتنا، بمجرد ان نعطيك بعض النقود تختفي. حميد كان على حق عندما قال «ادفعوا مشروبه واشتروا له ساندويتشة، وإياكم ان تعطوه كاش».

طلبت مشروباً إضافياً. فيما ظل أحمد صامتا، يسحب نفسا عميقا من سيجارته وينفث الدخان صوب الأرض بقوة. ثم بدأ يهز رأسه وهو يردد «أنا لا أحب باريس، لا أحب باريس ولا زوجتي». كانت سيجارته في يده اليمنى، وفي جيب بنطاله وضع اليد الأخرى، وهو في طريقه إلى المراحيض. أخرجت ورقة الخمسمائة ووضعتها على الطاولة، وعندما مدّ النادل يده ليأخذ النقود، حدقت في وجهه، فلفتت انتباهي قنينة «الجيمسون» المعلقة وراءه، طلبت كأساً، ثم أخرى وأخرى، وبما ان أحمد تأخر، خرجت لأشتري سجائر اضافية. أتذكر انني دخلت مقهى آخر، ولا أتذكر ما حدث بعد ذلك.

حين فتحت عينيّ بصعوبة شديدة، وجدتني نائما تحت تمثال دانتون الذي كان يحجب عني شمس منتصف النهار. لم أحب أبدا النوم في الشارع في النهار. تحسست جيوبي (وهذا أول شيء أفعله حين استيقظ)، ما ان لامست يدي القطع النقدية، حتى ارتسمت ملامح المرأة الصربية وهي تناولني المنشفة في حمام أوسترليتز. حين أنام في الشارع في النهار، من عادتي أن أسير حاني الرأس، كي لا تلتقي عيناي بعيون المارّة، إلى أن ابتعد عن المنطقة مسافة كيلومتر مربع واحد. وهكذا خرجت من بولفار السان جيرمان، دخلت شارع دانتون، ساحة السان ميشيل، ثم قطعت رو دو لا هاشيت، لأسير في رصيف مونتبيللو في طريقي إلى اوسترليتز. وهناك رأيت أحمد وزوجته وهما يمسكان بالصغيرة التي كانت تسير بينهما. كنا وجهاً لوجه ولم يكن هناك مهرب من تبادل التحية. ظل أحمد يداعب طفلته، فيما عاتبتني زوجته لأنني لم أزرهم منذ أشهر عدة، ولم تنس ان تضيف انها دائما تحتفظ بعلبتين من «الحمص، أو لبلبي كما تسمونه في العراق». فقال احمد وهو ينظر إلى زوجته «هو هكذا، تصوري انني لم أره منذ الصيف الماضي».

قلت بصوت خجول «ماذا افعل، انني اعمل في مطعم ايطالي من الصباح إلى منتصف الليل».

عندما تبادلنا كلمات الوداع، اقتربت من الطفلة ومسّدت شعرها، فقالت لي بفرح «بابا دعاني إلى المكدونالد..».

لقد شعرت بالفرح وأنا أنظر إلى أحمد وعائلته وهم يبتعدون قليلا قليلا. ورغم انني كنت جائعا بعض الشيء، إلا انني لم أفكر بالمكدونالد، ليس لأني من أنصار «برغركنغ» وخصوصا «الدوبلووبر» بل لأنني كنت أود أن أسأل أحمد عن مصير تذكرة القطار، فأنا مثله لا أحب باريس وأريد السفر إلى تولوز، ذهاباً فقط.

ملكيان في «كاتورز جوييه»

طلب مني صديقي كلود، النادل في مقهى «أوشيه دو لا أبيي»، أن أنهي كأسي بسرعة. الساعة الثانية والربع صباحا، وعليه أن يغلق باب المقهى. مشيت بضع خطوات وجلست في ساحة فورستنبيرغ. هنا «أنظف» دماغي كل يوم. كان البيت الذي قضى فيه الرسام الشهير دو لاكروا سنواته الاخيرة، قبالتي، وقد اصبح متحفا الآن. بدأت أدخن سيجارة. فكرت ان اتجه إلى محطة اوسترليتز. لكنني لا استطيع النوم ومزاجي معكر.

«إلى متى يكرر الفرنسيون هذه المسرحية المملة»؟! قلت بصوت عال وكأنني اخاطب الفنان الكبير. كنت أقصد هذه الاستعراضات العسكرية الهائلة التي يقيمونها كل سنة. آلاف الجنود، مئات من الدبابات والمدفعية والصواريخ، عشرات الطائرات تحلق في السماء، وحشد هائل من البشر في كل مكان، وشرطة المرور تغلق الشوارع الرئيسية المؤدية إلى قلب باريس، مما يؤدي إلى فوضى هائلة تستمر طوال النهار. وتقوم القنوات التلفزيونية ببث هذه الاستعراضات مباشرة، ونرى نفس هذه الصور في شاشات مئات الالاف من الاجهزة التلفزيونية المعروضة في فترينات محلات بيع الالكترونيات. أحب فرنسا ولكني لا أحب هذا اليوم الذي يسمونه «كاتورز جوييه» (الرابع عشر من تموز)، الذي يحتفلون فيه بذكرى الثورة الفرنسية.

تركت ساحة فورستنبيرغ وقررت ان اقوم بنزهة حول كنيسة السان سولبيس بانتظار أن يبزغ الفجر لأدخل اي مقهى أجده أمامي. لمحت عند نهاية شارع بونابرت المتقاطع مع شارع فيو كولومبييه، أمراة أنيقة تسير بخطوات اثارت انتباهي. كانت ترتدي شورتا قصيرا، أبيض، يكشف عن ساقين مكتنزتين. خمنت انها تقترب من الخمسين. عندما تقلصت المسافة بيننا بدت لي حزينة.

«لماذا أنت حزينة، مدام»! قلتها دون أن أنتظر أي رد منها. كنت ثملا، وكانت الساعة تقارب الثالثة صباحا.

توقفت السيدة وقالت وهي تحاول ان ترسم ابتسامة صغيرة «نعم، أنا حزينة جدا، مسيو».

«أنا آسف جدا، مدام» قلت.

«لقد أضعت كلبي الصغير في الكاتورز جوييه، مسيو. أليس هذا محزنا!» قالتها بغنج وهي تبلل شفتيها وتمدهما إلى الامام.

«وأنا أضعت وطني في الكاتورز جوييه، مدام، أليس هذا محزنا»؟ قلت ساخرا.

ضحكت وقالت وهي تغمض عينيها بغنج «وكيف حدث هذا»؟

«انها حكاية طويلة، مدام».

صمتت السيدة للحظة، ثم قالت «اسمع. هل تريد أن تشرب كأسا معي، أعرف محلا يبقى مفتوحا حتى الفجر».

عبرنا بولفار السان جيرمان وسرنا بمحاذاة الكنيسة، قالت لي «أنا أقيم في هذا البولفار. أليس رائعا أن يقيم المرء في هذا الحي».

«هذا حلم بالنسبة لي» أجبتها.

«لي أيضا». قالت بمرح، ثم اضافت «تصور كم سيكون الامر رائعا، لو اننا صادفنا كلبي الصغير الآن».

«سنجده، صدقيني مدام، أنا اشعر بذلك». قلت.

وقفت وتطلعت اليّ «أنت لطيف. تشعرني بالألفة، لقد قلت (سنجده) هذا لطف منك».

هززت كتفيّ ولم أعرف بماذا أرد.

«نعم أنت لطيف» كررت.

عندما دخلنا مقهى «لو كونتي»، حياني داميان، مدير المقهى، ومد يده مصافحا.

«يبدو أنك مشهور»؟ قالت السيدة.

«في الحانات فقط» أجبتها، فضحكت بصوت عال.

طلبت نبيذا أحمر، وطلبت هي «كير رويال». وعندما لاحظت داميان يخرج من البار، عرفت انه سيذهب إلى غرفة المخزن الواقعة خلف البار، بالقرب من التواليت. اتجهت فورا إلى التواليت، وانتظرت لحظات حتى خرج من المخزن، فقلت له «داميان، من فضلك إذا اضطررنا إلى الشرب كثيرا، هل يمكن ان ادفع الحساب غدا، لقد تعرفت على هذه السيدة اليوم».

«بالتأكيد» قال داميان ثم اضاف «انها تقيم في باريس منذ اسبوعين فقط، كانت في كاليفورنيا».

«تعرفها»؟!.

«تأتي في الليل لتشرب كأسا، انها تسكن على مبعدة خطوات من هنا».

قالت السيدة ان اسمها ميشلين، وسألتني عن اسمي، عن حياتي، وماذا حدث لبلادي. رويت لها انني اعمل حاليا في شركة للترجمة والطباعة، وان طموحي هو ان اصبح مخرجا سينمائيا. وعن بلدي، أخبرتها ان مجموعة من الضباط الأشرار قاموا في «الكاتورز جوييه» من

عام ١٩٥٨ بانقلاب عسكري دموي أطاح بالنظام الملكي في العراق، ومنذ ذلك الوقت يعيش الشعب العراقي تحت حكم العساكر الأجلاف.

«هل أنت ملكي» سألتني.

«نعم أنا ملكي. اعتقد ان النظام الملكي في بلادي كان افضل بالنسبة لنا».

هزت رأسها متفهمة. وقالت «لقد عشت اكثر من ١٥ سنة في كاليفورنيا. كان عندي مطعم كبير هناك، مختص بالمطبخ الفرنسي، حسنا كنا نمتلكه أنا وزوجي. انفصلت عنه منذ شهر». ثم اضافت وهي تطلب كأسا اضافية «أنا طباخة محترفة. فكرت ان افتح مطعما هنا في باريس، لكنني قررت ان أستكشف الاجواء اولا، لذلك قبلت العمل كـ«شيف» في مطعم مشهور، يقع خلف باليه دو جوستيس (قصر العدالة). زبائني هم من اشهر قضاة باريس». بعد لحظة صمت سألتني «أين تقيم»؟

«منذ فترة تركت سكني الذي كان قريبا من هنا، وحاليا اقيم في ستوديو صغير يقع بالقرب من المطبعة التي اعمل فيها. قرب بورصة باريس».

«منطقة جميلة. ولكنها بعيدة من هنا». قالت.

ظللنا نشرب حتى اغلق المقهى بابه، فدعتني لمواصلة الشرب في بيتها «انه على بعد خطوات، تعال معي».

في الصباح، خرجت ميشلين من الحمام، وكنت ما ازال في السرير، قالت صباح الخير وانحنت لتقبلني. فسحبتها إلى السرير.

«هل تعرف أنني أيضا ملكية» قالت. «أنا طباخة، والطباخ لا يمكن إلا ان يكون ملكيا، أليس كذلك»؟

«نعم» قلت وأنا أزيح عن جسدها المنشفة الكبيرة.

ذهبت ميشلين إلى العمل وتركتني نائما، وعندما عادت كنت في الحمام آخذ دوشا واغني بحماس اغنية Dans Tes Bras لشارل أزنافور، فأخذتْ تغنيها معي وهي تخلع ثيابها وتدخل تحت الدوش.

«أعرف شارل ازنافور شخصيا» قالت ميشلين ونحن نتناول طعاما فرنسيا فاخرا جلبته من المطعم. «لقد كنت الطباخة الخاصة لمغني البوب ليونيل ريتشي».

«واو، أنا أحب ليونيل ريتشي كثيرا» قلت لها.

«أنا أيضا» قالت ميشلين «كنت طباخته المفضلة لسنوات طويلة. ذات مرة كان شارل ازنافور أحد المدعوين عند ليونيل ريتشي وكنت اتولى الاشراف على الطبخ. قال لي ليونيل ريتشي (ميشلين ارجوك اهتمي بالطعام اكثر من اي وقت، فالضيف القادم هو شارل ازنافور، انه «حشري»، يضع أنفه في كل كبيرة وصغيرة في المطبخ، من فضلك، لا اريده ان «ينق»). وبالفعل عندما جاء ازنافور تدخل في كل صغيرة وكبيرة بما يخص الطعام. انه كثير النق ومتطلب».

«هل ليونيل ريتشي، لطيف كانسان» سألتُ ميشلين.

«جدا». قالت ميشلين بحماسة.

ثم سألتني ان كنت اتصلت بشركة الترجمة واخبرتهم عن غيابي. قلت لها انهم متعودون على سلوكي. وذكرتها «لا تنسي ان البارحة كانت احتفالات الكاتورز جوييه».

«كاتورز جوييه، ذكرتني، علينا ان نخرج ونبحث عن الكلب، ربما نجده في المكان الذي اضعته».

«في ساحة السان سولبيس»؟

«نعم، قريبا من منزل كاترين دونوف، الممثلة، هل تعرفها؟».

«ومن لا يعرف كاترين دونوف»!

«صحيح. البارحة قلت لي شيئا عن السينما».

«أحب ان اكون سينمائيا».

«صحيح، اتذكر ذلك».

ذهبنا إلى مخفر الشرطة المواجه لكنيسة السان سولبيس حيث قدمت ميشلين البيانات الخاصة بالكلب المفقود. ثم قضينا الظهيرة ندور في الطرق المحيطة بالكنيسة. شربنا بضع كؤوس من النبيذ الابيض في المقهى المقابل للكنيسة. ثم قالت ان عليها ان تعود إلى البيت وبعدها تذهب إلى العمل. اقترحت ان اذهب معها لتعطيني نسخة من مفتاح البيت

«أشعر انني بدأت أقع في حبك». قالت.

«أنا أيضا» قلت.

وقبل ان تذهب إلى العمل، ذهبنا إلى السرير. ثم أخذت ميشلين دوشا وخرجت.

نهضتُ ووضعت طاولة صغيرة عند النافذة المطلة على بولفار سان جيرمان، جلبت قنينة البوربون ورحت أشرب، وبما ان البيت كان يقع تماما فوق مقهى «أولد نيفي» المحرم عليّ دخوله بسبب مشادة مع صاحب المقهى، تخيلت نفسي جالسا في الطابق الثاني من المقهى، رغم أنف صاحبه.

لم يكن صحيحا ما قلته لميشلين بخصوص العمل. كل ما في الامر كانت هناك شركة صغيرة تقوم باعمال الترجمة والطباعة، يديرها لبناني اسمه جان، كان يحتاجني احيانا لطبع بضع صفحات باللغة العربية. ومن حسن حظي أن جان أبلغني قبل لقائي بميشلين باسبوع، انه وقع عقدا مع شركة فرنسية معروفة بصناعة الاسلحة، لترجمة بعض الكاتالوغات الخاصة بالاسلحة التي باعتها الشركة مؤخرا لعدد من دول الخليج العربي، فقد كانت الدول العربية تشترط ان تكون الكاتالوغات باللغة

العربية. كان جان سعيدا يومها وهو يدعوني لشرب كأس معه، وهو يزف لي نبأ هذه الصفقة. واخبرني انه سيحتاجني «على الاقل لمدة شهرين». ثم اعطاني مبلغا على الحساب.

قبل أن تعود ميشلين من العمل، رن جرس التلفون. رفعت السماعة، كان على الخط شاب فرنسي سأل عن السيدة ميشلين وقال انه كان في احتفالات الكاتورز جوييه بصحبة صديقته في احد المقاهي، فجاء كلب صغير وجلس إلى جانبهما، فلما غادرا المقهى فجرا حملاه معهما «لأننا عرفنا انه ضائع». ثم شرح لي التفاصيل قائلا انه رأى في السلسلة المعلقة في رقبة الكلب، رقما تلفونيا في اميركا. فاتصل بالرقم فرد عليه رجل يتحدث الانكليزية بلكنة فرنسية، وهو الذي اعلمه بان الكلب انما يعود لزوجته السابقة الموجودة في باريس حاليا، ثم زوده برقم تلفون ميشلين. شكرت الشاب وطلبت رقم تلفونه، ثم اخبرته انه حالما تعود ميشلين من العمل ستتصل به.

«ألم أقل لك سنجده» صرخت بأعلى صوتي وأنا أحملها، هي والاكياس التي كانت بيدها.

«انتبه انتبه ثمة قنان من النبيذ الابيض». قالت ميشلين ثم وقفت جامدة، حدقت بي «أشم رائحة البوربون، ارجوك لا تلعب معي».

«انني لا ألعب يا ميشلين، لقد وجدنا الكلب».

«أين؟ هل اتصلت الشرطة». هززت رأسي بالنفي ورويت لها الحكاية. أخذت رقم التلفون وراحت تتصل به، فيما انشغلت أنا بتفريغ الاكياس ووضع الاطعمة والنبيذ في الثلاجة. فجأة انطلق صراخ ميشلين «لابد ان نحتفل بهذا الخبر، انه الاحتفال الكبير»!. لقد تأكدتْ من صحة الخبر بنفسها فأخذت ترقص وتعانقني وتسحبني إلى السرير. وقبل ان نخلع ثيابنا، طلبت ان افتح قنينة من النبيذ الابيض وأتركه بجانب السرير.

لم أحب كلب ميشلين أبدا. كان بشعا. وكانت تقبله طوال الوقت. ومنذ ان ظهر بيننا صار يضايقني. عندما تكون ميشلين في البيت، كان ينبح طوال الوقت محتجا على وجودي. وعندما كانت ميشلين تذهب إلى العمل ويظل معي، لم يكن يفتح فمه اطلاقا. كان يتوارى عن نظري ويختبئ، فلا يعلم الله في أي زاوية من البيت. يظل كذلك حتى يخرج من مخبئه فجأة، يقترب مني وينظر اليّ بوقاحة ثم يأخذ بالنباح في وجهي. في تلك اللحظة بالذات، كان الباب ينفتح وتدخل ميشلين.

رغم المشاجرات الصغيرة التي كانت تحدث بيننا، نتيجة اختلافات أمزجتنا وطبائعنا باتت ميشلين ترتاح اليّ، وتشتري لي الثياب، خصوصا القمصان من الماركات الجيدة، وكانت تحب ماركة Agnes b. وبما انني امتلك الخبرة في الطباعة والنشر، اشترت كومبيوترا وآلة طابعة ملونة. وقالت انها ستؤلف كتابا عن المطبخ الفرنسي، نتولى اخراجه الفني سوية، «ويمكنك استخدام الكومبيوتر لكتابة السيناريو الذي رويته لي».

لم نكن نترك اي وقت فراغ يمر دون ان نذهب إلى السرير. قبل الخروج من البيت، واثناء العودة، وبعد الطعام، وبعد الحمام. وذات يوم وأنا عائد من العمل، قالت لي انها تدعوني إلى مطعم مكسيكي فاخر. في المطعم طرحت عليّ فكرة ان «نقيم معا بصورة دائمة» وسألت «ما رأيك»؟

«اننا مع بعض، ميشلين» أجبتها.

«صحيح، ولكننا لم نتحدث حتى الآن في بعض التفاصيل المهمة».

قلت لها بلا مبالاة وأنا أدق كأسي بكأسها «لنترك هذه المسألة حتى وقت آخر».

عبست وقالت «كما تريد».

ولكن هذه الـ«كما تريد» لم تكن من قلبها. اذ ما ان خرجنا من

المطعم وسرنا بضع خطوات حتى أخذت تقول بصوت عال «كلكم هكذا تستغلون طيبتي. لقد دعوتك إلى هذا العشاء الفاخر من اجل مناقشة علاقتنا فاذا بك ترد ببرود (لنترك المسألة إلى وقت آخر)، وقت آخر متى؟ ها؟ قل لي. الآن لا تريد الا الشراب والنيك. أليست هذه حقيقتك، ايها المشرد؟». فتحت عينيها على وسعهما ونظرت في وجهي عندما نطقت «ايها المشرد». نظرتُ اليها باستغراب. فقالت «طبعا، سألت عنك فأخبروني بانك تعيش على اوهام السينما، وتنام في الشوارع، ومع ذلك رضيت بك، بل ودعوتك إلى افخر مطعم». واصلت كلامها الذي أثار انتباه بعض المارة «كلكم هكذا تستغلونني. زوجي كان يخونني مع اقرب صديقاتي، في الوقت الذي كنت اشتغل له طوال الوقت». فقلت لها «أنت أيضا كنت تنكحين شابا مكسيكيا عندما كان زوجك يأخذ قيلولته. أنت نفسك اخبرتني بهذه القصة»!

«هذه ليست مشكلتك». قالت وصمتت.

سرنا بضع خطوات، التفتت إلي «اعطني مفتاح البيت من فضلك. تعال غدا وخذ أغراضك. آسفة انني لست عائدة إلى البيت الآن، سأكمل سهرتي».

أعطيتها المفتاح ونحن في وسط الشارع. ذهبت هي لتكمل سهرتها في حانات شارع برنسيس. واتجهت انا صوب «أوشيه دو لا أبيي» وظللت اشرب حتى الثانية. وقبل أن يغلق البار بدقائق جاءت ميشلين وطلبت كأسا. مجيد وكلود استغربا انها وقفت إلى جانبي دون أن تكلمني.

وضعت يدي في جيبي وهممت أن أدفع حسابي. فترددت للحظة، فكرت ان ادفع حسابها ولكني خشيت ردة فعلها. انتبهت إلى انني ارتدي احد القمصان التي اشترتها لي، فمن يضمن انها لن تطالب به أمام الزبائن. كنت حائرا بالفعل.

كان يقف إلى البار ياباني من الزبائن الدائمين. كان غريب الاطوار، يظل لأيام يرفض الحديث مع اي زبون. ثم يأتي في يوم آخر ويتحدث مع الجميع. ومن عادته ايضا انه اثناء حديثه مع أحد الزبائن، ينسحب في منتصف النقاش، ويذهب ليتحدث مع زبون آخر.

اقترب الياباني من ميشلين ودعاها إلى كأس ثم دخلا في حديث مرح وبدأت تتعالى قهقهات ميشلين. استغللت الفرصة وانسللت خارجا دون ان افكر للحظة ان ميشلين سوف تتبعني بل وتستدرجني لأقضي الفجر في مخفر للشرطة.

في البدء فكرت في الابتعاد عن الحي، خصوصا وان المقاهي التي اشرب فيها مغلقة، لو دانتون ورولیه أوديون وتينيسي وأطلس وبونابرت. تقاعست من السير نحو منطقتي الاوبرا أو مونبارناس، ذهبت إلى مقهى كونتي. وما هي الا لحظات حتى جاءت ميشلين محتضنة الياباني. اقتربت مني وقالت بهدوء «خذ هذا المفتاح ارجوك. اذهب وخذ اغراضك، فأنا وصديقي الياباني قررنا الزواج، ولا اريد اي متاعب».

«حسنا» قلت واخذت المفتاح، فيما راحت هي تقبل صديقها الياباني «يا حبيبي الياباني». كان بعض الزبائن ينظرون الينا ويبتسمون، بعضهم من الزبائن الدائمين وكانوا يعرفون انها من المفترض صديقتي.

ولما لم يكن البيت يبعد عن «لو كونتي» سوى مئتي متر، ذهبت فورا وبدأت بتجميع أغراضي. نظر الي الكلب من زاويته وهو يرتجف. ابتسمت له. ظل يلهث ويحدق فيّ. وقبل ان اضع قنينة الجاك دانييلز في الحقيبة، فكرت ان اشرب كأسا، فميشلين لن تأتي قبل الخامسة، هكذا خمنت. ولكن ما أن بدأت أشرب حتى أخذ الكلب ينبح، فدخلت ميشلين وصديقها الياباني. داعبت الكلب، ثم هاجت عندما رأتني جالسا والكأس بيدي.

«بيتي ليس بارا، هل تفهم»؟ حاولت سحب الكأس من يدي،

فدفعتها بقوة نحو السرير. أخذ الكلب ينبح، ورأيت الياباني يفتح أزرار بنطاله ويدخل الحمام، مغلقا الباب وراءه.

«تضربني»! صرختْ.

«انت عاهرة حقيرة». قلت بغضب

أخذت ميشلين التلفون واتصلت بالشرطة. ولم تتركني اغادر البيت الا عندما جاء رجال الشرطة، فأخبرتهم بانني رجل عنيف وارفض ترك البيت.

«أنت عاهرة، ميشلين، وأنت تعرفين ذلك.» قلت لها وأنا أخرج مع الشرطة. كان الياباني ما زال في الحمام، والكلب بدا سعيدا في حضنها.

في السيارة سألني الشرطي «هل اشتريتما كلبا جديدا»!. نظرت اليه باستغراب. فقال انه رآنا عندما جئنا إلى المخفر وأبلغنا عن ضياع الكلب. فرويت له كيف عثرنا على ذلك الكلب «البشع»!. ضحك الشرطي. ثم قال بلطف انهم مضطرون لاحتجازي حتى الساعة السابعة والنصف صباحا. فطلبت منه ان كان ممكنا ان أظل إلى الحادية عشرة «لانني أريد ان أنام قليلا».

«لا أظن»، قال الشرطي، ثم أضاف «على اية حال دوامي ينتهي في التاسعة، ولن أوقظك قبل ذلك». ولكن الشرطي وأنا، كلانا نسي، ان اليوم كان يوم أحد، وان أجراس كنيسة سان سولبيس المواجهة للمخفر، لن تدع أحدا ينام.

بعد هذه الحادثة، اخذت ميشلين تبحث عني في البارات واحيانا تتصل بمكتب الطباعة والترجمة وتسأل عني. بعد يومين أو ثلاثة، وجدتني جالسا في ساحة فورستنبيرغ. قالت لي انها كانت سكرانة وغبية، وانها نادمة، وتدين نفسها لسلوكها البدائي. وعادت تروي تجربتها القاسية مع زوجها السابق «آه، لا تعرف كم كان قاسيا معي في تلك البلاد الغريبة». ثم أشعلت سيجارة وأكملت «كنت مثلك غريبة.

اميركا لم تكن بلدي وكنت اخشى من زوجي ان يلقي بي في الشارع واصبح تماما مثلك، مشردة أو لاجئة»، وأضافت «ماذا يعني أن يكون المرء مشردا، كل واحد منا معرض لأن يصبح مشردا في اي لحظة، لا استقرار في هذه الحياة، الا في (مونبارناس) أو (بيرلاشيز)» في اشارة إلى اسمي المقبرتين الشهيرتين.

كنت أهز رأسي وأنا أستمع اليها: «كان يأتي في الليل ويلقي بنفسه في السرير ويظل يشخر حتى الصباح، طبعا كنت اعرف مضاجعاته للنادلات المكسيكيات في الظهيرة».

«ولكن يا ميشلين انت ايضا حدثتني عن مغامراتك مع المكسيكيين».

«مغامرة وحيدة مع شاب وسيم». قالت بغنج.

كانت ميشلين قد روت لي حكايتها مع شاب مكسيكي كان عشيقها قائلة: كانت فيللتنا الواسعة تقع على مبعدة سبعة كيلومترات من مكان المطعم. كان زوجي يفضل ان يقضي قيلولته في المطعم. فيما انا كنت اذهب إلى البيت عندما تنتهي وجبة الغداء اعلمني الشاب، الذي كان يعمل غاسلا للصحون، أن زوجي كان يبقى في المطعم ليقضي قيلولته في مضاجعة النادلات. فاتحته بالامر وتعاركنا كثيرا، ولكن دون جدوى. فكان لابد ان افعل مثله، في النهاية انا لست غبية إلى هذا الحد. خصوصا وانني كنت اعرف ان غاسل الصحون، الشاب القوي، مثله مثل اي مكسيكي يحلم بالنوم مع النساء الشقراوات، وكنت ألحظُ نظراته لي اثناء العمل في المطبخ. ذات يوم جئت إلى الشاب وقلت له انني تركت صندوق السيارة الخلفي مفتوحا، وطلبت منه ان يدخل فيه ويغلقه. عندما انهيت عملي وفتحت الصندوق وجدت الشاب ممددا وهو يتصبب عرقا. اعدت اغلاقه، وانطلقت نحو البيت. وهناك بدأنا، نحن ايضا نأخذ قيلولتنا، كل ظهيرة وبعد فترة علم زوجي بالامر، فطرد الشاب، وصار يراقبني محوّلا حياتي إلى جحيم.

وافقت على الرجوع إلى ميشلين هربا من جحيم الشارع. فالفترة التي قضيتها معها، كأحد سكان بولفار السان جيرمان، كانت مريحة، جعلتني أتهرب من حياة التشرد التي عشتها طوال عشر سنوات تقريبا. وقد اقنعت نفسي أن افضل طريقة للبقاء معها هي ان اخرج في الصباح كأنني موظف يخرج إلى العمل، واعود في المساء لأقضي الوقت معها، مثل اي شريكين.

لكن هذا البرنامج كان صالحا لبضعة أيام فقط. اذ بدأت أحن إلى التسكع، والشرب مع الاصدقاء. وكنت أينما أذهب تأتي ميشلين وتسهر معنا. كانت تمر على جميع المقاهي إلى ان تجدني. وفي مرات عديدة كانت تسبب لي مشاكل مع أصدقائي. كانت تقول لي «اذهب إلى البيت وسألتحق بك». فتأتي في الفجر لتروي لي بعض القصص لتثيرني. حدثت مشادات عديدة بيننا، اضطررت ان اترك البيت أكثر من مرة. كنا نتصالح وأعود إلى البيت.

في صباح أحد الأيام، وكان يوم عطلة رسمية، تسللت الشمس منذ ساعات الفجر الاولى إلى نافذتنا. استيقظت نشيطا، واخذت أداعب ميشلين التي بدأت تستيقظ قليلا قليلا وتستجيب لمداعباتي برغبة كبيرة. بعدها اقترحت عليها ان نذهب لنقضي اليوم بأكمله في فرساي «ألسنا ملكيين في النهاية» قلت لها.

«رائع» قالت «إلى فرساي، هذا شيء رائع حقا».

عملنا ساندويتشات متنوعة وأخرجت من الثلاجة قنينتين من الموسكاديه. ثم اخذنا القطار إلى فرساي. زرنا كل الامكنة مع مئات من السياح. التقطت لميشلين صورا عديدة، عند بوابة القصر، في حدائق القصر الخلابة، ثم طلبت ميشلين من سائح ياباني أن يلتقط لنا صورة مشتركة ونحن نضع نظارتين شمسيتين. عثرنا على عش تحت احدى الاشجار، قضينا فيه على الساندويتشات والموسكاديه وتمددنا. ولما حان

الغروب قلت لميشلين «سوف أؤجر قاربا صغيرا لنقضي الغروب في البحيرة». ابتسمت ميشلين وقد بدت سعيدة جدا. «سوف ترين قوة ذراعيّ». أضفت وأنا أقوم بذراعيّ بحركات من يقوم بعملية التجذيف.

ما إن نزلنا في القارب حتى قالت ميشلين وهي تتلفت يمنة ويسرة «لكن معظم الناس ذهبوا».

«السياح يحبون مشاهدة الغرف الداخلية للقصر». أجبتها.

«ما اجمل المكان» قالت ميشلين بصوت ناعم «تصور بعد كل هذه السنوات، ما زال قصر فرساي مثل الجنة. أكيد انه كان في أيام لويس السادس عشر أفضل بكثير».

هززت رأسي موافقا.

«أنت على حق. انني اشعر بفخر كوني ملكية». قالت وهي تمسد قدمي الممدودتين بين قدميها.

كانت ميشلين تتحدث وأنا أقود القارب نحو عمق البحيرة، إلى مكان تكثر فيه الاشجار حتى اصبحنا في مكان منعزل وشبه مظلم. أخذتُ ألتفتُ يمنة ويسرة، ثم أحدق في ميشلين، وأنا ابتسم. أخرجت كاميرتها والتقطت لي صورة.

«لماذا لا تتحدث» سألت.

كنت ابتسم وأنا أحدق في عينيها، تارة، وفي ذراعي وهما يلويان المجذافين في مياه بحيرة فرساي في ذلك الغروب الخلاب، تارة أخرى.

«ألا تقول شيئا»؟!.

التفتُ يمنة ويسرة، وحركت المجذاف بقوة ليدخل القارب في منطقة أكثر ظلمة.

«قل شيئا» قالت ميشلين بصوت عال. لم أجبها بل ظللت أحدق فيها.

«بماذا تفكر، ها. بماذا تفكر، قل شيئا رجاء، قل لي ماذا يدور في رأسك»؟!

نظرت في عينيها ولم أقل شيئا.

أخرجت سيجارة وأخذت تدخن. «ولكن قل شيئا. ها. بماذا تفكر، هيا قل لي بماذا تفكر»؟.

«أفكر في هيتشكوك، افكر في فيلم لهيتشكوك، يا ميشلين».

نظرت اليّ وقالت بصوت متوسل «لا، هذا غير صحيح. أنت لطيف. قلت لي انك تريد ان تكون سينمائيا، أليس كذلك؟».

أخذت ميشلين تتلفت يمنة ويسرة، فيما صار وجهها أحمر بالكامل. أحسستُ انها تكاد ان تفقد النطق تماما. واخيرا قالت «لا تخفني أرجوك، انت لطيف».

«أنت أيضا». قلت لها مبتسما. ثم طلبت منها ان تشعل لي سيجارة.

«حالا». قالت وهي تتنفس الصعداء، اشعلت السيجارة واضافت «الآن جاء دوري في التجذيف».

اخذت تجذّف بسرعة، وقالت لاهثة «ألا تعتقد انه علينا ان نعود»!

هززت رأسي موافقا.

راحت ميشلين تجذف بقوة، وكأنها تحاول النجاة من الغرق. كنت ادخن سيجارتي وانظر اليها فترسم ابتسامة كبيرة كلما التقت أعيننا. حين وصلنا إلى «الميناء» قالت ميشلين بارتباك «عليّ ان اعود إلى البيت بسرعة، نعم بسرعة، أنا متعبة جدا».

لم نتحدث في القطار اطلاقا. عندما وصلنا البيت، فتحت ميشلين الباب بسرعة، اتجهت صوب التلفون، حملته إلى الغرفة المطلة على الشارع. واغلقت الباب من الداخل، وقالت لي من النافذة الزجاجية الكبيرة التي تفصل ما بين الغرفتين.

«ارجوك، خذ اغراضك واتركني في حالي. لقد انتهت علاقتنا، انتهت انتهت».

«أورفوار ميشلين». حملت أغراضي وخرجت، ولم اسمع اي رد.

في تلك الليلة تنقلت بين المقاهي، وظللت أشرب حتى الفجر بدون ان تظهر ميشلين. لم تظهر في اليوم التالي ايضا ولا بعده. لم أرها لأكثر من شهر، حتى سمعت يوما انها تركت باريس وانتقلت مع غاسل صحون مغربي كان يعمل معها إلى مدينة اخرى حيث قررت ان تفتح مطعما خاصا بها هناك.

مغادرة باريس

كان رياض على حق بشكل ما، عندما قال لي ذات مرة «حين تكون عندك زوجة وبيت وسيارة، سوف تكتشف الوجه الحقيقي لهؤلاء الذين تسميهم أصدقاء». فعندما كنت أعيش مع ميشلين، انتقدني بعض الاصدقاء قائلين: «لم نكن نتوقع انك ستنتهي بالعيش مع تلك الطباخة» وقالوا أيضا: «كل هذه السنين الطويلة من المغامرات تنتهي مع امرأة تنظر اليك وإلى كلبها بنفس الطريقة»! وحالما انتهت علاقتي بها، بدا لي هؤلاء الاصدقاء وكأنهم يحتفلون بعودتي إلى الشارع من جديد. كانوا يدعونني كل يوم إلى هنا وهناك. وقد استغرق هذا الأمر بضعة أيام فقط، حيث وجدت نفسي مرة أخرى وحيدا في الشارع. أصدقاء آخرون لاموني لانني لم أكن ذكيا بما يكفي «حتى لو كنت لا تحبها، كان يجب ان تبقى معها إلى أن تجد فرصة أفضل ثم تهجرها»! يقولون لي ذلك، وهم لا يعرفون بأنني شخص حالم.

عليّ أن أعترف انه بعد تلك الأيام الهادئة مع ميشلين، بدأت أتوق بشكل جدي إلى مكان خاص بي. لم أعد ذلك الطفل المغامر الذي يرغب في مد الخيط لطائرته الورقية. فالطائرة كانت أمامي الآن محطمة تماما. كنت أشعر تماما مثلما شعرت وأنا أقرأ قصة سكوت فيتزجيرالد Babylon Revisited. والآن أكتشف، أيضا، انه لم يكن صدفة أبدا انني كنت أعيد قراءة تلك القصة المرة تلو الأخرى. انني أرى أمامي الآن

سكوت فيتزجيرالد واقفا في بار فندق ريتز يشرب الويسكي وهو محطم نفسيا تماما.

«لقد انتهت الحكايات، ولم يعد بإمكانك تأجيل الألم. عليك أن تواجه العقاب» قلت لنفسي وأنا أقرر الهرب من باريس.

لقد شجعني جان كلود مينغ على مغادرة باريس «لا تهتم، ستغادر السان جيرمان دي بريه لتذهب إلى سان جيرمان ليزارباجون» قال مينغ ضاحكا وأضاف «سيعجبك منزل فابيان، انه يقع في مكان هادئ في الريف، وسأزورك بين وقت وآخر. انني مثل أخيك وعليك ان تسمعني». كنا نقف في بار مقهى سان كلود وختم كلامه «أستطيع أن أستدين لك بعض النقود من مدام بياتريس».

كنت قد التقيت بجان كلود مينغ للمرة الأولى منذ بضع سنوات في نفس هذا المقهى. كان قد دعاني إلى كأس من البيرة دون أن يعرفني. «أشعر بالسعادة وأريد أن أدعوك إلى كأس، وإياك أن تعتقد بأنني لوطي»!. كان يشرب بيرته وينظر إلى رسوماته المعلقة على سياج كنيسة السان جيرمان. حين رأى احدى السيدات تقف وتتأمل أعماله المعروضة للبيع، خرج اليها مسرعا. بعد بضع دقائق عاد فرحا «لقد كانت سائحة استرالية اشترت مني لوحتين لساحة الفورستنبيرغ» ثم نظر اليّ «هل رأيت، في لحظات قليلة حصلت على ٦٠٠ فرنك، هكذا سأستطيع النوم لبضعة أيام في فندق». منذ ذلك اليوم، أصبحنا صديقين. كما انني كنت، بين وقت وآخر، أبيع له رسوماته. وتلك قصة أخرى.

«لوسي! لوسي! أين أنتِ؟ تعالي هنا يا لوسي»! كانت الجارة السبعينية تنادي من داخل حديقتها. «بونجور مدام» قلت وأنا أحمل حقيبتي وطابعتي وكنت ما أزال واقفا في مقدمة حديقة منزل فابيان، كما أسمينا المنزل الريفي. لكن السيدة العجوز دخلت منزلها دون أن ترد عليّ. كان منزل فابيان عبارة عن «بانغالو» صغير مكون من غرفتين.

غرفة كبيرة مستطيلة الشكل، وأخرى صغيرة ملحقة بها مطبخ صغير يقع في مقدمة مدخل المنزل: حيث يتكدس العديد من الحاويات البلاستيكية الفارغة، وجريكانان كبيران وطشت معدني كبير، وثلاجة قديمة بباب مكسور لا يمكن اغلاقه.

«لوسي! لوسي! أين أنت يا لوسي»؟. كنت أرتب أشيائي في المطبخ وأنا أسمع صراخ الجارة من جديد. في تلك اللحظة رأيت قطة صغيرة بيضاء جالسة في داخل الثلاجة تنظر اليّ باحتراس. «هل أنت لوسي»؟ سألتها وأنا أنحني لأمسدها، فهربت خارجة من الباب.

جلست خارج البانغالو، ورحت أنظر إلى الحديقة الخلفية الواسعة التي كانت تنبعث منها روائح كريهة. «هل المسيو پروپر هنا»؟ أبتسمت متذكرا ما كان يقوله عني أطفال الأصدقاء الذين كنت أقضي عندهم بعض الأوقات، كنت أساعد زوجاتهم في تنظيف الحمام أو المطبخ. أحد الأصدقاء قال لي أن أولاده بعد كل زيارة لي عندهم، كانوا يسألونه ان كان اشترى «دوشا» جديدا أو انه استبدل حوض المطبخ أو حنفية حوض الحمام، لأن كل شيء كان يتلألأ ويلمع ساطعا.

«إذا كنت حقا المسيو بروبر، فلماذا لا تنظف منزلك! ها أنت تملك منزلا الآن». ذهبت إلى السوبرماركت، ماشيا مسافة كيلومترين: اشتريت كمية من الطعام وأدوات التنظيف وبضعة صناديق من الشموع بمختلف الأحجام. كما كنت محظوظا جدا بوجود مجموعة من الغجر يقيمون على مبعدة ٤٠٠ متر من منزلي، وقد وافقوا على أن أملأ جريكاناتي بالمياه من حنفية السقي التي كانت تتوسط مزرعتهم المطوقة بعشرات الكارفانات الكبيرة. «خذ ما تشاء من الماء ولكن حذار أن تلمس مزروعاتنا أو تعبث بالحقل». قالوا لي.

خلال أسبوع واحد من العمل الشاق: نظفت الحديقة المحيطة بالمنزل، قضيت على الروائح العفنة، الكريهة التي كانت تنبعث من

المرحاض الذي كان يتوسط الحديقة الخلفية. كما قمت بسد البئر المهملة والمتعفنة بشكل مقزز. ويبدو انني بسبب هذه الاشغال اكتسبت احترام السيدة العجوز التي قالت لي في نهاية الاسبوع «بونجور مسيو».

التفت إلى الوراء فرأيت الجدة، كما بدأت أسميها، متكئة على السياج المعدني الفاصل بين حديقتينا.

«بونجور مدام»!

«هل تريد بعض البيض؟» سألتني بابتسامة.

«شكرا مدام» أجبت.

«ماذا تعني بـ«شكرا»، هل تريد أم لا تريد»؟

«أوه، مدام، نعم أريد بعض البيض. أنت لطيفة جدا».

جلبت لي الجدة حفنة من البيض ومدتها لي من فوق السياج، قائلة «انها من انتاج دجاجاتي». في هذه الاثناء لاحظت أن كلبها ركض نحو عمق الحديقة وبعد لحظات رأيته يقف إلى جانبي يلحس قدمي، ثم ذهب ليشمشم طابعتي.

«أوه، انه يريد أن يطبع» قالت ضاحكة واضافت «يبدو ان حيواناتي تحبك»

لقد أخبرتني انه قبل مجيئي، كان هناك بعض (السكواترز) يقيمون في هذا المنزل «كانوا قذرين جدا. وقد سرقوا عددا من دجاجاتي».

في اليوم التالي قطعت بعض أغصان أشجار البرقوق المتدلية التي جعلت الأرض مكسوة بطبقة من البرقوق المهروس والمتعفن.

«أنت بالفعل ولد طيب».

«أيتها الجدة، أنا أسمي المسيو بروبر»!.

ضحكت الجدة واقترحت عليّ أن أقطع أغصان شجر البرقوق الكبيرة الممتدة نحو حديقتها التي أحدثت نفس الفوضى في حديقتها وخصوصا

فوق سطح الكاراج الخاص بها. كانت الجدة تمسك بالسلم الخشبي الطويل فيما كنت منهمكا بقطع الأغصان. «آسف، ايتها الجدة، سوف أعود خلال دقيقة». نزلت السلم وهرعت إلى منزلي وعدت اليها مسرعا. وبعد دقائق قليلة، حصل نفس الشيء «أوه، آسف، عليّ أن أذهب بسرعة أيتها الجدة». وقد تكرر هذا الأمرعدة مرات.

«ما جرى لك، يا ولدي؟».

«أ. أ. . . أنني أكتب كتابا، في كل مرة تأتيني فكرة جديدة، أضطر إلى تسجيلها على الفور».

«لماذا لا تضع دفتر ملاحظات في جيبك»؟ سألت الجدة.

«حسنا، انني. . . انني أطبع افكاري مباشرة على الطابعة».

مرة أخرى، كان عليّ أن أنزل من فوق الشجرة بسرعة قائلا «لقد طرأت عندي فكرة جديدة، ايتها الجدة».

«اسمع، هل كنت تأكل ثمار البرقوق؟» سألتني عندما عدت.

«نعم»

«كم حبة».

«كثيرا جدا».

وبدأت الجدة تضحك «ذلك هو ما يجعلك تذهب إلى المرحاض طيلة الوقت، يا ولدي»!

نظرت اليها: «انني آسف، كنت أشعر بالخجل من مصارحتك بالأمر».

كل يوم، بعد ساعتين أو ثلاث من الحفر وازالة الاعشاب الضارة، كنت اشعل النيران في مقدمة الحديقة. أسخن المياه ثم أملأ الطشت في المطبخ، وأجلس في وسطه، أصوبن كل جسدي، واستحم. كان الطشت شبيها تماما بالطشت الذي كنت أجلس فيه وأنا صغير، عندما

كانت تغسلني أمي. انني الآن في الأربعين، يا لها من لحظات غريبة. بعد الحمام كنت أطبخ السباغيتي أو البطاطا بالنيران المشتعلة في الحديقة. ذات ظهيرة، ألقيت في النار بكل الصفحات التي كتبتها في السابق. لقد قمت بذلك بحماس كبير قائلا لنفسي: «سوف أكتب شيئا جديدا ومختلفا تماما. أريد أن أبدأ من البداية. أريد أن أكتب كتابا عن رجل كان يريد أن يكتب عن أبيه، لكنه يكتشف في النهاية انه كان يكتب عن نفسه»، يومها بدأت بكتابة قصة أسميتها «البائع المتجول والسينما».

ذات صباح استيقظت على صوت شخص كان يفك السلسلة الحديدية التي كنت أغلق بها باب الحديقة الحديدي. نظرت من خلال النافذة فرأيت جان كلود مينغ «انني أحسدك! أنت جالس هنا تستمتع باجازتك بينما أنا أقضي أوقاتي في بولفار سان جيرمان دون أن يشتري أحد رسوماتي». قال مينغ، الذي جلب لي معه بعض علب الطعام وكمية من المعكرونة الصينية وقنينتين من نبيذ الكوت دو رون. ثم أخرج جهاز راديو صغير من جيبه قال انه سيتركه واضاف «ولأنني لا أريدك أن تكون بعيدا عن هوليوود، ها هي هديتي لك» وفتح كيسا كبيرا وأخرج منه قطعة من المقوى الصلبة. كانت هذه المقوى عبارة عن صورة نصفية لمارلين مونرو، مثبتة فيها يد متحركة لكي تبدو عند حركتها، كأنها تلوح للجماهير. فورا وضعت الصورة لتسد الفراغ الموجود في النافذة الزجاجية المحطمة. قال مينغ «عندما تلوح لك مارلين مونرو، يعني هناك ريح في الخارج». وقد أخذت أفتح عيني وأغمضهما على مارلين مونرو صباح ومساء كل يوم.

قالت لي الجدة، حين غادر مينغ «اعتقد انني رأيته في السابق. انني أتذكره، كان يستخدم جهاز الراديو طوال الوقت». كانت الجدة محقة. لم يكن مينغ يقدر على العيش بدون راديو. كان يستخدمه أينما ذهب. وكان يحب في الليل الاستماع إلى البرامج الكوميدية المضحكة. مرات

عديدة رأيته يضحك وهو نائم. ذات مرة أغلقت الراديو معتقدا انه كان نائما، فصرخ على الفور «اتركه! انني أستمع».

«من أي بلد هو» سألتني الجدة.

«انه نصف فيتنامي ونصف فرنسي. كان والده ضابطا فرنسيا. انه رسام جيد، يبيع رسوماته في الشوارع. انه بلا منزل، يقيم في الفنادق أحيانا، وفي الشوارع حين لا يبيع أيا من رسومه».

كان مينغ ذات يوم معلما للفنون في مدرسة ابتدائية في مرسيليا، لكنه كان يحلم دائما بالعيش في باريس. عندما سألته مرة عن عائلته، أخبرني «لا يرغبون في رؤيتي، لا يحبون طريقة حياتي، ويعتقدون انني جلبت لهم العار».

كان يوما حارا عندما فتحت عيني لأجد أفعى على الأرض قرب سريري. كان طولها مترا تقريبا، وكانت تنظر الي. خفت جدا ولم استطع التحرك لبعض الوقت. لكني فجأة انتزعت قنينة بيرة فارغة كانت قرب رأسي وقذفتها نحو الأفعى، التي انزلقت إلى الغرفة الاخرى. لقد سألت نفسي ان كانت هذه الأفعى لا تزال تطاردني منذ طفولتي. قبل يوم واحد فقط كنت أكتب فصلا عن الأفعى التي قتلتها حين كنت صغيرا. ومنذ ظهور هذه الأفعى لم أعد أجرؤ على النوم عاريا. كان عليّ أن أرتدي كل ثيابي وأضع جواربي وأغطي نفسي ببطانية سميكة رغم الحر الشديد، تماما كما فعلت في طفولتي. لكن اللحظات الصعبة التي بدأت أواجهها، الآن، كانت عند الذهاب إلى المرحاض الواقع في وسط الحديقة الخلفية. كنت أفتح باب المرحاض الخشبي بعصا طويلة، ثم أنظر إلى حفرة المرحاض لأرى ان كانت الأفعى مختبئة هناك. كنت أقضي أموري واقفا مرتعشا من شدة الخوف، متوقعا أن تقفز الأفعى عليّ في أي لحظة. حقا، لقد عذبتني تلك الأفعى.

بعد أسبوعين أو ثلاثة، ذهبت إلى كاراج لاصلاح اللوريات، كان

يبعد كيلومترا واحدا عن منزلي، مفترضا أن لابد أن يكون عندهم مرحاض: «مش مشكلة، مسيو» قال لي مدير الكاراج، حين أخبرته عن مكان أقامتي وعن قصة الأفعى، وعن امكانية أن أستخدم مرحاض الكاراج.

ذات مرة وأنا في المرحاض سمعت اثنين من العمال الميكانيكيين يتحدثان. أحدهما يقول للآخر «هل لك أن تتصور هذا الصعلوك الأميركي الذي ترك بلاده وجاء ليعيش في قريتنا الصغيرة. انه أمر غريب جدا، أليس كذلك»؟ لقد ضحكتُ في سري: «انهم يعتقدون أنني أميركي. ربما بسبب لهجتي». لذلك أخذت أتعمد أن أجعل لهجتي تبدو أكثر أميركية. حتى انني قلت لهم ذات مرة: «آه، نيويورك مدينة مضجرة. انني أعشق هذه القرية». وأتذكر أيضا انني سمعت مدير الكاراج يقول لبعض الميكانيكيين «صديقنا الصعلوك الأميركي خائف من استخدام المرحاض في منزله لأن هناك أفعى، يعتقد انها ستقفز إلى مؤخرته!» فأخذوا جميعا يضحكون، وحين رآوني خارجا من المرحاض، حبسوا ضحكتهم، وتظاهروا بانهم كانوا يعملون.

كنت أجلس في الحديقة، أطبع في كتابي الجديد بحماس وسعادة حتى نفدت ذخيرتي من الطعام. لا سباغيتي ولا بطاطا. لا سكر ولا خبز، ولا أي نوع من المعلبات. أنهيت كل البرقوق وحتى العنب الحامض أكلته. بعد يومين من الجوع، تذكرت أنني كنت قد شاهدت من خلال نافذة مرحاض كاراج اللوريات، حقلا واسعا للذرة.

كانت ليلة مقمرة، حين أخذت أملأ غطاء مخدتي، الذي استخدمته ككيس، بأكواز الذرة الناضجة. في تلك الليلة تذكرت الممثل كيفن كوستنر في فيلم Fields of Dreams فأخذت أقلده، اذ ظللت صامتا لبضع دقائق، قائلا لنفسي: «من يدري، ربما أنا أيضا سأسمع ذلك الصوت الذي سمعه كيفن كوستنر في الفيلم: If you buil it he will come.

لقد عشت من الذرة إلى أن حصدوا الحقل.

كنت جالسا في الحديقة أشرب النبيذ الأحمر وأقلي اللحم المفروم مع البصل والثوم وبعض التوابل الأخرى محاولا أن أصنع سباغيتي بطريقة صحيحة.

«يا لها من رائحة طيبة». قالت الجدة وهي تتكئ على سياج الحديقة.

«سأكون سعيدا جدا إذا انضممت إلى مائدتي، ايتها الجدة».

«ما هي المناسبة»؟

«سأخبرك فيما بعد».

تطلعت الجدة إلى السماء: «داكور، لكني بحاجة إلى جلب كنزتي الصوفية» وأضافت «هل عندك صحون؟».

«غير لائقة، في الحقيقة».

«سأجلب معي بعض الصحون والكؤوس الأنيقة».

جلسنا حول المائدة التي كانت عبارة عن لوح خشبي سميك منشور من جذع شجرة ضخمة.

«كيف تسير حال الكتابة»؟

«حسن جدا. قريبا سأنتهي من كتابة قصة «البائع المتجول والسينما»».

«هذا شيء رائع».

وحين بدأنا نأكل سألتني أين تعلمت الطبخ «لأن الطعام لذيذ جدا.» ثم سألتني إن كنا نأكل السباغيتي في بلادي.

«في الحقيقة، كنا نأكل المعكرونة أحيانا، ايتها الجدة».

بعد لحظات من الصمت، قالت الجدة «أنت ولد طيب، هل يمكنني أن أسأل ما هو دينك»؟

نظرت اليها وقلت: «انني في الاربعين من عمري، ايتها الجدة. لقد عشت حياة صعبة جدا، وعرفت فيها العديد من الناس اللطفاء، وأن أفضل أصدقائي ينتمون إلى أديان مختلفة، وحين أكون مع أي واحد منهم، أشعر أنني أشاركه نفس الدين».

عندما رأيتها تبتسم، أضفتُ «أمي كانت تقول لي بأنني مثل الطماطم».

«لماذا الطماطم»؟ هتفت الجدة ضاحكة

«أعتقد أنها كانت تعني أنني ناعم مثل حبة الطماطم ويمكنني أيضا، أن أتدحرج مع الأيام».

ضحكت الجدة مرة أخرى وقالت «ولكنك حتى الآن لم تخبرني بمناسبة هذه الوليمة»!

«أعتقد ان الله يحبني، ايتها الجدة». قلت وتابعت «الثلاثة أيام لم يكن عندي أي شيء على الاطلاق لآكله. لقد أردت أن أعود إلى باريس، ولكني قلت لنفسي يجب أن أبقى هنا إلى أن أنجز كتابي. منذ يومين فقط أخذت المسحاة وذهبت للعمل في الحديقة، بعد ساعتين من الحفر، هل تعرفين ماذا وجدت، أيتها الجدة»؟

«ماذا وجدت»؟ سألت.

«لقد وجدت بعض الأسنان الذهبية. فأخذتها على الفور إلى باريس وبعتها هناك».

ظلت الجدة تضحك وتضحك: «انه كلبي! . . . كلبي هو الذي يحبك كثيرا» قالت الجدة وهي تأخذ رشفة من كأس النبيذ، وعادت تضحك مرة أخرى «لقد أمضيت وقتا طويلا أبحث عن تلك الأسنان التي يبدو أن كلبي دفنها في حديقتك».

بعد أربعة أيام، فيما كنت عائدا من رحلتي العادية إلى كاراج

اللوريات، وجدت شابا أشقر في الثلاثين من عمره، ببسطار عسكري، جالسا على كرسي في الحديقة. كان مهمل الشكل وقذرا، يشرب النبيذ مباشرة من القنينة.

«انه منزل جد نظيف، الآن».

«من أنت»؟

«كنت ساكنا هنا في السابق. أنا أعرف فابيان».

«ولكنني أنا من يقيم هنا الآن، مسيو. أنت لا تملك الحق بدخول المنزل».

«اسمي ريمون وأنا فرنسي».

«حسنا، مسيو ريمون، عليك أن تغادر فورا».

«سوف أذهب إلى البوليس، أيها الأجنبي»..

«بامكانك ان تفعل ذلك. انهم يعلمون بأقامتي هنا، وأنا مسنود من الجيران أيضا. حتى بريدي يأتيني إلى هنا، أرجوك غادر المكان حالا».

«سأغادر الآن، ولكن سوف ترى...» قال ريمون وهو ينهض خارجا وقد رمقني بنظرة حاقدة.

منذ ذلك اليوم، لم أعد قادرا على الاستمتاع بسماع الموسيقى على ضوء الشموع، كما كنت أفعل عادة. كان عليّ أن أغلق الراديو لأصغي لضجيج الخارج. كنت أشعل شمعة واحدة وأظل أنظر من خلال النافذة، حيث كانت مارلين مونرو تنظر اليّ ملوحة. كنت أتساءل متى سيعود هذا المدعو ريمون ليهاجمني. سمعت كلب الجدة ينبح، وبعد لحظات تناهت إلى سمعي خشخشة في السلسلة الحديدية في باب الحديقة. خرجت لأتفقد الأمر فوجدت ريمون ومعه أثنان من عصابته، كانوا يدخنون السجائر وكل منهم يحمل قنينة نبيذ «ها.. ما زلت مستيقظا...» صرخ ريمون: «لن ندعك تنام! إلى اللقاء...». ذهبوا

وظللت يقظا بقية الليل. نظرت إلى المسحاة التي كنت أضعها بالقرب من سريري في حال مجيء الأفعى. لكنها الآن من أجل ريمون أيضا. ولأنني لست محاربا جيدا، فقد أخذت أتخيل معركة مع هؤلاء الشباب: ضربت ريمون بالمسحاة فسقط رأسه متحطما على الأرض. ضربت الآخر في بطنه فمزقت أحشاءه، ولا أعرف أين ضربت الثالث. لقد تخيلت حتى عملية دفنهم جميعا في الحديقة. عندما فتحت عينيّ في الصباح، وجدت نفسي ممددا في السرير بدون أي غطاء. نظرت إلى النافذة، فكانت مارلين مونرو تلوح لي.

لقد جعل ريمون وعصابته حياتي، في منزل فابيان، أشبه بالجحيم. (تصلح لأن تكون موضوعا لكتاب). لقد واصلوا المجيء كل ليلة، كانوا يحطمون القناني الفارغة فوق الممشى الكونكريتي عند مدخل الحديقة، كما كانوا يلقون ببعض القناني فوق سقف البانغالو، والحجارة نحو النوافذ. وحين فكرت انهم ربما يأتون في النهار، قمت بتغيير طريقة جلوسي المعتادة في الحديقة أثناء الرقن على الطابعة، بحيث صرت أجلس في مواجهة سياج الحديقة فيما كنت في السابق أعطي ظهري للطريق العام.

لقد أنهيت قصة الطفولة، كما أنتهت النقود أيضا. كان ذلك في بداية شهر أكتوبر، عندما ذهبت إلى محطة القطار للاتصال ببعض الاصدقاء تلفونيا. في طريق العودة، كنت أفكر ان أفضل شيء أقوم به هو مغادرة منزل فابيان في اليوم التالي، دون أن أعرف انني سأغادره في اليوم نفسه.

لقد وجدت طابعتي ملقاة على الأرض في المطبخ، كانت مفاتيحها محطمة وثمة قطع زجاجية داخل الآلة، كميات من النبيذ الأحمر مراقة في كل مكان. تفقدت غرفة النوم: الجريكانان المليئان بالمياه كانا أفرغا تماما فوق الفراش والبطانيات ممزقة. ملصقات الافلام والصور التي

كانت معلقة على الحيطان مقطعة وملقاة على الأرض وهي مدعوسة بالأحذية. مارلين مونرو اختفت من النافذة. أوراقي ومخطوطة الكتاب اختفت من مكانها. حتى ملابسي الشخصية كانت مقطعة ومنقعة بالنبيذ الأحمر، وبشيء يشبه رائحة البول.

«أنت محظوظ لانك لم تكن هنا. كانوا أربعة رجال، انهم خطرون جدا». قالت الجدة عندما رأتني واقفا في الحديقة.

«انني مجرد رجل بلا منزل، أيتها الجدة. لا أبحث عن المشاكل. أنا عائد إلى باريس».

بعد ساعة من تلك الصدمة، حاولت التفكير فيما يجب أن أقوم به. بحثت عن مخطوطة كتابي ولكنني لم أجد شيئا. في تلك اللحظة قررت أن أترك كل شيء صارخا. «لا شيء أملكه الآن. اختفت مخطوطة الكتاب. أختفت طابعة الايريكا». كانت هذه أول مرة أكون فيها بلا حقيبة وبلا طابعة.

«لوسي! لوسي!» ظلت الجدة تنادي في الخارج. بعدها سمعتُ «مياو! مياو!» قادمة من المطبخ. «مياو! مياو!» كان الصوت قادما من الثلاجة القديمة الموضوعة في الزاوية. نظرت إلى داخل الثلاجة فوجدت صورة مارلين مونرو، ووجدت مخطوطة «البائع المتجول والسينما». ولم تكن هناك لوسي، أخذتهما وتركت المكان..

عندما التفت إلى الوراء، لألوح للجدة مودعا، كانت واقفة في الحديقة وكانت لوسي بين ذراعيها.

العودة إلى باريس

جلس عكس السير

نفث دخان سيجارته بقوة

رأى اختلاط الدخان بالزجاج

سفر الأشياء

سرعة القطار،

والمطر

آه، كم سنة تودع عيناه الآن

فيما كتفاه تشقان الريح بلا معرفة.

التفت حين شعرت بيد تلمس كتفي اليسرى فرأيتُ رجلا في السبعين من عمره، بشعر أبيض ممشوط للوراء، كان يبتسم وكانت سيجارة بين شفتيه الخمريتين. فهمت انه كان يطلب مني أشعال سيجارته. تبادلنا الابتسامات. كان يشبه أبي تماما. أردت أن أكلمه لأعرف ان كان يستطيع الكلام.

كنت جالسا في الطابق العلوي من القطار ناظرا نحو الغابة التي كنا نمر من خلالها. عادت اليد لتلمسني مرة أخرى، التفت لأرى الرجل يحمل في يده، الممدودة أمامي، تفاحة خضراء بحجم كرة التنس. أشار لي برأسه لآخذها. حين أخذت التفاحة أبتسم وغادر المقصورة.

عندما توقف القطار في المحطة القادمة، نظرت من النافذة فرأيت طائرا أبيض مضطجعا ميتا عند جذع شجرة. ظللت أحدق فيه وأنا أدوّر التفاحة بين راحتي إلى أن تحرك القطار. بعد لحظات قليلة رأيت طائرا أبيض يطير، ورويدا رويدا كان يقترب من نافذتي كما لو كان يريد أن يلمسها. ثم طار بعيدا.

البائع المتجول والسينما

قصة طفولة

مهداة لذكرى المخرج السينمائي الاميركي
جون فورد

الكلمات الانكليزية هي عناوين
لبعض أفلام جون فورد

في ذلك المساء، عندما خرجت من صالة السينما كان الحزن يأكل قلبي الصغير، وعيناي كانتا تذرفان الدموع. دلفت زقاقاً ضيقاً وشبه مظلم، ورحتُ أضرب بحذائي الرياضي كل ما يصادفني في طريقي من أحجار وأوساخ، صارخاً بغضب «كيف يموت البطل؟ كيف يموت البطل؟».

كنتُ أعرف أن موته كان «سينمائياً»، مثلما كنت أعرف ما معنى «مُخرج» و«سيناريست» رغم سنواتي الثماني، اذ أن قرياقوس كان قد علمني ألفباء صناعة الأفلام، وحفظني الأسماء الحقيقية لنجوم هوليوود وتواريخ ميلادهم ونوادر كثيرة عن حياتهم. كان يقرأ ذلك عليّ من المجلات الأميركية المختصة، التي كنت أتصفحها طويلاً ثم أسأل: «من أين تأتيك كل هذه المجلات يا قرياقوس؟». كان يبتسم ويرد قائلا: «AIR MAIL». وأستطيع القول، أن ما كان يقرؤه عليّ قرياقوس نفعني كثيراً، ومنذ البدء.

ذات ظهيرة، أوقفني رفيق الهندي، مدير سينما «الحبانية» وسألني مازحاً «هيي جويي، هل تعرف ما هو الاسم الحقيقي للممثل جون واين؟». «طبعا»، أجبت بسرعة وأضفت «ماريون مايكل موريسون، وأن اصدقاءه ينادونه دوك». ولم أقف عند هذا الحد، بل سردت على مدير

السينما كيف أصبح جون واين ممثلاً، شارحا: «كان جون واين يعمل في الاستديو كمساعد للاكسسوار، حين تقدم منه المخرج العبقري جون فورد ووضع بين يديه قصة لفيلم جديد، وقال له (هيي موريسون، إقرأ هذه القصة واخبرني من تراه يصلح لدور البطولة). بعد أيام عاد جون واين، يقول وهو يحك رأسه (مستر فورد، في الحقيقة، انني لا أرى ثمة من هو أفضل من لويد نولان). عندها ضحك جون فورد وقال ساخراً (يا لك من غبي، في الحقيقة أنتَ من سيمثل الدور(».

ضحك رفيق الهندي وكفه اليمنى معلّقة عند حاجبيه، تقيان عينيه من أشعة الشمس وقال «تستطيع أن تدخل إلى السينما مجاناً لمدة ثلاثة أيام». وقبل أن ابتعد كثيراً سمعته يقول «ولكنك لم تقل لي اسم ذلك الفيلم؟» «STAGECOACH» رددت بصوت عال، وأنا أحني رأسي، ناظراً في المستطيلات التي تطرز قميصي تماما كما يفعل قرياقوس.

عندما وصلت إلى الشارع العريض، كان الحزن ما زال يؤلمني ويكاد يقطع أنفاسي «كيف يموت البطل؟» تناولت حصاة كبيرة وصوبتها نحو مصباح الشارع، حيثُ مئات من البق تتراقص حول دائرة الضوء. برمية واحدة توسعت مساحة الظلام وتشردت كرات البق نحو مراكز ضوء أخرى، دون أن يخطر ببالي أن أمي هي التي ستجعلني أنسى «موت البطل»، فما أن وصلت إلى البيت حتى هجمت عليّ وبدأت تضربني بقسوة، ثم صرخت، بعد أن تركت آثار أسنانها في ذراعيّ وكتفيّ «ابن الكلب، كانك ابن السينما وليس ابني». فعلق قرياقوس، الذي كان يشرب الشاي ويداعب تفاحة كانت بين يديه «لقد وُلِد جويي ليكون سينمائياً MY DARLING CLEMENTINE». وقال علي، ابن نصرت شاه «ان جويي يشتغل طوال النهار، ولا يطلب سوى ثمن تذكرة سينما، فماذا تريدينه أن يفعل أكثر من ذلك؟».

في تلك اللحظة نظرتُ إلى أمي وقد لاحظتُ في عينيها المعنى

العميق لتأنيب الذات. «أعرف أنه يساعدنا، ولكنه بدأ يكبر ولا يزال غير مسجل في المدرسة». قالت أمي وهي تلتفت إلى قرياقوس وعلي، اللذين كانا جالسين عند عتبة البيت المضاءة بالفانوس، مضيفة بنبرة حزينة «ان هذا يؤلمني، وانتما تعرفان أن أباه لا يأبه لمثل هذه الضرورات». أطلق قرياقوس قهقهاته عاليا دون أن يفكر بالجيران النائمين فوق أسطح المنازل: «يمكنك أن تحزني كما تشائين يا أختي كرجيّه، ولكن ليس على مصير جويي». ثم صوّب عينيه في ظلام الزقاق القريب وأضاف «سيكبر ولدك وسيسافر إلى هوليوود وسنراه هنا، على شاشات سينما الحبانية». ثم التفت نحويّ هازاً رأسه ويداه تداعبان التفاحة «إنني متأكد، إنني متأكد».

كنت جالساً على الأرض الترابية، أبصق في راحة يديّ وأمسح بهما الآثار التي خلفتها أسنان أمي في جسدي، ثم أنفخ فيها محاولاً أن أهدئ الحروق التي تسببها حرارة الطقس والعرق المتصبب من جسدي. طوال كل ذلك الوقت، لا أعتقد انني أزحت عينيّ عن تفاحة قرياقوس، كانت خضراء وبحجم كرة التنس. اشتهيتها، وأعتقد انني لو كنت قد حصلت عليها لربما أنستني بعض أوجاعي.

التفتت أمي اليّ وقالت «روح يا ابني، روح للبار واجلب الاخرس الاطرش قبل أن ينفق اجرته الاسبوعية».

«انه شغيل». قال علي.

«STRONG BOY» قال قرياقوس.

«لكنني لا أراه كثيرا» قالت أمي.

سمعتهم يقولون، وأنا أبتعد عن البيت حزيناً، حزيناً جداً، حتى انني عندما دخلت البار وسط الضجيج والدخان، وقفت أمام أبي، الذي كان يشرب مع يوشيا البقال الذي تستدين منه أمي كلما اكتشفت في الصباحات الباكرة جيوب أبي فارغة، لم أدر ماذا أقول. لاحظ أبي حزني

فضمني إلى صدره مداعباً شعري الذي كان يغطي جبيني وعينيّ. سألني باشارة من يده «ماذا هناك؟». مسحت دموعي: رفعت ذراعي اليمنى مبرزاً عضلاتي، قرّبت كفي اليمنى من عينيّ وهززتها يمنة ويسرة، أطبقت راحتيّ على بعضهما وأسندت عليهما رأسي. ففهم أبي انني أشير إلى موت بطل الصور المتحركة. داعبني بأن ضربَ على مؤخرتي وراح يبحث بين قناني البيرة الكبيرة المكدسة على الطاولة، حتى عثرَ على واحدة فيها أقل من النصف، قدمها لي مشيراً بأن أجرعها مرة واحدة. رحتُ أنزل «اللاغر» في معدتي وأنظر اليه، وهو يبادلني نظرات التحدي، ولمّا أنهيت القنينة صفق لي اعجابا: وضع أبهامه اليسرى في فمه وجرّها بسرعة محدثاً جلبة كتلك التي نسمعها عند فتح قنينة من الشامبانيا. لحظتها نسيت تماما «موت البطل» وأنا أبحث بين قناني البيرة شارباً ما فيها واحدة تلو الأخرى. كان أبي يمزج قهقهاته بنظرات الاعجاب، بينما بدا يوشيا البقال حائراً، يقلّب عينيه الماكرتين نحو أبي تارة، وتارة صوبي.

كان لا بد ونحن خارجان من البار، أن نقوم بلعبتنا المفضلة، بل بالأحرى، لعبة أبي المفضلة: التبوّل أثناء السير. جالَ بنظره في أرجاء المكان، وحين تأكد من خلوهِ أطلق اشارة البدء، فأخرج كلّ منّا ذكره وشرّعنا نسير ونتبوّل، والفائز هو من يستطيع التبول أطول مسافة ممكنة، راسماً خطا، يستحسن أن يكون مستقيماً. بعد لحظات من بدء السباق، شعرت بأنني أسير لوحدي، ألتفت إلى الوراء فوجدت أبي على مبعدة عشرين متراً تقريبا. غمرني الفرح، اذ انها المرة الاولى التي أفوز فيها. وهنا تأكد لي صحة كلام شمشون، أخي الكبير «انتصاراته المتواصلة انما تتم بفضل البيرة!». لكن مشاعر الفرح سرعان ما تحولت إلى دهشة عندما رأيت أبي ممسكاً بذكرهِ وهو يدور حول نفسه متبولاً. أغلقت بنطالي مقترباً شيئاً فشيئاً محدقاً في الدوائر المتداخلة التي كان يرسمها على أسفلت الشارع. تملكتني الحيرة، وأنا أميل برأسي يمنة ويسرة. في

البدء ظننتها مجرد دوائر عشوائية، لكنني، بعد لحظات وجدت انها أقرب إلى شكل الوردة. نظرت اليه: جمعتُ أصابع يدي اليسرى وقرّبتها من أنفي، سحبتُ نفساً عميقاً، فاتحاً عينيّ بشهية، ومبتسماً: «أهي وردة؟». هز رأسه نافياً وهو يزرر بنطاله. سحبني من يدي نحو مصباح الشارع. عدّل من وقفتي بحيث جعل من ظلّي الساقط على الاسفلت يبدو كحارس للجانب الأيمن من (دوائره) ووقف هو، جاعلاً من ظلّه حارساً للجانب الأيسر. طلب مني أن أفعل مثل ذلك الحيوان: لوى رقبته، فتح فمه بأقصى ما يستطيع، مدّ كفه مفتوحة وهزها يمنة ويسرة. ففهمت انه يشير إلى الأسد الذي نراه في مقدمة أفلام شركة ميترو غولدوين ماير. لقد بدونا مثل أسدين يحرسان الدوائر التي رسمها. ثم سألني ان كنت قد فهمتُ (الميزانسين) هززت رأسي بنعم، وأنا أمسك ذراعه اليسرى، حيث الوشم الاخضر الذي يمثل الأسد ووحيد القرن حارسي تاج بريطانيا العظمى.

عندما تذكرت انني طالما سمعتُ أمي تردد بسخرية كلما أغضبها أبي «مخبل، مغرم بامرأة لا تشغّله عندها حتى منظف مراحيض» كانت ريح حزيران الساخنة قد محت الكثير من ملامح «التاج» الذي رسمه أبي، حتى بدا مثل أربع سردينات نائمات على أسفلت الشارع.

دسّ أبي بجسده، وهو يلهث، جنب أمي، التي أدارت له ظهرها، قائلة بتذمر «إيمن شاقلّي آلاها. ليبَيِّن مَيتن من ريخِت أوا لالا»[1]. بينما وجدتُ لنفسي مكاناً بين أختي شميران (كيم نوفاك العراق، كما كان يسميها قرياقوس)، وبين أخي الصغير روبن، ورحتُ أنظر إلى سماء الحبانية الصافية. وضعتُ يديّ على

(١) إيمن شاقلّي آلاها. ليبَيِّن مَيتن من ريخِت أوا لالا: «متى يأخذني الله. لا أريد أن أموت من رائحة هذا الاخرس الاطرش».

صدري، وبخشوع قلتُ «يا رب، يا مسيح، أقسم انني لن أكون إلا سينمائياً» وعندما أردت أن أغمض عينيّ، أدركت انني نسيتُ شيئاً، فأضفت، بخشوع أيضاً: «يا رب، يا مسيح، أقسم انني لن آكل التفاح أبداً». ثم أغمضت عينيّ واضطجعت على جانبي الأيسر. لحظتها مدّت شميران ذراعها وهي نائمة لتغطي كتفيّ. شممت رائحتها الطيبة، وتذكرت انها سألتني ذات يوم «كيف ترى عطري يا أخي الصغير؟»، يومها سحبتُ نفساً عميقاً، زاد من طولي شبرين وأجبتها «انه رائع مثل السينما».

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، عندما امتدت الكف ذات الاصابع الثلاث وأيقظتني من نومي. فركت عينيّ بظاهر كفيّ ورسمت ابتسامة كبيرة أدهشت صاحب الاصابع الثلاث، الذي كان واقفاً عند رأسي. اندهش نصرت شاه لأنه يعرف، إن لم تخنه ذاكرته (فركَ جبينه للحظات) انه كان قد أيقظني أكثر من أربعمائة فجرٍ، ولم أبتسم ولو مرة واحدة. بل كثيراً ما كان يضطر أن يمد اصابعه الثلاث لتنتشلني من فراشي وتوقفني على قدميّ، وهو يكرر «هيا أنهض، ستسخن الشمس ونخسر الملح»، وكنتُ أرد عليه وأنا أنظر إلى السماء «ولكنها لم تطلع بعد».

كنتُ في مزرعة كبيرة مليئة بعناقيد العنب الأحمر النابتة في بحيرة حمراء، مياهها تغلي وتبعث بخاراً أحمر. كنتُ معلقاً بألياف العنب أحاول اجتياز البحيرة نحو اليابسة. كنت أمسك بيدي اليمنى عنقودا فيظهر بغتة سيف طويل ولماع يقطع الألياف، فتنزف دماً ساخناً وتصرخ «آه» فأضطر لأن أمسك بعنقود آخر بيديْ اليسرى، فيظهر السيف بسرعة البرق ويقطع الألياف ثانية، أمد يدي اليمنى ويظهر السيف وهكذا حتى هدّني التعب فرحتُ أبكي وأنا أرى الفقاعات التي يحدثها غليان البحيرة الحمراء، ترتفع وترتفع وتكاد تلمس جسدي النحيل.

في تلك اللحظة كان نصرت شاه قد مدّ كفه اليسرى ذات الاصابع

الثلاث وأخرجني من مزرعة العنب الاحمر، وجعلني أستيقظ مبتسماً، للمرة الاولى. ولم أفكر أن أسأل قرياقوس عن مغزى حلمي، لأنني كنت أعرف انه سيقول لي: «THE GRAPES OF WRATH».

أسند نصرت شاه السلم الخشبي على جدار البيت، وصعد إلى السطح متكئاً على قدمه اليسرى العرجاء، ليوقظ ولديه علي وحسين. أما أنا فقد أيقظت أبي، ضارباً بسبابتي اليمنى على رسغي الأيسر «انه وقت العمل». مسح أبي جبينه وهو يشعر بصداع هائل في رأسه ثم، وبحركة مباغتة أرسل ركلة نحو مؤخرتي مداعباً، وقهقهاته تشق هدوء الفجر. فتحت أمي عينيها ونظرت اليه: فركت إصبعها على أيمن جبينها، ونفخت في كفها «انك بلا عقل». فعاود أبي قهقهاته، منحنياً ليطبع قبلة على رأسها، وواضعاً بعض القطع النقدية تحت مخدتها لكن أمي، التي كانت تعرف انه صرفَ معظم اجرته في البار، سحبت النقود ودون أن تعدّها، رمتها في الهواء، فأخذ أبي سطل الماء وضرب بقدمه مؤخرتها، وهددها مازحاً بسكب الماء عليها. «أشقلّي آلاها، أُشقلّي»[1] قالت وهي تدفن رأسها في المخدة، ومع ذلك أخذ أبي حفنة من ماء السطل وسكبها على ساقيها العاريتين، فنظرت اليه بغضب وبعينين نصف مغمضتين، لكنه تجاهل غضبها بأن صنع لها قبلة أطلقها في الهواء، وهو يبتعد في طريقه إلى المخبز.

كان أبي في الثامنة والخمسين، وكانت أمي في الثانية والثلاثين. كان يلعب معها مثلما كان يلعب معنا.

قطعنا الطريق المرتفع المحاذي لسلسلة الهضاب الواقعة على الضفة اليسرى من نهر الحبانية، ثم انحدرنا نحو المستنقعات. نظر علي إلى

---

(١) أُشقلّي آلاها، أُشقلّي: خذني يا الهي، خذني...

الشمس التي بدأت ترسل أضواءها الاولى، وقال «عندنا الكثير من الوقت».

«لكن أباك لا يكف عن ترديد: ستسخن الشمس، ستسخن الشمس» أجبته بتلقائية.

«معك حق، جويي، وأبي أيضا على حق». قال علي مبستما وأضاف «لقد كبرت يا جويي، وصرت تعرف كم من الملح نحتاج لحفظ الثلج من شمس الصيف».

هززت رأسي متفهماً، ثم خلعت حذائي الرياضي وألقيته جانباً. رفعت أكمام قميصي وبنطالي، ونزلت إلى المستنقع، كانت ساقاي النحيلتان تكسران غشاء الملح المتجمد على سطح الماء، مثل الزجاج الرملي. دفعت بمنخلي الاصفر في عمق المياه المالحة وبعد لحظات رفعته، مراقباً المياه المتساقطة من ثقوب المنخل الذي بدا أبيض بحبات الملح البيضاء اللامعة. نظر حسين إلى علي وقال وهما ينزلان إلى المياه المالحة: «أعرف سر نشاط هذا الملعون، اليوم».

«ماذا هناك يا جويي؟» سأل علي.

كنتُ منحنياً، أنتظر منخلي الغاطس في الماء حتى يمتلئ بالملح، عندما نظرت إلى علي مغمضاً عيني اليسرى بسبب الشمس التي بدأت تظهر من خلف الهضاب، فقلت مبتسما «لقد وعدني أبوك بتسجيلي في المدرسة، في السنة القادمة».

«ممتاز، أنت ذكي ويجب أن تذهب إلى المدرسة». قال علي.

«أعرف». قلت وأنا منهمك بعملي. وأضفت «كل أصدقائي في المدرسة ما عداي، أريد أن أتعلم القراءة والكتابة لكي أصنع الأفلام».

«أحسنت». قال حسين، ثم سألني مازحاً: «في أي سنة نحن الآن، جويي؟».

«ألف وتسعمائة وأربعة وستين، وفي سنة ألف وتسعمائة وخمسة وستين سأذهب إلى المدرسة». أجبت بسرعة وفرح، وأنا أبعد بظاهر كفي شعري الطويل عن وجهي، فرأيتهما يضحكان. كانت الشمس تلفح وجهي المتصبب عرقاً، وكنت ألعق شفتي وأطراف فمي المالحة وأبصق خارج المستنقع.

«هيي، جويي، اسمع، ما قلته صحيح، ولكن يجب أن تعرف بأنك ستذهب إلى المدرسة في هذه السنة». قال علي.

«لا أعرف». قلت بلا مبالاة. «أبوك هو الذي قال لي في السنة القادمة».

«انه يقصد في السنة الدراسية القادمة، مثلا، نحن الآن في شهر حزيران وبعد أيام ستنتهي سنة دراسية، وتليها ثلاثة اشهر من العطلة، وفي ايلول تبدأ السنة الدراسية الجديدة، ونحن لم نزل في سنة ألف وتسعمائة وأربعة وستين. هل فهمت؟».

لم أقل شيئاً.

ثلاثة مناخل كانت تندفع في أعماق المستنقع وتستخرج الملح الذي كان يتكوم قليلا قليلا بما يشبه تلالا صغيرة من حبات الملح التي كانت تتلألأ تحت نور الشمس الآخذة بالالتهاب. وبين لحظة واخرى، كنا، علي وحسين وأنا، نتبادل النظرات مبتسمين، وعندما لاحظ علي تكاثر الملح طلب مني أن أبدأ بتعبئته في الأكياس.

وضعنا الاكياس على دراجاتنا الهوائية، وقطعنا الطريق منحدرين على أقدامنا، مخلفين وراءنا الشمس التي اصبحت معلقة في زرقة السماء. كانت قطرات الماء تتسرب من الاكياس، تلامس الاسفلت الساخن فتصير بيضاء مثل حبات الملح. كان علي يضع كيساً عند مقدمة دراجته، وحسين كيساً عند مقدمة الدراجة ونصف كيس في الخلف تحت سيطرتي. حين اقتربنا من المقبرة، المحاذية للنهر، رأيت ربلاً يقوده

رجل عجوز يعتمر كوفيّة ويبدو حزيناً، وخلفه جلست امرأة شابة مع طفليها. وما هي الا لحظات حتى تراءت لي صورة البطل «برجو» يدخل منزل المرابي العجوز سيكولالا وينتزع منه بالعنف مجوهرات أمه وحليها، التي استولى عليها هذا المرابي، عندما كان برجو طفلا. كما يخطف برجو ابنة المرابي، الجميلة. يضع المجوهرات في عبّه والفتاة على الحصان وينطلق. لكنه قبل أن يغادر القرية وجد أمه واقفة له بالمرصاد، مصوبة نحوه بندقيتها. طلبت منه ان يعيد الفتاة إلى دارها (لأن الأم الهندية تقدّر القيم الاخلاقية ولا ترضى بالاعتداء على شرف الاخرين)، لكن برجو يصر على موقفه وينطلق بحصانه. تصرخ الأم «برجو» وهي تضغط على زناد بندقيتها (طاق). يعود برجو ليسقط من على حصانه مضرجاً بدمائه، عند قدمي أمه، يخرج المجوهرات من عبّه ويقول لها بانه حين كان صغيراً أقسم بأن يعيد لها مجوهراتها وينتقم من ذلك المرابي. يقع «البطل» على الأرض ميتاً. تبكي الأم، فيما ابنة المرابي والحصان يشاهدان مأساة المشهد.

ضحك الجندي، حارس نقطة التفتيش وهو يفتح البوابة الحديدية المؤدية إلى المدينة المسيجة. وحين لاحظ الدموع على خديّ قال ساخراً «كنت تجمع الملح، أم تقشر البصل، جويي»؟

وأنا أمسح دموعي، حاولت الاقتراب من الجندي لألمس رشاشته، مثلما كنت افعل في العديد من المرات، لكنني خشيت من وقوع كيس الملح، فاكتفيت بالنظر اليها. حين ابتعدنا قليلاً، سمعت الجندي يصرخ: «سوف آتي في المساء لأشتري منك ساندويتشاً».

نظر اليّ وحسين وقال: «أترى، كل الناس تعرفك... لماذا كنت تبكي؟».

«لأنني جائع». أجبت وأنا أعيد شعري للوراء.

«أنا أيضاً». قال علي وأضاف. «سوف نقص لك شعرك أيها القنفذ حتى ترى السبورة جيداً».

«ما هي السبورة؟» سألته.

«المدرسة». أجاب علي.

***

جمعت أصابع يديَّ وضربتُ بهما على ثديَّ، ثم ألصقتُ السبابتين جنبا إلى جنب، وبالسبابة اليمنى ضربت في راحة الكف اليسرى. فهم أبي انني اقول له: «إخوتي ينتظرون (الصمّون)[1] ليفطروا قبل الذهاب إلى المدرسة»، هز رأسه وناولني صمونة طازجة، ثم اقترب من الفرن وعدلّ من درجة الحرارة، ملقيا نظرة سريعة إلى صواني العجين المرصوفة بعناية في جوف الفرن، بعدها أخرج منديله الأبيض من جيب بنطاله الخلفي، مسح وجهه ورقبته وأعادَ المنديل إلى مكانه، تاركا جزءاً منه بارزاً مثل أذن الكلب اليسرى. بحركة سريعة دفع العصا الخشبية الطويلة الشبيهة بـ«المجداف» في نيران الفرن وبدأ يسحب صواني الصمون المستوية ويفرغها في صندوق خشبي محطوط عند مدخل المخبز، حيث احتشد العديد من الزبائن ببيجاماتهم ودشاديشهم.

كنتُ جالساً فوق أربعة أو خمسة أكياس من الطحين وضعت الواحدة فوق الاخرى، أتطلع إلى الزبائن. بعد لحظات لم يبق في الصندوق إلا صمونة مهجورة، أخذها أبي ووضعها أمام عدنان، قاطع العجين

(١) الصمون: نوع من الخبز العراقي.

والوزان، وهو يصرخ ويشير إلى النقص في وزن العجينة. ولأن عدنان كان يأتي في بعض العصريات إلى بيتنا ويشرب معنا الشاي بالحليب، لم يشأ أن يرد على أبي، الذي بدا مثل مراقب البلدية أو صاحب المخبز، فاكتفى بالابتسام. وهذا ما زاد من غضب أبي، الذي أشار إلى سقف المخبز، ثم إلى الوشم المنقوش على ذراعه اليسرى، ووضع معصمه الأيسر فوق الأيمن بشكل متقاطع: ففهم عدنان أن أبي يقول له: «لو انك ارتكبت هذا الخطأ في مخبز انكليزي لزُجَّ بك في الحبس» فأجابه عدنان مازحاً: أشار إلى ذراع أبي حيث نُقش وشم الأسد ووحيد القرن حاميي التاج البريطاني، ثم نفخ في راحته الممدودة: «أن عهد الانكليز قد انتهى». فاشتعل أبي غضبا وأخذ يبحث من حوله عن أي شيء يقذف به زميله. لكن غلبرت اليتيم، منظف المخبز وزميل أخي شمشون في المدرسة، تدخل في اللحظة المناسبة بأن رفع ابهامه اليمنى أمام أبي: أي «أنتَ على حق». بينما ظل عدنان الخجول مختبئا خلف أكياس الطحين حابسا ضحكاته..

صنعت شميران ساندويتشات القيمر والمربى لشمشون وتيدي، اللذين انطلقا إلى المدرسة، ثم بدأت تعد لي فطوري المفضل، مرقة الطماطم بالبصل (نصحني قرياقوس بالإبتعاد عن هذه الوجبة، لأنها (بالإضافة إلى اللبلبي والفاصولياء)، «تضعف من قوة المخيلة عند السينمائي!». ولكن شميران لم تنه اعداد الطعام، إذ هرعت إلى (حنفية الغسيل) قائلة: «جويي، لا تنس أن تترك قليلاً من الطعام لأخيك». نظرتُ إلى روبن فوجدته نائماً مثل سلحفاة.

كانت أمي تغسل الأواني والألبسة مثل كل نساء الحبانية، عند حنفية الغسيل وتتحدث مع سكينة، زوجة نصرت شاه، وصبيحة التي تزوجت منذ ثلاثة أشهر وهي لم تكمل بعد السابعة عشر. كانت صبيحة تضع

دوما على رأسها، منديلاً مطرزا بالزهور وترتدي ثوباً ضيقاً «لتثير شهية الرجال، وغيرة النساء» كما كانت تقول زهرة البستانية وهي أكبر عانس في المدينة.

«رائحة المرحاض العمومي لم تتركنا ننام ليلة البارحة» قالت صبيحة وهي تفرك بنعومة في طشتها كيلوتاً أحمر صغيراً من القطن (رأيت ذلك مرارا). فردت أمي: «لقد أصبح رزوقي عجوزاً ولم يعد قادراً على العمل». «مسكين رزوقي، ينظف المرحاض في الفجر والظهيرة والعصر» قالت سكينة ثم مسحت أنفها بالوشاح الأسود الذي يغطي رأسها وكتفيها، وتساءلت «ماذا سيفعل رزوقي إذا كان الناس يأكلون الكثير من الفاصولياء ويذهبون إلى المرحاض بعد منتصف الليل؟»

في تلك اللحظة، مرّ من أمام حنفية الغسيل نيقولا، الممرض العسكري في المستشفى الجمهوري، راكباً دراجته الهوائية. قالت سكينة، مصوّبة عينيها المكحلتين والغائرتين عميقا في وجهها النحيل نحو فخذي صبيحة المكشوفتين «غطي لحمك بنتي الناس رايحة وجاية». بينما ظلّت أمي تنظر إلى الممرض الأسمر وهو يبتعد بدراجته قليلاً قليلاً. وقبل أن تحمل صينيتها المليئة بالكؤوس والصحون، رأت شميران تقترب مسرعة، والدم ينزف من إصبع في يدها اليسرى.

«مرة أخرى»، قالت أمي باحباط. لكن شميران التي تعرف كيف تفلت في كل مرة من نظرات أمي، قالت «ماذا أفعل يا أمي، كنت أصنع الفطور لأخوتي واذا بالسكين تقص إصبعي». وانحنت لتقبل صديقتها صبيحة، التي كانت قد سحبت ثوبها للأمام إرضاء لسكينة.

«كم مرة جرحتِ هذا الإصبع؟» تساءلت أمي وظلّت صامتة تلفها الحيرة.

نظرت صبيحة بتواطؤ إلى شميران وقالت:

«شميران، يجب أن تذهبي إلى المستشفى بسرعة قبل أن تتسمم كل يدك».

«روحي للمستشفى وأمرنا لله». قالت الأم.

كان يوماً ممطراً، عندما جرحت شميران إصبعها للمرة الأولى ولم تكن صبيحة قد تزوجت بعد من قريبها النائب ضابط محمد. يومها ذهبت شميران برفقة صبيحة إلى المستشفى الجمهوري، وهناك أمسك الممرض نيقولا أصابع شميران بطريقة لم ترق لصبيحة التي تدخلت قائلة «عيني، إمسك يد البنت جيدا كأنك لم تمسك يد امرأة من قبل.» نظر إليها نيقولا مبتسماً دون أن يخفي إعجابه بجرأتها. وبعد أن عقّم إصبع شميران بالميكروكروم ولفّها، قال بصوت خجول: «أنا دائماً أشتري الصمون من أبيها». فردّت صبيحة وهي تجر شميران خارج العيادة «ولكننا لسنا هنا لبيع الصمون». وهتفت بعد أن أطبقت الباب من الخارج «مسكين يريد أن يتزوج». ثم ركضتا تحت المطر، خارجتين من حديقة المستشفى، ولم يستطع نيقولا أن يلحق بهما ليعيرهما مظلته الإنكليزية العتيقة.

لكنه فوجئ، بعد أسبوع، بمجيء شميران ولوحدها هذه المرة، وقد جرحت إصبعا آخر. ورغم أنها ألقت تحية الصباح بالعربية، فقد تعمّد الممرض أن يردها بالآشورية: قيدَمتّخ بريختا. (صباحك مبارك). ولم ينس نيقولا، في هذه المرة، إرشادات صبيحة «إمسك يد البنت جيدا»، بل تجاوزها، صار يُجلسها على كرسيه ويمسد يدها، إصبعا إصبعا ولمّا وجد ارتياحاً من قبل الجريحة راح يمسك عضلات ذراعها ويقرّب مثل الكلب أنفه من فتحة قميصها ويشم رائحة إبطها. راقت لشميران تلك العلاجات التي تبعث الحمى في دمائها، فأضحت، كلما اشتاقت للجلوس أمام الممرض اليتيم، تختار إصبعا سليماً من يدها لتقصّه. وحين كثر تردد شميران على المستشفى، سمعتُ شمشون يصرخ في وجهها قائلاً «سنشتري لكِ قنينة من الميكروكروم لننهي قصة المستشفى».

لا أدري إن كان أخي الأكبر قد سمع شيئاً من أصدقائه: فالخصومات التي كانت تجري بين الأولاد غالباً ما تكشف عن الكثير من الأسرار. مثلاً، عندما تخاصم مهدي مع جليل الدب (لأنه ضخم) شتمه قائلاً «تضربني أيها الدب، لأنك غير قادر على ضرب محمود الذي يداعب أختك كل يوم خميس وراء سياج المدرسة الثانوية» وقد ذهب الدب مساء الخميس إلى هناك، فوجد أخته بتول متكئة على سياج المدرسة، رافعة ثوبها إلى مستوى خصرها وكيلوتها ساقطا عند قدميها، وكان محمود لاصقاً بمؤخرتها. وقد قيل إن جليل الدب سمع أخته تقول «ليتك يا محمود تبقى لاصقا بي طول العمر». يومها أنزل الدب دماء غزيرة من أنف بتول، وكسرَ قدمي محمود، الذي انقطع عن لعب كرة القدم طيلة شهر بكامله.

لقد حدثت لي نفس التجربة. فحين أراد حسين، ابن نصرت شاه، أن يضربني لأنني استخدمت دراجته الهوائية دون اذن منه، وكنتُ قد ثقبت العجلة الخلفية، تراجع خشية من لساني، لأنه تذكّر أنني كنت قد رأيته ذات ظهيرة ممدداً فوق سمر (جين راسل، كما كان يسميها قرياقوس) وهو يلعق نهديها بلسانه، بينما كانت ساقاها الطويلتان المشرقتان تطوّقان خصره. ولذلك، فأنني أقول، ربما يكون شمشون قد تخاصم مع أحد أصدقائه وسمع كلاماً من قبيل «ما الذي تفعله أختك كل يوم في المستشفى الجمهوري؟». فزيارات شميران للمستشفى كانت قد ازدادت، كما ازدادت شجاعة نيقولا، الذي صار يجلسها على مقدمة دراجته الهوائية ويطوف بها في شوارع وبساتين معسكر الحبانية، يحدثها عن الزواج، ثم يمددها تحت شجرة يوكالبتوس، يقبّلها، وبيديه اللتين تنبعث منهما رائحة الميكروكروم، يمسّد جسدها الآشوري.

كان وجه شميران حنطياً، وشفتاها رطبتين تبللهما بلسانها الوردي. تبدو طويلة بساقيها الرشيقتين، تجمع شعرها الكستنائي للوراء وتعقده

بمنديل أبيض صغير، كانت جميلة، وتبدو أكبر من سني عمرها الست عشرة.

«في الصيف الماضي، جاء شاب لبناني مع أبيه التاجر الثري وطلب يدها، لكننا رفضنا تزويجها، لأنها صغيرة» كانت أمي تكرر أمام النسوة الجالسات عند حنفية الغسيل، وتضيف «وقد مرض الشاب لفترة طويلة. كان مهندساً وكان، مثلنا، مسيحياً».

***

«جويي، أنا صديق أخيك تيدي، اعطني أنا أولا».

«جويي، الله يخليك، سيدق الجرس، أعطني كأس أزبري، فأنا مثلك أحب السينما».

«جويي، اسأل أباك، ذات مساء رأيته سكراناً فأوصلته إلى البيت».

كان تلاميذ المدرسة الابتدائية يصرخون وهم يتحلقون حول عربتي. كنتُ آخذ النقود من أيديهم الصغيرة الممدودة امامي وأعطيهم كؤوسا صغيرة من الأزبري. وكان نصرت شاه واقفا إلى جانبي، ينظر إلى سرعة وخفة يدي. كان يعدّل طاقيته الصفراء، (المستوردة من طهران) ومن زوايا عينيه ينظر إلى جيبي مبتسما. وأخمّن انه كان يبتسم متذكراً أن ما قاله لأمي «ان جويي أسرع بائع متجول في العالم» حقيقة تتجسد أمام عينيه اللتين لم أعرف أبدا لم تتخذان دوما لون طاقياته. ويمكنني القول انه عندما دقّ جرس المدرسة وهرع التلاميذ إلى صفوفهم، لم يبق تلميذ واحد لم يذق الأزبري، خصوصا عامر الذي أعطيته كأساً بالمجان، لأنه أوصل أبي إلى البيت، كما ادعى.

بعد أن أغلقت المدرسة بوابتها الرئيسية قال نصرت شاه انه ذاهب للصلاة في الحسينية «اسمع جويي، من الافضل ان تتجه نحو مدرسة البنات، طالما ان لون الأزبري اليوم أحمر».

لقد كان نصرت شاه محقا. فما أن خرجت التلميذات من صفوفهن حتى هجمن على الأزبري. كن يلتهمن كأساً أو كأسين، وبعضهن كن يستدن النقود من زميلاتهن لطلب كأس اخرى لتزيد من حمرة شفتيها. وكانت الست مادلين على حق أيضا. ذات يوم قالت لنا: «أعرف أنكما تكثران من الصبغ الأحمر حتى تلونا شفاه البنات. ان ما تقومان به لعمل معيب حقا». يومها، أنزل نصرت شاه طاقيته لتغطي جبينه ولم يرد على المعلمة، بل ظل ينظر إلى مؤخرتها حتى ابتعدت، فقال بصوت خفيض: «قحبة، نحمّر شفاه تلميذاتها ونُبرّد قلوبهن، فماذا تريد أكثر من ذلك». وأضاف وهو يهز رأسه «أصبحت في الأربعين من عمرها وما زالت عزباء»!.

بعد ذلك دفعت العربة عائدا نحو الحسينية في انتظار أن ينهي نصرت شاه صلاته. في نفس الوقت أخذت أصنع كمية جديدة من الأزبري: ملأت العلبة النحاسية بالماء، أفرغت فيها كيلوغرامين من السكر، ملعقتين ونصف من الصبغة الخضراء، ملعقة ونصف من الفانيلا، حبة واحدة من الليمون دوزي، ثم اخرجت نصف قالب من الثلج، كسرته بالتورنفيس إلى قطع صغيرة ووزعته حول العلبة النحاسية، وأخيراً غطيته بطبقة سميكة من الملح الخشن لمنع الثلج من الذوبان بسرعة. أخذت ألفّ العلبة النحاسية بسرعة، شيئا فشيئا أخذ السائل الأخضر يتجمد داخل العلبة ويصير أزبري. ثم وضعت المظلة الصغيرة لكي تقيني من الشمس الساخنة، وعندما أخذت أعد النقود التي ربحتها في الفترة الصباحية كانت: دينارين و٣٨٠ فلسا شعرت بالفخر لاني كنت اعرف ان هذا المبلغ سيرضي نصرت شاه.

«هلو جويي. ها، هل بعت كثيرا اليوم؟». فاجأني شمشون.

«نعم».

«أنت شغيل رائع» قال شمشون ومسح بيده على رأسي.

«هل تريد كأساً من الأزبري؟» سألت أخي الأكبر.

«أي».

قدمت له كأساً من الأزبري ولاحظت ان كتبه كانت ملطخة بالطين وكذلك حذاؤه: «شمشون، يبدو انك لم تذهب إلى المدرسة، أليس كذلك؟»

هز رأسه موافقا وهو يلتهم الأزبري.

«هل تدري، انني في السنة الدراسية القادمة سأسجل في المدرسة؟»

«عظيم» قال شمشون وأضاف «هكذا تستطيع أن تقرأ كل مجلات السينما، بل وحتى ترجمات الأفلام الأميركية». انهى شمشون كأسه وكنتُ اريد ان أصب له كأسا اخرى. لكنه قال لي «لا اريد الازبري، أنا بحاجة إلى خمسين فلسا».

التفتُ يمنة ويسرة ثم نظرت إلى السماء، وسحبت من جيبي قطعة نقدية، دسستها بسرعة في يد اخي الأكبر، الذي تناولها وهرول مبتعدا، دون ان يدري انني كنت اشتاق للتحدث معه أكثر. كنا نادرا ما نتحدث في البيت، واحيانا كان يمر شهر باكمله دون ان نتبادل ولو جملة واحدة.

كان شمشون طويلاً، أسمر البشرة، جميلا، يمتلك جسد الرياضيين. كان أصغر من شميران بعام واحد، وكان يتغيب عن المنزل طيلة النهار، حتى ان أمي كانت تقول عنه: «يا الهي، هذا الولد لم ير البيت في النهار ابدا. ينظر إلى البيت على انه سرير، سرير للنوم فحسب».

ولم يمض وقت طويل، حتى رأيت نصرت شاه قادما من الحسينية، وهو يعرج على قدمه اليسرى: «لقد بعنا اليوم بدينارين و٣٣٠ فلسا». قلت وأنا أمد له النقود.

«أنتَ طرزان، جويي» قال نصرت شاه وهو يضع المحصول في

جيبه، مضيفا «اذهب يا ولدي، تناول طعامك وحضّر نفسك للعمل في المساء» ثم مسح باصابعه الثلاث على رأسي بحنان.

«أمي، منذ متى نعرف عائلة نصرت شاه؟» سأل شمشون ذات ظهيرة، وكان قد عاد إلى المنزل ليأخذ قطعة من الخبز ويختفي.

«لا أعرف. كنا دوماً معاً. أرضعتُ لهم فاطمة وابراهيم، وأرضعتْ سكينة تيدي وجويي».

بعد ان تناولت صحنين من الفاصولياء، تمددت على الأرض الكونكريتية عند عتبة البيت، حيث كانت أمي منهمكة بنشر الغسيل. ولا ندري من أين ظهرت شميران وهي تدندن بالآشورية «ماني مرّيه ليبَيْنَخْ. ماني مرّيه بِتْشوقِنَّخْ»[1] فقالت أمي وهي تنفض منشفة كبيرة «أنتِ أيضا صرتِ تتسكعين في الشوارع، مثل إخوتك»، وأضافت وهي تنحني لالتقاط قطعة غسيل اخرى «يبدو انني سأموت دون أن أعرف لماذا تنفرون من هذا البيت». أردت أن أجيبها «لأن بيتنا وبكل بساطة يا أمي الحبيبة، ليس بيتا». لكن الفاصولياء كانت قد تسللت إلى دمائي وبعثت الخدر في جسدي تماما. أما شميران التي واصلت أغنيتها «آتِنْ خَيِّي... آتِنْ خُبّي»[2] ودخلت إلى البيت. بعد أقل من دقيقة، سمعنا أبي يطلق صرخاته، التي تشبه صرخات الهنود الحمر حين يهجمون على قوافل الكاوبويز، فخرجت شميران عابسة، لتقول بحزن ممزوج بالدلع «وما أدراني انه كان في الداخل؟».

«ما به؟ ماذا فعلت له؟» سألت أمي.

«لا شيء. قال لي: كيف تدخلين إلى غرفتي دون أن تطرقي الباب»!. مسحت دموعها القليلة، وأضافت مبتسمة «حسنا، في المرة

(١) ماني مرّيه ليبَيْنَخْ. ماني مرّيه بِتْشوقِنَّخْ: من قال اني لا أحبكِ، من قال اني سأهجركِ.
(٢) «آتِنْ خَيِّي... آتِنْ خُبّي»: أنت حياتي، أنت حبي.

القادمة، سأطرق الباب وأتمنى يا أبي أن تسمع طرقاتي». واقتربت من أمي وقالت بصوت واطئ «يام.. كان أبي يشرب وهو ينظف علبته الفضية».

فعادت أمي تكرر ما سمعناه منها مرارا: «ماذا استطيع أن أفعل له. لم نصدق انه نسي تلك العلبة المنحوسة، التي كادت تقتله. دعوه يسكر ويغيب عن العمل لنرى من يُطعمكم، هذا الاخرس الاطرش، ضيّعت شبابي معه بينما هو يفكر بالانكليز. قضى اكثر من ثلاثين سنة بالعمل معهم كالحمار، ومع ذلك ضحكوا عليه بعلبة فضية لا تساوي قيمتها كيلو من العدس!». قالت أمي بحزن شديد، ثم مسحت أنفها بذراعها اليسرى، وبحركة سريعة سحبت بعض ثياب أبي المعلقة على الحبل وألقت بها في الطريق الترابي، صارخة «فليذهب إلى أنكلاند ويغسل ثيابه هناك». ثم انفجرت ضاحكة فتبعتها شميران، وجدت نفسي أضحك متخلصاً من تأثيرات الفاصوليا، ومنهياً قيلولتي، هذه العادة السيئة التي تعلمتها من نصرت شاه، رغم ان قرياقوس نبهني اكثر من مرة قائلاً «ان القيلولة مفيدة للكلاب والقطط فقط».

كان نصرت شاه قد بنى غرفة مستقلة من حجر اللِبن، إلى جوار منزله، لولده علي حين كان طالباً في دار المعلمين. ولكن علي، زهق من الغرفة الضيقة ولم يعد يستخدمها، فأستولينا عليها، ابراهيم وأنا، متخذين منها غرفة للعب وصناعة سينما الظل، وأسميناها «غرفة السينما». وقد لصقنا على جدران الغرفة صور الممثلين وأفيشات الأفلام: الممثل الكوميدي نورمان ويزدوم، روي روجرز (ملك الكاوبوي)، ألن لاد، راندولف سكوت، غاري كوبر، كاري غرانت، ايرول فلين، كينغ كونغ يحمل بوب هوب، مونتغومري كليفت، اليانور باول، فرنكنشتاين، جون واين، تايرون باول (بلحية كثة وثياب مهترئة وعن هذه الصورة قال قرياقوس ان شمشون عندما يكبر سيشبه كثيرا

تايرون)، جين هارلو مع كلارك غيبل، فيرا مايلز، لي مارفن، كاترين هيببورن تشعل سيجارة لجيمس ستيوارت، صور عديدة لهنري فوندا، فكتور ماتيور يعتمر طربوشا احمر وهو يقبل جين تيرني، ريتشارد ويدمارك يقرأ جريدة في القطار، بينغ غروسبي، جين راسل تكشف عن نهدين بارزين وهي ممددة على القش (قرياقوس قال لي، عندما تكبر ستكتشف جاذبية النساء ذوات السيقان الطويلة)، جون فورد يعتمر قبعة صوفية وهو جالس في حفرة ويحيط به مجموعة من المصورين اثناء تصوير THE IRON HORSE، جون فورد يضع نظاراته السوداء ويشرب الشاي، جون فورد يعتمر كاسكيته وهو يضحك وسط العاملين معه، جون فورد يدخن الغليون ويده اليمنى تمسد ظهر كلبه، جون فورد في افريقيا اثناء تصوير فيلم MOGAMBO، جون فورد شاباً يقف إلى جوار أخيه فرانسيس فورد، جون فورد مع هاري كاري، جون فورد يتوسط فيتوريو دي سيكا ورينيه كلير، جون فورد يحمل كاميرا ١٦ ملم، يرتدي ثياباً عسكرية اثناء تصوير فيلم THE BATTLE OF MIDWAY، صورة كبيرة لتشابلن والطفل جاكي كوومان، بالاضافة إلى العديد من الصور الأخرى.

كنت في الخامسة من عمري، عندما علمني قرياقوس كيف أصنع سينما الظل. كنت أشعل شمعتين وأضعهما على جانبي ورقة شفافة، ثم أحرك شخصياتي الكارتونية، كنت أُقربها وأُبعدها عن الورقة الشفافة: الشاشة، فتكبر ظلال الشخوص وتصغر. كما كنت أغيّر نبرات صوتي تبعا لكل شخصية.

الاول: أبوك لا يسمع، أبوك لا يتكلم.

الطفل: أبي مثل السينما، صور، صور، صور.

الثاني: أبي لا يرى.

الطفل: يتخيل الأشياء مثل السينما.

الأول: أبي يرى جيداً، يسمع جيداً، يتكلم جيداً، يأكل جيداً، وينام جيداً.

الطفل: انه شرطي.

وقد قمت بتأليف هذه «القطعة» خصيصا لأنتقم من خاجيك، الذي قال لي أثناء نقاشاتنا حول السينما: «انك تفضل الافلام الصامتة، لأنك ابن اخرس وأطرش». ذات يوم كنت قد سرقت حبلا وقررت أن أخنق ذلك الأرمني اللعين من رقبته الغليظة الحمراء، لكنني تراجعت عندما ذكّرني ابراهيم قائلاً «لا تنس جويي، ان أباك يقوم بوساطات عديدة ليشتغل في مخبز أم خاجيك». كما سمعت أمي تقول لسكينة «ليتَ أم خاجيك تقبل كيكا في مخبزها الكهربائي، عُمالها لا يتعبون وأجورهم معقولة». وقد شعرت بالندم لأنني نلتُ من والد خاجيك، الذي كان يعطيني ديناراً كاملاً في كل عيد ميلاد، باستثناء السنة الماضية، لأنه توفي قبل العيد باسبوع واحد.

**

جاء أبي إلى «غرفة السينما» وأطبق الباب وراءه. عمل أشارة ففهم ابراهيم أن عليه أن يغادر الغرفة. حدّق فيّ للحظات ثم انفجر ضحكا وسعالاً ففاحت من فمه رائحة «العَرَق». جمع أصابع يده اليمنى وضرب مؤخرته، قرّبَ اصابعه من أنفه، قلّصَ وجهه النحيل باشمئزاز، وأشار إلى الشمعتين والورقة الشفافة. ففهمت انه يقول: «ان سينما الظل ما هي إلا خراء». وعندما سحق الشمعتين بمقدمة حذائه تأكدت من انه سكران. ساد الغرفة ظلام حالك، حتى اضاءت نيران قداحته المشهد. اعتقد ان تلك اللحظة هي التي وطدّت علاقتي بأبي. كان واقفا في الزاوية، على يمين الباب حاملاً «العلبة الفضية» بيده اليسرى المرفوعة بأقصى ما تستطيع، وكانت القداحة المشتعلة دوماً، بيده اليمنى الممدودة نحو الاسفل بأقصى ما تسطيع. شسئا فشيئا أخذت يده الحاملة للقداحة

ترتفع، ومع ارتفاعها كانت العلبة الفضية تسرق الضوء فتلمع شيئاً فشيئاً، حتى صار ضوؤها ينعكس على الصور المعلقة على الجدران، بالضبط على صورة مونتي[١]. وقد ظل أبي واقفا لدقيقتين أو ثلاث بلا حراك إلى أن جاءته نوبة سعال، عندها رفع ابهامه عن زناد القداحة فاختلط سعاله بظلام الغرفة. بحثت بسرعة عن علبة الكبريت واشعلت شمعة، وأنا أفكر ان أحداً من أهلي لن يصدقني لو اخبرتهم بأن أبي وضع بين يدي علبته الفضية، مشترطاً عليّ عدم فتحها. قربت العلبة من فمي، نفخت فيها ثم برفق مسحتها بثيابي لتزداد بريقا. عندما توقف سعاله ضرب بسبابته اليسرى على طرف جبينه، كأنه يقول (أتتذكر)؟

نعم أتذكر. قلت في نفسي وأنا أهز له رأسي.

حدث ذلك عندما كنت في الخامسة، حين بقينا روبن وأنا وحيدين مع أبي، فيما ذهبت أمي وشميران وتيدي إلى المستشفى لزيارة الكهربائي أوراهم الذي كان قد مَخَطَ في يده اثناء تصليحه خللاً في مصباح الشارع، فصعقه التيار الكهربائي ملقياً إياه من ارتفاع أربعة أمتار. منذ ذلك اليوم أصبح أوراهم (أو ستيوارت غرانجر، كما كان يسميه قرياقوس) يسير في الشوارع، يتوقف، يضرب بقدمه اليمنى في الهواء تماما كما يفعل لاعب كرة القدم، ثم يسير عشرة أمتار ليعاود ضرب الهواء بقدمه، ويبقى على هذه الحال حتى يدخل المنزل أو المقهى ليجلس أمام التلفزيون.

كان أبي يشرب العَرَق ويطعمنا بين حين وآخر ملعقة من «الجاجيك»[٢] أو ملعقة من «اللبلبي»[٣]، فطلب مني أن أحمل روبن وأخرج إلى الغرفة الاخرى إلى أن يناديني. عندما سمعنا صرخته الشبيهة

---

(١) مونتي: مونتغومري كليفت.

(٢) الجاجيك: خليط من اللبن المخثر والخيار والثوم.

(٣) اللبلبي: الحمص غير المطحون.

بصرخات الهنود الحمر اثناء هجومهم على قوافل الكاوبويز، عدنا إلى الغرفة فرأيناه يحمل بيده صرة، أزاح عنها غطاء من القماش، فظهر غطاء من النايلون، أزاحه ليظهر غطاء آخر من الدانتيلا الابيض، أزاحه أيضا فظهرت «علبة فضية» كان منقوشا على أحد وجهيها حيوانان متوثبان حول تاج. اشار إلى الوجه الآخر للعلبة، وصنع اشارة كمن يوقع على ورقة، ثم دق بسبابته على صدره: «هنا مكتوب اسمي». وبزهو وضع العلبة على الطاولة وراح يجرع كأساً من مشروبه، وحين ابتسمنا له طوقنا بذراعيه وقبّل وجهينا ورأسينا، ثم قبّل علبته، نفخ فيها ومسحها على صدره، ولما رضي ببريقها، أعادها إلى داخل أغطيتها القطنية والنايلونية.

في تلك العلبة رأيت وجهي لأول مرة نقيا ومدورا، بعيدا عن مرآة منزلنا المليئة ببقع الصدأ التي كانت تظهر وجوهنا منمشة. في تلك العلبة رأيت وجهي اسمر وحنوناً تماما مثل وجوه الأطفال في الافلام الهندية.

عندما أخذ مني العلبة، أضاف أبي شرطاً آخر. أشار إلى لسانه، ثم إلى عينيه، وضع سبابته اليمنى في راحة كفه اليسرى وأطبق عليها: «لا تقل انك رأيت شيئاً. انه سر». عندما مررنا من أمام منزل نصرت شاه، نظرت الينا أمي باستغراب وقالت لسكينة وفاطمة «لقد قبلنا بجنون هذا الاخرس الاطرش، فماذا يريد من الولد؟». ويا له من أمر غريب، كأن أبي «سمع» ما قالته أمي، فأشار إلى ثدييه، مص اصبعه الصغير، فرك سبابته اليسرى على طرف جبينه ونفخ في راحته اليمنى: «أمك بلا عقل». في الغرفة الصغيرة المزدحمة بالفراش والبطانيات الملقاة بعشوائية، في واحد من ثلاثة صناديق خشبية كبيرة، كانت مليئة بالثياب القديمة وتنبعث منها رائحة شاي سيلان (منذ أن ولّدتني سكينة بالقرب منها)، خبأ أبي علبته الفضية.

***

«أودري هيببورن» سماها قرياقوس منذ أن رآها معي، وكنا جالسين

عند الباب الخشبي لمنزل خالتها. كنت أقص عليها كل ما أعرفه عن السينما والمدينة. كانت بيضاء، نحيلة، تقص شعرها الأسود إلى مستوى أذنيها، بشفتين منفرجتين وأنف دقيق، قبّلته بعد ثلاثة أيام من وصولها. كانت نسرين قد جاءت منذ ايام قليلة من شمال البلاد، لتقيم عند خالتها زهرة، التي كانت تعمل بستانية في القاعدة الجوية البريطانية منذ أن كانت في الثامنة عشر. أي منذ أن حلّت محل أخيها خِدر الذي توفي بمرض السل وتركها وحيدة. ولم تتزوج الخالة زهرة رغم العروض العديدة.

كنت أشرب «مشن» عند دكان يوشيا الذي كان منهمكا بقراءة رسالة وصلته توا من ابنته فكتوريا، عندما نادتني الخالة زهرة «جويي، تعال معي إلى بوابة المدينة، لأن نسرين، ابنة أختي، قادمة اليوم». وقد وافقت على الفور، حتى قبل أن تضيف الخالة زهرة «وسأشتري لك قنينتين من المشن، حال عودتنا».

قدمتني الخالة زهرة قائلة «هذا جويي، ابن كيكا وكرجية. يساعدني كلما احتجت إلى شيء، انه ابني». ولم تقل الخالة زهرة انها غالباً ما كانت ترسلني لشراء السجائر. نظرتُ إلى نسرين مبتسماً وقلتُ وأنا أمد يدي لحمل حقيبتها المنتفخة «كلهم يقولون لي (أنت ابني) ننه سكينة والخالة زينب، زوجة رسول بائع الباقلاء، والخالة زهرة، وكذلك أمي. فهل ستقولين (أنت ابني)؟»

«أنت صديقي» قالت نسرين وهي تداعب شعري الطويل، وتنظر إلى خالتها بعينين تقولان «يبدو انني سأكون سعيدة في هذه المدينة».

في اليوم التالي اصطحبت نسرين إلى المخبز لتشتري الصمون ولأعرفها على أبي، ثم أخذتها في جولة في الأسواق لأريها من أين تشتري الشاي والسكر والخضار واللحوم، والسجائر طبعا، دون أن أنسى إخبارها ونحن عائدان بأنها تستطيع ان تشتري كل شيء من بقالية يوشيا،

فهو قريب من المنزل، ويبيع بالدين أيضا، مضيفاً وأنا أرفع شعري عن جبيني «وقد سافرت ابنته فكتوريا إلى ديترويت منذ ثلاث سنوات».

في طريقنا لجمع الملح، قررت انه من الان فصاعدا لن أعطي لشمشون أو غيره أي مبلغ من محصول بيع الأزبري، لأن مصروفي اليومي ارتفع مع وصول نسرين. لقد فكرت أن «أضع جانبا» خمسين فلسا كل يوم قبل ان أُسلم نصرت شاه محصول المبيعات، وعليّ أن أقوم بذلك مع بعض الحذر، لأن قرياقوس كان قد اخبرني ان ثمة عيونا في الأرض كما في السماء تراقب الانسان دوما. كنت واقفا وراء العربة، اخذت قطعة الخمسين فلساً، نظرت إلى السماء أولا، ثم التفت يسارا ويمينا، وبسرعة دسست النقود في جيب لباس الرياضة الاسود، الذي ارتديه تحت البنطال. ورغم ذلك، وجدت نفسي اعترف لنصرت شاه قائلا: «عمو نصرت، لقد أخذت يوميتي مسبقاً، لحاجتي لها».

«ولماذا وضعتها في ثيابك الداخلية؟». باغتني بسؤاله، وهو يمرر قطعة من الثلج فوق صلعته.

تلعثمت للحظة وأجبته بسرعة «لكي لا تضيع»..

«اذهب يا ولدي وارح نفسك قليلاً». قالها مبتسماً.

أردت أن أقول شيئاً، لكنني لم أقو، فمدَّ نصرت شاه أصابعَه الثلاثة حول العلبة النحاسية وراح يلفها وهو يدندن أغنية فارسية.

ذات يوم جاءت نسرين عند دكان يوشيا واخبرتني ان خالتها ستغيب طوال الظهيرة، ثم طلبت مني ان اشتري لها «رقيّة وثلاث قطع من العجين». في السوق وضعت نقودي فوق نقودها واشتريت لها ما طلبت، وعدت مسرعا.

«ما هذا؟» سألت باستغراب عندما رأتني أضع على طاولة المطبخ رقية كبيرة وخمس قطع من العجين.

«أوه.. أنتِ لا تعرفين، فأنا دائماً أشتري الاشياء بأسعار رخيصة»

وأضفت متباهياً «ان الخضارين والبقالين واللحامين والبزازين يعرفونني ويحبونني».

«أنت لطيف» قالت نسرين وهي تضغط بنهديها على صدري، ثم طبعت قبلة على خدي، بحيث لامست جانباً من شفتي، فشعرت بوخزة في قلبي، أو شيئاً يسقط من قلبي.

«هل تريدين أن أغني لكِ اغنية من فيلم جنكلي؟» سألتها.

«هه هه» همست موافقة وهي ترفع عني دفء صدرها.

طلبت من نسرين أن تستلقي على ظهرها في صالة المنزل. ففعلت. ثم شرحت لها بقية «المشهد». انطلقت من المطبخ وأنا أغني بصوت عال «هاييه موتا جنكلي كاهي» ثم رحت أُلحّن بفمي الموسيقى «تره ره ره ره ره ره رررر ران» متجها نحو الصالة، راكضاً وراقصاً في آن معاً، دون أن أتوقف عن الغناء، وعندما جلست على ركبتي، بدأت نسرين تتدحرج باتجاهي وكأنها تسقط من تلة إلى أن استقرت عند ركبتيّ، انحنيت (مواصلاً غنائي) وقرّبت وجهي من وجهها، على طريقة شامي كابور (في تلك اللحظة اكتشفت أن نسرين تشبه كثيرا سايرا بانو وليس أودري هيببورن كما يظن قرياقوس) وقبّلت أنفها ثلاث مرات، بسرعة.

«أليس هذا جميلاً؟» سألتها.

«جميل جدا.» ردت نسرين وعيناها مصوبتان إلى السقف المثبت على تقاطعات من أعمدة خشبية مثل كل منازل الحبانية وأضافت «شكرا جويي، أنت لطيف جداً».

سأبدأ الغناء

قال الولد الآشوري

وعندما أسخن، اسكتوني.

ثم راح يسبح في حنجرة ناظم الغزالي

فأسكتوه.

عندها مدت نسرين رأسها من خلف الباب الخشبي:

- بالله عليكم دعوه يكمل غناءه، فصوته جميل.

فرح الولد

ولكن، هل أحبت نسرين الولد الصغير؟

أرسلته للسوق ليشتري

قطع العجين، البطيخ الاحمر، وبعض حبات الزيتون

وضع الولد مصروفه اليومي فوق نقودها

وقال لها:

أرأيت انني أشتري الأشياء بأسعار رخيصة

ولكن

هل تدري نسرين بخفقان القلب المدور؟

في سباق الركض المدرسي

يجري الولد

سريعا، سريعا، سريعا

يرى نسرينه في قصر تلتهمه النيران

يجري، يجري، يجري

يقطع الخط النهائي

لينجد نسرين

وينال كأسا بلا نبيذ

من الألمنيوم

ولكن،

هل شاهدت نسرين طيران القلب المدور؟
وهناك
في الساحة الترابية
طبول ومزامير
حلقات العقال الاسود
مثل حلقات الراقصين
ودقات أقدامهم القاسية
يصْفرُّ وجه الولد الصغير
تضعف ساقاه النحيلتان
أحقا هذا عرس نسرين اليوم؟

***

لاحظ قرياقوس انني لم أعد أهتم بما يجري في عالم السينما، ولا حتى بصناعة سينما الظل. وذات يوم رآني أمام دكان يوشيا فطلب مني أن أرافقه إلى غرفة السينما قائلاً: «عندي الكثير من الأخبار الجديدة من هوليوود».

«سألحق بك بعد قليل» أجبته وعيناي مسمرتان نحو الباب الخشبي لمنزل الخالة زهرة. والحق انني نسيته تماما. لقد انتظر قرياقوس طويلا، فقال لأبراهيم انه يستغرب ما أصابني: «لقد علقت على جدران غرفة السينما أكثر من عشر صور جديدة دون أن تثير انتباهه، تصور يا ابراهيم ان خمسا من هذه الصور نادرة وهي من فيلم THE MAN WHO SHOT LIBERTY VALANCE الذي أتمنى أن أشاهده ذات يوم». ولم يعرف ابراهيم بماذا يجيبه. ولكنه اخبرني فيما بعد ان قرياقوس «جلس طويلاً في غرفة السينما وقد رأيت الدموع تسيل من عينيه». وقد تحمل قرياقوس «خيانتي» له وللسينما. ذات ظهيرة وكنت جالساً لوحدي في

غرفة السينما جاء قرياقوس وقد بدا شاحب الوجه وقال لي بنبرة مأساوية «هيي جويي، لقد قرأت خبراً مزعجاً». عدّلت من وضع السطل الذي كنت أتخذه مقعداً وأنا استمع اليه، فواصل كلامه بنفس النبرة «جاك مريض جدا. تصور انه لم يستطع ان يكمل تصوير فيلمه الجديد YOUNG CASSIDY أليس هذا مدمياً للقلب؟». نظرت إلى الأرض وقلت بنبرة شاردة «ولكن نسرين قالت لي انها لا تعرف جون فورد». في تلك اللحظة وجّه اليّ قرياقوس لطمة مباغتة أوقعتني أرضاً، وقال بغضب: «أحدثك عن عبقري، وأنت مشغول بفتاة بلهاء.» وأضاف وهو يعصر وجهه النحيل مبتسما بسخرية وأسف: «يجب أن تعرف ان تلك الجبلية البلهاء لا تشبه أودري هيببورن على الاطلاق» وخرج من الغرفة.

استغربت أمي حين قال لها قرياقوس انه لا يرغب في رؤية وجهي اثناء زياراته لنا. فسارع شمشون إلى تأييد قرياقوس قائلا لها «انت تعرفين جيداً ان جويي كان دائما نحساً» ويبدو ان شمشون ألمح لأمي (لا أدري بأي صيغة) إلى انني كنت أتسوق لنسرين من فلوس نصرت شاه، (طبعا هو لا يجرؤ على القول انني كنت اعطيه من فلوس نصرت شاه)، لكن ابراهيم، الذي أزعجه اننا لم نعد نلعب معاً، كالسابق، عرف كيف يفجر مشكلة. فقد همس في أذن أمه سكينة قائلا «نسرين لا ترسل جويي إلى السوق فحسب، وانما تستغله في تنظيف المنزل وغسل الصحون أيضا». رأت سكينة ان الموضوع خطير، فقالت لأمي «ابنك، الذي ولّدته بيدي هاتين وأرضعته من ثديي، يعيش تحت تأثير السحر الذي عملته له تلك البستانية، صاحبة البسطار العسكري».

«كلامك صحيح يا أختي سكينة» أجابت أمي «وإلا فمن كان يصدق أن يمر يوم دون أن يدوخ ابني المدينة بحديثه عن السينما والممثلين».

من جهته، وبطريقته وحاسته الخاصتين، فهم أبي ما كان يدور بين أمي وسكينة وقرياقوس. كنت في غرفة السينما أتناول صحنا من الرز

وشوربة العدس الاصفر بلا لحم «لأننا مثل المسيح، الذي لم يحب أكل اللحوم» كما تقول أمي. بالرغم من أنها كانت تسرع لشراء اللحم عندما كانت تجد بعض النقود. جاء أبي مبتسماً: رفع سبابته اليسرى إلى الاعلى، مسح شعره إلى الوراء، رسم مربعات على صدره، مرّر سبابته تحت عينه اليسرى وهز رأسه: (أعرف ان الطويل، الذي يصفف شعره إلى الوراء، صاحب القميص ذا المربعات، لا يريد أن يراك) ثم أطلق عفطة: (ولكن لا يهمك). ثم أشار اليَّ، ودق بسبابته على صدره، وضع سبابتيه جنبا إلى جنب (أنت وأنا أصدقاء). وحين لاحظ انني اسرع بالاكل، ضرب على صدره، حيث كان يخفي علبته الفضية كأنه يقول» لا تسرع، فهي هنا». ألقيت نظرة سريعة على الصور المعلقة على جدران الغرفة، مفكرا بطريقة ما للافلات منه. لم أجد عذراً أفضل من أن أرسم الاشارات التالية: قربت يدي من أنفي بانزعاج، ثم فركتهما (يداي قذرتان ويجب غسلهما، قبل ان ألمس العلبة). هز رأسه مقتنعا، فانسللت خارجا. طلبت من يوشيا قنينة من المشن، ورحت أنتظر الصوت الموسيقي الذي سيأتي من خلف الباب الخشبي.

«جويي، جويي، جويـي»

تناهى صوت نسرين إلى أذني عذباً ليمتزج بعذوبة المشن. وقد ظللت اشرب دون أن أرد عليها، مستمتعا بسماع رنين اسمي خارجا من بين شفتيها.

«جويي، جويـي»..

إلى أن صرخ يوشيا في أذني بطريقة جعلتني أسكب المشروب على ثيابي «وهل أصبحت اطرش مثل أبيك، ها، ألا تسمع البنت تناديك؟». وضعت القنينة أمام يوشيا وأنا ابتسم له. فقال مبتسما «أعرف ايها الملعون انك تسمع جيدا، ولكنك صرت تتدلع عليها، آخ من أولاد اليوم».

***

كانت أمي وسكينة تغسلان الثياب عند حنفية الغسيل. قالت أمي «تصوري يا أختي سكينة، ان كيكا أراد ليلة أمس أن يسحق رأسه لو لم أمنعه من ذلك». ثم التفتت اليّ وكررت «ماذا فعلت له، ماذا فعلت؟».

«هِجْمِنْدي، بأورشلم هجمندي»[1].

«أورشلم ماسميّالوخ»[2] ردت أمي بعصبية وأضافت «والله لو لم أمنعه لسحق رأسك. حتى صباح اليوم حين استيقظ بصق عليك وانت نائم. وقال انه سيكسر قدميك ان اقتربت من المخبز أو البار».

أصبحت أمي مقتنعة بأن نسرين كانت تسيطر عليّ عن طريق السحر. «أنظري اليه» قالت أمي «أصبح وجهه أصفر مثل الكركم».

لم تقل سكينة شيئاً، بل راحت تنظر اليَّ بين لحظة واخرى بعينيها الغائرتين، وهي منهمكة بغسل الثياب، فوجدُتني أقول لها بلهجة متوسلة «والله ننه سكينة، لم افعل أي شيء؟» نظرت سكينة إلى أمي وقالت «كيكا لم يحب أحداً مثل هذا الولد، والولد يحلف انه لم يفعل شيئاً».

«انه غير طبيعي» قالت أمي.

«قلت لك يا أختي كرجية ان الولد مسحور، آخ من هذه البستانية، أم البسطار العسكري، انها لا تريد أن تهدأ».

«لا أحد يستطيع أن يفك هذا السحر غيرك يا أختي، فأنتِ ملاية». قالت أمي بلهجة ملؤها التوسل والخوف.

كان هناك على الدوام بعض المؤمنين بأن سكينة «ملاية» أصلية وتمتلك قدرات خارقة وخبرة كبيرة بالطب الباطني وعلاجاته. وقد ازداد عدد هؤلاء المؤمنين، منذ أن أنقذت سكينة، مضطرة، عدوتها اللدود

---

(١) «هِجْمِنْدي، بأورشلم هجمندي»: (لا شيء، أقسم بأورشليم، لا شيء).

(٢) «أورشلم ماسميّالوخ»: أورشليم تعميك.

زهرة البستانية، أو صاحبة البسطار العسكري كما تصر أن تناديها. وسبب خلاف سكينة وزهرة هو ان الاخيرة إدّعت، في وقت ما، ان جدها كان المرجع الروحي لعموم القرى الكردية في شمال البلاد، وان ضباط الهندسة العسكرية الانكليزية كانوا يقبّلون يده لأنه كان يعيّن لهم، بدقة، الأماكن الصالحة لشق الطرقات في الجبال الشديدة الوعورة. وأقسمت زهرة أمام أمي «الانكليز كانوا يطلعون إلى قمم الجبال بالهيليكوبتر وكان جدي يسبقهم متكئاً على عصاه وينتعل حذاء مصنوعاً من مطاط عجلات السيارات» وعندما سألتها أمي بسذاجة «وكيف وصلت السيارات إلى أعالي الجبال؟» أجابت زهرة بدهاء «ألا تعرفين يا أختي كرجية ان التجار الايرانيين كانوا يأتون ببضاعتهم إلى بغداد عبر الجبال وان بعضهم كان يتعرض لحوادث الطرقات والسرقات فيترك سيارته هناك. قد يكون نصرت شاه، زوج سكينة، واحداً من هؤلاء التجار الذين أفلسوا، فآثر البقاء في بلدنا». وصدّقت أمي، بشكل ما هذه الحكاية، لانها كانت قد سمعت نصرت شاه يقول مرارا «لم أولد بائعا متجولا بل كنت ذات يوم تاجراً كبيراً».

في ظهيرة من صيف العام ١٩٥٩، كانت زهرة عائدة من عملها، بعد أن خلعت ثيابها وبسطارها العسكري، الذي تركه لها أخوها المرحوم خدر ليحفظ قدمي أخته الرقيقتين وشديدتي البياض من أشواك البساتين، تمددت في الصالون مثل كل يوم. بعد أن أنهت قيلولتها انتعلت بسطارها فأحست بشيء ما يوخز الإصبع الكبير من قدمها اليمنى مدت يدها داخل البسطار فوخزت اصبعها ايضا، وحين قلبت البسطار رأت عقربا كبيرا. عندها صرخت «الحقوني، سأموت، آه رجلي، آه ايدي» فهرع لنجدتها الكثير من الجيران دون أن يحركوا ساكناً. عندها تقدمت سكينة من بين الجموع، أخذت اصبع زهرة امتصت منه السموم وبصقته ثم امتصت

السموم من القدم وبصقته ايضا، ثم وضعت قدمها الحافية أمام العقرب وقالت وهي تنظر إلى السماء «يا رهمن يا رهيم، يا ألي بن أبي تالب، يا رب الآلمين» عندما لدغ العقرب قدم سكينة انقلب فورا على ظهره، محركاً قوائمه في الهواء، للحظات، ثم تيبس في مكانه. وقد نصحت سكينة، زهرة ان تبتلع رماد سجائرها، كعلاج لها، طيلة شهر بأكمله. وقد قيل ان قرياقوس علّق يومها قائلاً «مسكينة زهرة لقد فتحوا في معدتها TOBACCO ROAD».

رغم انتصارها على عدوتها زهرة، لم تستطع سكينة إلا أن تهمس في آذان الكثيرين قائلة «صاحبة البسطار العسكري انما جاءت بالعقرب لتؤذي به أحد خصومها، ففي مدينتنا لا توجد لا عقارب ولا أرانب». ولسوء حظ سكينة، فأن قرياقوس انحاز إلى جانب العدل، فوضع مخططاً أولياً لسيناريو يقول: زهرة تصل إلى مكان عملها في البستان. تخلع عباءتها وتضعها عند جذع شجرة. تأخذ المقص الكبير وتبدأ بقطع زوائد الاشجار والاعشاب. بعدها تأخذ المسحاة وتعدل من مجرى السواقي... الخ من اشغال البستنة. في هذه الاثناء يتسلل العقرب إلى أحد جيوب عباءة زهرة ويبقى محصورا هناك. تعود زهرة إلى البيت، يخرج العقرب من «سجنه» ويزحف نحو رائحة الاقدام البشرية، اي نحو البسطار ويختبئ هناك». واضاف قرياقوس «أو ربما تكون زهرة قد تعبت من العمل، فاضطجعت على الاعشاب، فجاء العقرب وتعلق في قفطانها القطني الواسع، هذا القفطان الذي تركه لها أخوها خدر، لكي يخفي تقاطيع جسدها الابيض البض».

وقد اعجبت زهرة بمخيلة قرياقوس، فقررت ان تدخل البهجة إلى قلبه قائلة «تصور يا أخي قرياقوس، أليس غريبا أن تظهر العقارب في بساتين المعسكر التي كانت دوما مثل جنائن بابل، بعد سنة واحدة فقط من رحيل الانكليز». ولا بد ان يكون قرياقوس قد ردّ، يومها، قائلا HOW GREEN WAS MY VALLEY.

هكذا قررت سكينة أن تفك عني السحر الذي طوقتني به زهرة وابنة أختها، ضاربة عصفورين بحجر واحد. فمن جهة تنقذ الولد الذي أرضعته ليعود إلى عمله مع زوجها، ومن جهة أخرى، وهذا هو الأهم، لتقضي على آخر ذرة من الشك في أصالة منابعها الروحية الفارسية. «ما أن يعود من الشغل، احضريه اليّ فوراً، وحذار أن تطعميه شيئاً» قالت سكينة مخاطبة أمي.

جرجرتني أمي من يدي إلى منزل نصرت شاه ومددتني على ظهري، بانتظار علاجات سكينة. حدقتُ في السقف وأنا أفكر بمعدتي الفارغة. نظرت إلى صورة الامام علي بن أبي طالب المحاطة بإطار جميل، معلقة على الحائط وقد كتب في أسفل الصورة بخط أنيق «لا فتى إلا علي، لا سيف إلا ذو الفقار». أشعلت أمي الفريموس. وضعت سكينة قطعة من الرصاص في المقلاة ووضعتها فوق نيران الفريموس. رفعت قميصي وراحت تمسد بطني وتنظر في عيني. وضعت أمي قليلاً من الماء في الصينية، اخذت سكينة المقلاة ودلقت محتوياته في الصينية، فأتخذ الرصاص شكلاً هلامياً. ضربت سكينة على خديها وقالت «لا يخافون الله، يريدون أن يعموا الولد، ولكن أين تفلت رقابهم من ذي الفقار». ونظرت إلى صورة الامام علي. أنا أيضا صوبت عينيّ نحو صورة الإمام: وجه حنطي حنون، لحية كثيفة، عينان عسليتان، السيف بين يديه في حضنه، والعمامة الخضراء تغطي شعره الكستنائي.

«اغلق عينيك ابني»، قالت سكينة. ففعلت. مسحت عينيّ بيديها وقبّلتهما مضيفة «حذار أن تفتح عينيك، ابني» وراحت تلف رأسي كله بمنديل، عرفت انه أسود اللون، عندما شممت رائحة بخورها (المجلوبة من طهران)، وسمعتها تتمتم بصوت خفيض «يا رهمن يا رهيم يا ألي بن أبي تالب، يا رب الآلمين». وعندما انتهت قالت لأمي «اتركيه على هذه الحال حتى فجر الغد».

صرخت وأنا أحاول النهوض «ولكنني جوعان، الله يخليك ننه سكينة، أنا جوعان».

في اليوم التالي، كنت جالسا في غرفة السينما بعد أن رفعت أمي عن عيني منديل سكينة، حين جاء ابراهيم صارخا «صالة السينما ستعرض اليوم فيلماً جديداً لنورمان ويزدوم» وبدأ يرقص في الغرفة. قال ان رفيق الهندي أعطى للفيلم الجديد عنوان «نورمان ويزدوم في قوات المظليين». اقتربت من صورة نورمان المعلقة على الحائط، مسحت الغبار عنها وقبّلتها.

«نورمان العاشق»، صرخت بأعلى صوتي.

«نورمان بائع الحليب»، صرخ ابراهيم.

«نورمان لاعب الكرة»، صرخت.

«نورمان في عيادة الطبيب».

رددنا العناوين العربية لأفلام نورمان ويزدوم كما وضعها مدير السينما رفيق الهندي. وهو هندي حقيقي. اذ جاء ابوه إلى العراق، وعمل «بابو» عند الجيش الانكليزي، وفيما بعد فضّل البقاء في العراق. وهو ليس مثل شاكر الهندي، بائع الخضار والفواكه، الذي جاء إلى الحبانية من مدينة البوكمال الواقعة على الحدود العراقية/السورية.

كان شاكر الهندي شخصا محبوبا، قصير القامة، سمينا وبوجه أحمر وشفتين غليظتين وعينين جاحظتين، يؤدي قيلولته كل ظهيرة نائما خلف صندوق الخزينة، وصوت شخيره يملأ الدكان. وعندما يستيقظ في العصر، يرش الماء على الفواكه والخضراوات، ثم يشرب الشاي بالحليب ويقول «الناس لم تعد تأكل الفواكه منذ رحيل الانكليز» ثم يطرد الذباب عن وجهه. ولا يمر يوم دون أن يختار شاكر الهندي أحد زبائنه ليروي له قصته مع الكلاب الانكليزية «كانت زوجات الكثير من الضباط الانكليز يعلّقن السلال على رقاب كلابهن ويرسلنها اليَّ، وكنتُ آخذ

السلّة، أجد فيها دينارا أو دينارين مع كلمة تقول «غود مورننغ مستر شاكر هينيدي» كنت أملأ السلة بالتفاح والعرموط والموز والعنب والبرتقال والطماطم والخيار، وأعلقها برقاب الكلاب التي كانت تقف أمامي دون حراك. وأنا أيضا كنتُ أكتب لهن «بليس إنجوي يور فروتس، أند فيري بيست ويشيز فروم مستر شاكر هيندي». ثم يُخرج شاكر الهندي سيجارة ولكنه قبل أن يشعلها يختتم قصته بحسرة ومرارة «ولكن اللعنة على الايام، تدور وتدور وتدور..»

في فترة ما، وجد شاكر الهندي انه غير قادر على العمل طوال النهار، فشغّل عنده علي، ابن نصرت شاه. ولكن سرعان ما طرده من العمل دون أي ايضاح. قال بعض الاهالي بان شاكر الهندي اكتشف سرقات علي ولم يشأ أن يفضحه. من جهتي، كنت أعرف ان علي كان يسرق من شاكر الهندي، وكذلك أمي وشميران كانتا تعرفان. فقد لاحظت أمي ان شمشون، ولأسابيع طويلة، لم يطلب منها مصروف الجيب، بالعكس، رأت انه كان دائماً يأكل الفواكه ويستهلك عدة قنان من السفن آب، ولكي تنهي شكوكها وتصفي بالها، اقتربت منه ذات يوم وشدته من اذنه وضربت رأسه بصفيح باب البيت وسألته «من أين تأتي بكل هذه النقود؟». كنتُ جالساً في الطشت وشميران منهمكة بصب الماء على رأسي، حين سمعنا شمشون يعترف ان علي كان يعطيه ورقة من فئة ربع دينار فيذهب شمشون إلى السوق ويراقب محل شاكر الهندي، وما ان يرى علي يستلم عملية البيع، حتى يقترب منه ليشتري كيلو خيار أو حتى نصف كيلو من التفاح، فيأخذ علي الربع دينار من شمشون ويرجع له بقايا دينار أو اكثر، حسب كمية النقود الموجودة في الخزنة، وفيما بعد يلتقيان ويقتسمان «السرقة».

كانت الحبانية تنقلب رأسا على عقب مع كل فيلم جديد لنورمان ويزدوم، خصوصاً وان رفيق الهندي كان يعرف كيف يدعو جمهوره

عندما يخط تحت ملصق الفيلم: «هلموا لمشاهدة نورمان ويزدوم واقضوا معه مائة دقيقة من الضحك المتواصل».

ذهبت مع ابراهيم لنجمع بقية الأولاد لنحتفل بالمناسبة. كنا في غرفة السينما، جليل الدب وجليل الياباني (لانه يشبه اليابانيين) وغلوبي النغل وتيدي ومهدي وبيوس ومخمود وفريد. قال ابراهيم انه سيشتري تذكرة لتيدي. وقال الدب ان أمه لم تعطه النقود الكافية لشراء تذكرة، فرد محمود «رغم انك كسرت لي قدمي أيها الدب، فانني سأكمل لك ثمن التذكرة». وعندما قال ابراهيم «للأسف لا نعرف شيئاً عن الفيلم» أحسست على الفور بالندم وصورة قرياقوس ترتسم في مخيلتي (بدا حزينا وشاحبا)، فهرعت خارجاً: «انتظروا، دقيقة واحدة وسأعود اليكم بالمعلومات».

«أين قرياقوس» سألتُ أمي، التي نظرت اليّ بذهول ثم تركت روبن في الطشت وهرولت باتجاه منزل نصرت شاه. ولم تمض دقائق قليلة، حتى جاءت سكينة ووزعت علينا كؤوسا من عصير الزنجبيل، فقالت أمي «أنتِ ملاية حقيقية يا أختي سكينة. اقسم بحضرة الامام علي بن أبي طالب انني سأحمل المنديل وأرقص وأغني في أعراس أولادك وبناتك».

في عصر ذلك اليوم، خرجت من المنزل سائراً نحو السينما لألتحق بالوجبة المسائية من عملي مررت من أمام دكان يوشيا، الذي استغرب هو الاخر عدم توقفي لشرب المشن. رأتني نسرين فطلبت أن أشتري لخالتها بعض السجائر. فقلت لها: «لا أقدر، لا وقت لأضيعه، يجب أن اشتغل لكي اشاهد فيلم نورمان ويزدوم...»

«فقط خمس دقائق، جويي» قالت متوسلة.

«لقد تأخرت. لا أستطيع» ثم تابعت طريقي ولا شيء في ذهني سوى نورمان ويزدوم.

نقل يوشيا ما دار بيني وبين نسرين إلى أمي، التي بالغت في نقله

لسكينة قائلة «بدم المسيح ومريم العذراء، كانت نسرين تتوسل به باكية ولكن ولدي طلب منها أن تتركه لانه يريد أن يذهب إلى عمله».

كان نورمان ويزدوم قافزاً في الهواء، معتمراً كاسكيته، فاتحاً فمه الكبير وضاحكاً. وقد كتب رفيق الهندي تحت ملصق الفيلم بالخط العريض «نورمان ويزدوم في قوات المظليين». كنت ابيع الازبري امام بوابة السينما، وكان زبائني لكثرة تلهفهم لدخول القاعة ومشاهدة نورمان، ينفخون في كؤوس الأزبري المثلجة، لتخفيف برودتها والتهامها بسرعة. عندما دق الجرس، حسدت الجمهور الذي سيتمتع بـ«مائة دقيقة من الضحك المتواصل». لكنني هوّنت الأمر على نفسي بانني سأشاهد العرض الثاني كما وعدني نصرت شاه الذي ذهب ليؤدي صلاة المغرب قائلا «اذا تعذر مجيئي، سأرسل حسين ليحل محلك. اطمئن، سترى الفيلم اليوم».

لم يظهر نصرت شاه ولا حسين. لكن الذي جعل قلبي يحترق اكثر ليس تأخر نصرت شاه، بل هؤلاء الاوغاد الذين خرجوا من العرض الأول ضاحكين. لقد رأيت ابراهيم وتيدي وغلوبي النغل والياباني والدب وفريد ابن صابر بائع الباقلاء ومهدي ابن سليمة أم الفضائح وخليل ابن فهيمة العرجاء وبيوس الذي كان يضحك وقد نسي تماماً كيف ان خمسة ضباط من عشائر الدليم في الرمادي أخذوا أخته الكبيرة روزا إلى البحيرة وظلّوا ينكحونها طوال يومي الخميس والجمعة، وزيا ابن هارون منظف المستشفى وسارق الأدوية وخاجيك السمين ابن السمينة ام خاجيك، ولقمان ابن حمه اشهر مربي طيور في الحبانية، رأيتهم كلهم يخرجون من السينما مقلدين حركات نورمان ويزدوم وضحكاتهم العالية مثل رؤوس الأبر تدمي قلبي. صحيح انني أبديت شجاعة حين نظرت اليهم ببرود ولا مبالاة، لكن تلك الشجاعة كانت، ساعتئذ، لا تزال تستند إلى الوعد الذي أعطاه لي صاحب الأصابع الثلاث.

ولم يأت نصرت شاه ولا حسين حتى بعد أن دق جرس الفيلم للعرض الثاني وراحت ادارة السينما تطفىء الانوار الخارجية وتغلق الباب الرئيسي. كنت حائرا أكاد لا أصدق ما يحدث. في نهاية الأمر، حاولت أن أنسى آلامي مواسيا نفسي بمشاهدة الفيلم في اليوم التالي.

كنت منهمكا بغسل الكؤوس وتصفيفها وتنظيف سطح العربة حين رأيت عامل السينما يسند سلمه الخشبي إلى جانب لوحة الاعلانات ويقوم برفع ملصق نورمان ويزدوم. هرعت اليه مسرعاً.

«هيي، ماذا تفعل؟» سألته متعجباً.

«سوف نعرض فيلما آخر».

«ولكن هناك الكثير من الناس لم يشاهدوا الفيلم بعد».

«صحيح» رد عامل السينما وهو يترك أجزاء الملصق تسقط على الأرض، فأسرعت بجمعها وطويها بعناية.

«انا لم أشاهد الفيلم بعد. كل الناس شاهدوه ما عداي. هذا ظلم. وأنت تعرف انني اعرف نورمان ويزدوم أكثر من أي شخص آخر. انني اعرف عنه كل شيء». قلت بلهجة متوسلة.

«حسناً في أي سنة ولد نورمان؟»

«في ٤ فبراير ١٩١٥ في لندن» أجبت بسرعة.

«هذا صحيح» قال العامل واضاف «وأول فيلم له اسمه بائع الحقائب».

«أوه لا لا، هذا غلط. أول فيلم لنورمان هو TROUBLE IN STORE ويعني «مشكلة في المخزن» كما قال لي قرياقوس.

نزل عامل السينما، واقترب من عربتي «لا تحزن جويي» قال وهو يتناول كأساً فارغة، ملأها بالأزبري ونظر اليّ وكنت لا أزال واقفا بالقرب من لوحة الاعلانات، حاملاً أجزاء الملصق.

«اسمع جويي، ما رأيك لو جعلتك تشاهد الفيلم لوحدك»؟

«إي، الله يخليك»

«سأجعلك تشاهد الفيلم هذا المساء، ولكن بشرط أن تساعدني في تنظيف قاعة العرض، بعد خروج الجمهور».

«والله أنظف كل السينما والممرات» قلت وأخذت الكأس من يده وأعدت ملأها ثانية، مضيفاً «أقدر ان أكنس السينما كلها في مدة نصف ساعة».

لكن عامل السينما عاد وأدخل الخوف إلى قلبي، قائلاً:

«ولكن هناك شرط آخر».

«ما هو؟»

«أن يبقى هذا سراً بيننا. لا تخبر أحداً بذلك، كما انني سأعطيك شرائط مقطوعة من كل الافلام».

«بالمسيح، لن أفشي السر أبداً».

«أتفقنا» قال عامل السينما.

عندما اقتربت بعربتي من المنزل، هرع نصرت شاه نحوي وهو يعرج على قدمه اليسرى، وقال لي (بدا متوجسا من ردة فعلي) «سامحني يا ولدي، كنت متعباً ولم استطع المجيء، سامحني». ثم نظر اليّ باستغراب وكأنه غير مصدق، اذ انني مددت له النقود مبتسماً دون أن أتفوه بأي كلمة.

«خذ هذه مائة فلس بدلا من خمسين، وسأعطي أمك أجرة يومين بدلاً من يوم واحد، ما رأيك؟» قال.

كان نصرت شاه مستعداً لأن يعطيني أي شيء لو انه فقط رأى أدنى ملمح للغضب في وجهي. كان يعرف انني عندما أغضب أهرب من العمل ولا أعود الا بقرار من رأسي الصغير.

عندما رجعت إلى السينما في ذلك المساء، قلت لأمي «سأذهب إلى البار لأجلب أبي».

ذهب عامل السينما ليجهز ماكينة العرض، كما قال لي، بينما بدأت، وبهمة عالية، بكنس النفايات المكدسة تحت المقاعد الخشبية. وبين لحظة وأخرى، كنت أنظر إلى الشاشة البيضاء، وكم تمنيت لو أن نورمان ويزدوم يخرج من الشاشة ويأخذني معه. كنت سأذهب معه بلا أي تردد، ربما كنت سأطلب منه أن نترك رسالة لأبي أخبره فيها انني لن أنسى صداقتنا أبداً. فجأة انطفأت الاضواء.

«انتظر، لا تشغّل الفيلم، لم أنته من الكنس بعد». ظللت أصرخ وسط الظلام.

لم أسمع جواباً.

«هيي، اشعل الاضواء، اشعل الاضواء...»

ولما طال الصمت المظلم، دبّ الخوف في قلبي، ألقيت المكنسة وبكيت، فجأة ظهر عامل السينما من بين المقاعد وهو يقول «لاتخف، سأعرض لك الفيلم، ستشاهده لوحدك».

«أريد أن أخرج.. أريد أن أخرج» ظللت أردد منتحباً.

«اهدأ اهدأ» قال العامل وهو يعانقني ماداً يديه ليفك أزرار بنطالي «سأعطيك الكثير من شرائط الأفلام، وصور المجلات».

«أريد أن أخرج، اتركني، أتركني..»

«لقد قلت لك بانني سأعطيك شرائط أفلام حقيقية»

«أتركني» صرخت بأعلى صوتي وأنا أتذكر (برجو وهو يطعن المرابي العجوز سيكولالا) مسكت يد عامل السينما وعضضتها بكل قوة حتى كدت اقتطعها من ذراعه، فأطلق صرخة ألم هزت القاعة، ثم وجه لكمة قوية إلى وجهي ودفعني نحو الأرض وراح يركلني بقدميه، فأخذت أزحف بين الكراسي باتجاه المَخْرج.

«سأدمر وجهك ووجه كيكا الأخرس الأطرش، إذا رأيتك تدخل السينما، يا ابن الكلب» كان صوت عامل السينما ينطلق من قلب القاعة المظلمة.

جلست تحت مصباح الشارع، حائراً بين الذهاب إلى البار والعودة إلى البيت. ولا أدري كم من الوقت مرَّ عليّ حتى رأيت ظله إلى جانبي. عندما رأى الدموع على خديّ اعتقد أبي انني اطلب مصالحته، وان خوفي منه قد منعني من الذهاب إلى البار لرؤيته. وضع سبابتيه، جنبا إلى جنب «نحن صديقان»، ثم ضمني إلى صدره، وبخطى ثقيلة وبطيئة قادتنا أقدامنا إلى البيت.

***

منذ اليوم الأول لدخولي المدرسة، لم أبدُ غريباً لا في الصف ولا في المدرسة. فالتلاميذ والمعلمون عرفوني منذ سنين كبائع متجول، إلا انهم اخذوا ينظرون اليّ الآن كبائع وتلميذ معاً. منذ اليوم الأول أيضا، اكتشفت ان اسمي ليس جويي، وان كيكا ليس اسم أبي. فقد ظل المعلم الواقف عند السبورة ينادي أكثر من مرة «شموئيل شمعون» دون أن يسمع جوابا. ثم تقدم مني، وبعصاه الخيزرانية ربّت على رأسي قائلاً «عندما أناديك بأسمك، قف وقل نعم استاذ» فضحك بقية التلاميذ.

«لكنني لم أسمع اسمي استاذ»، قلت

«ما اسمك»؟ سأل المعلم.

«جويي كيكا، أستاذ».

«أوه» ضحك المعلم وهو يضرب بعصاه في كفه اليسرى. «لا يا ابني، ان اسمك في المدرسة هو شموئيل شمعون، يمكنك أن تكون جويي كيكا خارج المدرسة، عندما تعمل كبائع متجول».

أجبته بخجل «نعم استاذ».

حين عاد المعلم إلى مكانه عند السبورة قال» شموئيل لا تنس أن تحلق شعرك».

«نعم استاذ» أجبته واقفاً، وقد شعرت ببعض الحرج اذ انتبهت إلى انني كنت الاكبر سناً بين التلاميذ، وربما كان ذلك هو السبب الذي جعل المعلم يعينني مراقباً على الصف.

كانت أمي جالسة عند عتبة البيت، ألقيت بنفسي في حضنها. وكعادتها راحت تبحث عن القمل بين شعيرات رأسي. ورغم انها لم تعثر على اي شيء، رددت ما كانت تقوله في حالات (الاصطياد).» ألف مرة قلت لكم، انتبهوا من أولاد العرب، فرؤوسهم مليئة بالقمل».

«يام».

«نعم».

«من هو شموئيل؟» سألتُ أمي وأنا أتطلع إلى الثياب المعلقة على الحبال.

«انه نبي».

«من اختار لي هذا الأسم؟» كانت عيناي لا تزالان تتطلعان إلى الثياب المتراقصة وهي تمرر لنا هواء بارداً في تلك الظهيرة القائظة. فروت لي بنبرة حزينة»:

«في اليوم الذي ولدت فيه، زارنا قرياقوس وسألني ان كنت قد اخترت لك إسماً. كنت وحيدة، وكنت محتارة في تسميتك، فأخذ قرياقوس الكتاب المقدس وفتحه، ثم سألني عن رأيي في اسم شموئيل، فوافقت على الفور».

«أين كان أبي؟»

«كان قد دخل المستشفى لاجراء عملية جراحية..»

«ألهذا تسمونني، (النحس) كلما غضبتم مني؟»

مَسَحَتْ وجهي بيدها، وأمالت رأسي نحوها. نظرت في عينيَّ وقالت باسمة والدموع تملأ مقلتيها «أن لكَ عينين جميلتين يا ولدي، مثل عيون القحاب». ثم نهضت وهي تمسح دموعها، مضيفة «خذ أخاك روبن واذهبا إلى الحلاق يونان لكي يقص شعركما، ومن هناك اذهبا إلى المصور اسرائيل ليأخذ لكما الصور، وقل لهما بأن أباك سيدفع لهما في نهاية الاسبوع».

فيما بعد أخبرتني أمي حكاية مختلفة عن كيفية اختيار اسمي: كانت احدى جاراتنا تدعى سورما، وكانت امرأة عاقر. وعندما كانت أمي حاملا بي، قالت لها سورما «اذا كان ولدا، أرجوك سمّه شموئيل». كان حلمها دائما أن تنجب ولدا لتسميه شموئيل.

عندما ذهبنا إلى المصور قلت له «عمو اسرائيل، أرسلتنا أمي وقالت خذ لنا ثلاث صور وسيدفع لك أبي في نهاية الاسبوع».

«على عيني ورأسي» رد المصور وهو يداعب شعر روبن ويدخله إلى الستديو.

كان محل التصوير نظيفا ومرتباً بعناية. تأملت الصور المؤطرة بأخشاب مزخرفة ومعلقة على الجدران وأخرى الموضوعة في «الفترينة». صور لبعض سكان المدينة، صور لطيارين انكليز، وكانت هناك صورة بالاسود والابيض لامرأة جميلة، موضوعة على حدة، ظللت أحدق فيها حتى خرج اسرائيل وروبن من غرفة التصوير.

«من هي هذه المرأة»؟ سألت اسرائيل.

ضحك «تعال يا ولدي تعال، لقد تأخرت، وحان موعد العودة إلى المنزل».

«انها جميلة جداً». قلت وأنا أصوّب نظري في عدسة الكاميرا أمامي، بينما غطى اسرائيل رأسه بالقماشة السوداء. وبعد أن التقط الصورة أجابني مباغتاً.

«طبعاً جميلة، انها ملكة هوليوود».

«ملكة هوليوود!»

«لكن قرياقوس لم يحدثني عن أي ملكة في هوليوود».

«حسناً يا جويي، اسأل صديقي قرياقوس عمن تكون مارلين ديتريش».

حين جاء قرياقوس إلى غرفة السينما، لم أنس أن أسأله عمن تكون مارلين ديتريش. فأجابني بشيء من اللامبالاة: «من حدثك عن هذه الممثلة المملة؟».

لم أقل شيئاً.

كان قرياقوس متحمسا لذهابي إلى المدرسة، قائلا «انها مفيدة فقط لتعلم القراءة والكتابة، خصوصا لولد عبقري مثلك».

«والشهادة؟».

«أي شهادة، جويي. لا تكن غبياً. جاك فورد لم تكن عنده أي شهادة مدرسية. ان المدارس لا تخلق العباقرة. لقد فهمت ذلك مبكراً». ثم أشار إلى صندوق صغير كان قد جلبه معه «هل تعرف ماذا يوجد في هذا الصندوق؟»

«ماذا يوجد فيه؟»

«اسمعني جويي، فكرت طويلاً وقد رأيت انك على حق عندما أهملت «سينما الظل»، لانها مملة، تماماً مثل تلك الممثلة التي ذكرت لي اسمها قبل قليل. لذلك قررت أن أهديك هذا الصندوق السحري الذي أحتفظ به منذ اكثر من ثلاثين سنة. هذا الصندوق سينما حقيقية يا جويي، سينما حقيقية».

كان الصندوق مربع الشكل، مصنوعا من خشب الفايبر، ومثقوبا من طرفيه. في الثقب الامامي مصباح مفرّغ من احشائه ومليء بالماء،

والثقب الخلفي يمر فيه شريط فيلمي طويل مربوط ببكرة الفيلم. وهناك مقبض صغير نستطيع من خلاله تدوير البكرة، وبالتالي الشريط السينمائي.

وضع قرياقوس صندوقه فوق السطل. «ابق في مكانك». قال لي وخرج من الغرفة. من خلال المرآة التي كانت بيده راح يعكس ضوء الشمس نحو المصباح المليء بالماء، فظهرت على الحائط صورة هنري فوندا وهو يرتدي ثياب (السكاوت) الزرقاء.

«انها حقاً سينما». نظرت إلى قرياقوس بذهول «ولكن من أين سنأتي بالافلام؟».

«عندي كميات كبيرة، احتفظ بها في مكان ما، ستراها وستعجبك» رد قرياقوس ثم خطف نظرة سريعة نحو المربعات التي تطرز قميصه وأضاف بصوت هامس «لو كانت عندي كاميرا ومختبر للتحميض لصورتك أنتَ وكيكا».

جلس قرياقوس في الزاوية، فجلست إلى جانبه، وقد لاحظت ان الدموع بدأت تتجمع في عينيه، أدار وجهه صوب الصور المعلقة على الجدران، وقال بنبرة حزينة «لا أدري لَمَ لمْ أصبح سينمائياً، مع ان السرجنت مايك كان قد اعترف بدرايتي ومخيلتي السينمائيتين. اسمعني يا جويي، عليك ان تتعلم السينما بل يجب ان تصبح سينمائياً. أنا واثق من نجاحك، وإلا لما أهديتك سينمتي هذه. أريدك فقط أن تكبر، بعدها سيكون كل شيء سهلاً».

كان منظر قرياقوس مؤلماً. وقد شعرت بأنه يتوجب عليّ أن أبعد عنه همومه، فسألته مبتسماً.

«قل لي قرياقوس، كيف هي صحة جون فورد؟ كيف حاله الآن؟».

«أوه، ممتازة. انه بصدد التحضير لفيلم جديد اسمه SEVEN WOMEN»، ثم التفت اليّ وقال مبتسما «مرة أخرى لا تقل جون فورد، بل جاك فورد كما يناديه أصدقاؤه».

«صديقي جاك فورد» قلت في نفسي.

قرياقوس يفي بوعوده دائماً. بعد اسبوع جاءني بسبع بكرات من الافلام، وكل واحدة منها تدوم لبضع دقائق، وهي مقتطعة من افلام مختلفة. قام قرياقوس بلصقها بتناغم. هناك بكرة لأفلام الويسترن، وبكرة للافلام الاستعراضية وأخرى للأفلام البوليسية..

ولما عرضت هذه الافلام على اصدقائي، فرحوا كثيرا حتى انهم صاروا يتجمعون امام غرفة السينما، منتظرين عودتي من العمل. بواسطة سينما قرياقوس، أصبحت أرى نجوم هوليوود على جدران غرفتي، تماماً مثلما في صالات السينما. كنت أعكس الشمس في المصباح المليء بالماء، وأترك صور الممثلين منعكسة على شاشتي، أحدق في وجوههم، أحفظ ملامحهم، انظر إلى ثيابهم، إلى تسريحة شعرهم، وحين تغيب الشمس وتبدأ الصور بالتلاشي، كان يتفجر في سري سؤال «لماذا لا تشرق الشمس في الليل، يا الله؟».

أحب أبي عارضة الأفلام الجديدة، وكان سعيدا وهو يمضي معي وقته في مشاهدة أفلامي. وقد أبدى انزعاجه لأنني أضيع فترة ظهور الشمس بالعمل مع الأعرج ذي الاصابع الثلاث (نصرت شاه، حسب لغة أبي). عندما أشرت له بضرورة العمل من أجل كسب القليل من النقود، هز رأسه نافياً وهو يشير إلى السماء ويغمض عينيه ثم يهز يده يمنة ويسرة: «كيف نعمل السينما في الليل؟».

***

كان نصرت شاه قد علمني صناعة «العنبة» التي نبيعها في الشتاء (وأحيانا في ليالي الصيف). كنا نصنع العنبة في منزل نصرت شاه، وكنت أقول للزبائن: اننا نستوردها من بومباي مصنوعة من أجود التوابل الهندية. في أحد الأيام طلب مني أحد الزبائن، أن أقسم له بأنها مستوردة من الهند، فأقسمت له «بالامام علي بن ابي طالب انها مصنوعة

في بومباي»، لكن الزبون لم يصدقني طالباً أن أقسم له بالمسيح فأقسمت «بالمسيح انها مصنوعة في بومباي». طبعا، فكرت في لحظتها انني أكفر، ولكنني كنت اعرف، من خلال ما سمعته من أمي وأمهات الاصدقاء، ان الملائكة تبدأ بتسجيل ذنوب الانسان بدءاً من سن الرابعة عشرة.

كان موسى، المنافس القوي والوحيد لنصرت شاه في بيع ساندويتشات العنبة، هو الشخص الوحيد الذي اعترفت له بأننا نصنع العنبة في المنزل وانني «أنا من يصنعها في اغلب الاحيان». وقد وجدت نفسي مضطراً لهذا الاعتراف. فذات مساء، وكنت أبيع العنبة امام صالة السينما، اقتربت من موسى الذي كان ينهي ساندويتشاته قبلنا ويغلق عربته عائداً إلى بيته. ذهبت اليه هامساً «عمو موسى، الله يخليك اترك لي ساندويتشة جانبا قبل ان تنهي كل شيء»، في ذلك المساء ضحك موسى وهو يرفض ان يأخذ النقود من يدي الممدودة وقال «الأسطة الحقيقي لا يأخذ النقود من أسطة حقيقي». ثم أضاف مستدركاً بشيء من الدهشة «ولكن يا أسطة جويي، أليس غريباً أن تعجبك عنبتي وهي مثل عنبتكم مصنوعة في بومباي». هنا لم أجد مفراً من الاعتراف. انتظرت بضع لحظات حتى ابتعد أحد زبائنه فقلت له بصوت خفيض «ان عنبتنا مصنوعة في منزل نصرت شاه، عمو موسى».

«اذن» قال موسى مبتسماً «عنبتكم مصنوعة في باكنغهام بالاس».

«لا يا عمو موسى، باكينغهام بالاس هو بيتنا وليس بيت نصرت شاه» وضحكنا.

ملأت السطل الأصفر بالماء حتى منتصفه، أفرغت فيه نصف كيلو من الكركم، أضفت خمس ملاعق صغيرة من الملح، ثلاث حبات من الليمون دوزي، مائة شريحة رقيقة من الباذنجان (منقعة طيلة يومين في عصير الفلفل)، عشر قطع من البطاطا، عشر قطع مهروسة من الفلفل

الشديد الحرارة، ثم شرعت أخلط بيدي كل هذه العناصر لمدة عشر دقائق، وبين لحظة وأخرى كان نصرت شاه يغمس واحدا من أصابعه الثلاث في السطل، ليتذوق المنتوج (الذي أقسم انه مصنوع في بومباي). ثم يأتي بزجاجة كبيرة فيها كيلو من العنبة الأصلية المستوردة حقا من الهند ويفرغها في السطل، فأعود أحرك هذا الخليط العجيب لبعض الوقت ثم أفرغ السطل في خمسة أو ستة برطمانات، بعدها انطلق على باب الله.

جويي، الله يخليك ربع ساندويتشه

جويي، الله يخليك نصف ساندويتشه

شموئيل، الله يخليك ربع ساندويتشه

أذكر انني التفت إلى هذا الاخير منبهاً إلى أننا خارج الصف «اذا ناديتني بشموئيل فلن تذوق ساندويتشات العنبة طول عمرك».

«حسنا، جويي» قال التلميذ معتذرا.

قبل أن أسمع جرس المدرسة بدقيقتين كنت أجمع «عدة الشغل» وأضعها في العربة وأدخل إلى الصف. وبعد ثلاث وأربعين دقيقة من الدرس، كان المعلم ينظر إلى ساعته، فيلتفت التلاميذ نحوي. كانوا يعرفون انه سيشير اليّ برأسه كي أخرج قبلهم بدقيقتين، لأقف وراء عربتي وأبيع لهم ساندويتشات العنبة: «جويي، ربع ساندويتشه.. جويي نصف ساندويتشه».

مرة واحدة فقط، اضطر المعلم إلى أن يعاتبني، وان بنبرة تفادت جرح قلبي الصغير: «جويي، عفواً أقصد شموئيل، أعرف ان عنبتك لذيذة ولكن حاول ان تتخلص من رائحتها العالقة بثيابك».

***

رأت أمي أن هوس أبي بصندوق السينما أو «سينما قرياقوس» قد

حوله إلى طفل، أو كما قالت «مثل الزعاطيط، معجب بالصور التي يعكسها جويي على الجدران» ورَجَتْ أمي قرياقوس أن ينبه أبي إلى ان عطا الله، (صاحب المخبز) قد شكا اليها منذ يومين «ان كيكا لم يعد يهتم بعمله، وصار كثيرا ما يحرق الصمون، والعديد من زبائني تحولوا إلى مخبز الأرمنية السمينة». وذكرت أمي ان عطا الله اخبرها قبل ذهابه «لقد أنهى ابني الجندية، ويفكر في الزواج، وهو يبحث عن عمل» ثم نظرت إلى قرياقوس حائرة «أليس هذا انذاراً يا قرياقوس»؟.

«الناس يذهبون إلى مخبز الأرمنية السمينة لأن مخبزها موديرن، وليس بسبب كيكا» رد قرياقوس.

«ولكن ألا ترى ان الصندوق، الذي جلبته لجويي، هو سبب مشاكلنا؟ لا أدري كيف سنعيش إذا قرر عطا الله طرد كيكا من الشغل»؟.

«ماذا تريدينني أن أفعل، إذا كان زوجك حساسا جدا، ولا تفتنه في هذه الدنيا، إلا الصورة؟» تساءل قرياقوس مبتسماً بطريقة مقصودة لاثارة غضب أمي.

وأثناء الغداء، افتعل أبي معركة مع أمي. فهمت من خلال متابعة اشاراته انه كان يقول لها: «اننا وافقنا ان يخرج جويي إلى العمل، لأن شمشون وتيدي وابراهيم كانوا يذهبون إلى المدرسة. أما الآن، فجويي اصبح تلميذاً هو الآخر» ثم وضع يديه حول خصره. وهذه الحركة تعني (ما رأيك؟ وأذن؟ ماذا تقولين؟). أجابته أمي بأن رسمت فوق رأسها عدة دوائر، قعَّرَتْ خديها، شَبَكَتْ اصبعيها الصغيرين ثم حلّتهما (ان صاحب العقال، الرجل النحيل، أي عطا الله، غاضب ويريد ان يسرحك من العمل). فرد أبي بأن أطلق عفطة قوية من فمه (لا يهمني). ثم أشار إلى مؤخرته (طُز). ولما حاولت سكينة ان تفض خلافهما، صرخ في وجهها وهو يرفع يديه في الهواء (هذا أمر لا يعنيكِ). فوضعت سكينة أمامي

صحناً من الرز مغطى بمرقة الفاصوليا، إلا ان أبي جرّني من يدي نحو غرفة السينما مشيراً إلى الشمس وهو يضرب بسبابته اليمنى على رسغه الأيسر (الوقت يمضي).

قال لي بأشاراته بأنه مستاء من عملي مع نصرت شاه، وانه يجب ان يكون عندي وقت للعب مثل بقية الاولاد. وان عمل الصور المتحركة (أشار إلى صندوق قرياقوس) أهم من العمل مع صاحب الكف ذي الاصابع الثلاث. ورسم لي برنامجاً يومياً فيما إذا توقفت عن العمل: (تستيقظ في الصباح، تأتي إلى المخبز لتأخذ الصمون، تصنع ساندويتشه وتذهب إلى المدرسة، تقرأ وتلعب مع الاولاد، وفي الظهيرة أكون أنا قد عدتُ من المخبز، نستغل النهار في صنع السينما، وحين اذهب إلى المخبز لعمل الوجبة المسائية، تنشغل أنت بتحضير دروسك، وفي المساء تذهب إلى السينما بعدها تلحقني في البار) وبذراعيه طوّق خصريه (ما رأيك؟ ماذا تقول؟)

ابتسمت له ودققت بسبابتي على طرف جبيني (دعني أفكر). وحين لاحظت انه انزعج قليلاً، لم أترك له المجال ليقترح عليّ برنامجاً آخر، اذ خرجت مسرعاً، ثبَّتُ مرآتي، التي راحت تسرق حفنة من الشمس وتقذفها نحو صندوق السينما، آنئذ وجد أبي نفسه منهمكا في تعديل الصورة المنعكسة على جدار الغرفة، وحين صفقتُ له اعجاباً، أطلق العنان لمخيلته وصار يحرك الصندوق من مكانه، إلى الأمام، وإلى الوراء، إلى اليمين أو اليسار. كان يخرج منديله الابيض من جيب بنطاله الخلفي، يمسح وجهه ورقبته ويعيد المنديل إلى مكانه ليترك جزءا منه بارزا مثل اذن الكلب. كانت الصورة التي انعكست على الحائط لفيكتور ماتيور متكئاً على البار وهو يرتدي ثياباً سوداء وبيده مسدس. وحين أدار أبي بكرة الفيلم ببطء، تحركت الصورة فدخل الكادر رجل يرتدي قميصاً أبيض وصدرية سوداء، ألقى بمسدسه على الطاولة أمام فيكتور ماتيور.

قليلاً قليلاً تتكشف الصفحة اليمنى من وجه الرجل فنعرف انه هانك فوندا. فجأة، وبحركة سريعة، مدَّ أبي يده في عمق الصورة، وسحب المسدس وأطلق النار عليّ. بخ بخ بخ. وضعت يدي فوق بطني ثم وقعت على الأرض ميتا. ولم أنهض الا بعد ان سمعت تصفيقه.

ضحكنا ولعبنا وضحكنا حتى اختفت الصورة من على الجدار، لننتبه إلى ان تيدي وابراهيم وبيوس وجليل الياباني واقفون عند الباب وقد حجبوا عنّا ضوء الشمس. مدَّ أبي لسانه ساخراً من الاولاد، ثم ذهب إلى البيت.

«ماذا فعلت بأبيك يا جويي؟. لقد ذهب إلى المخبز والفرح يملأ وجهه».

استرجعت كلام أمي وأنا أبيع الساندويتشات أمام صالة السينما. تساءلت مع نفسي كيف ان ساعة من اللعب بصندوق السينما جعلت أبي يذهب إلى العمل «والفرح يملأ وجهه» فماذا لو انني اترك العمل مع نصرت شاه وانفذ البرنامج الذي رسمه لي، أو بالاحرى لنا؟. من المؤكد انني كنت أود أن أراه سعيداً، ولكن من دون التخلي عن نصرت شاه. ظللت ألبي طلبات بعض الزبائن وذهني مشغول بأبي، حتى أنني لم أعر أي انتباه لذلك الكلب (عامل السينما) الذي مرّ من أمامي فاتحاً ذراعيه بطريقة استعراضية ليريني انه يشتري ساندويتشه من منافسنا موسى. كنت منشغل الذهن بأبي دون أن يخطر ببالي، ولو للحظة واحدة، انه سيحاول في تلك الليلة ان يرتكب (جريمة) بحق نصرت شاه.

أسود، كل شيء كان أسود من حولي. وبلا بوصلة كنتُ أسير عارياً ووحيداً. وحين شعرت بالبرد والعطش. غطتني فجأة، من رأسي وحتى أخمص قدمي، ملاءات سوداء، ما أن شممت رائحة البخور المنبعثة منها حتى انطلقت في أعماقي صرخة استنجاد «سكينة». ولم تمض بضع ثوان

حتى ظهر خيط طويل ونحيل من الضوء ظل يرقص يمنة ويسرة حتى استقر مستقيماً عند قدميّ، ففهمت انه يتوجب عليّ ان أتبع الخط الضوئي كدليل. ظللت أمشي وأمشي حتى أنتهى الخط الضوئي عند بحيرة ينبعث من مياهها نور قوي كأنما ثمة مرآة تعكس الشمس من قاع البحيرة إلى الخارج. ابتسمت عندما رأيته جالساً على صفحة الماء، غير بعيد عني، وجه حنطي ومدور، لحية سوداء، عينان لامعتان، عمامة خضراء تغطي شعره الكستنائي، وهو يمسك بيديه خطاً طويلاً من الضوء. مددت يدي لأغرف حفنة من الماء، فاختفى الرجل والضوء معاً، فاستيقظت من نومي. وجدت نفسي ممدداً وسط إخوتي النائمين في ظلام الغرفة، وشخير أمي ينطلق من حنجرتها ناعماً كمعزوفة تآلفنا معها لانها كانت تبعث فينا الطمأنينة كلما نجونا من كوابيسنا.

جلتُ بنظري في أرجاء الغرفة، استغربت غياب أبي وأنا أنظر إلى الكوة الزجاجية الموجودة في السقف. أين تراه يكون في مثل هذا الوقت؟ تساءلت وأنا اعرف ان ميخائيل أو ميخا كما يناديه زبائنه، نائم الآن إلى جوار زوجته، بعد أن أغلق حانته. خرجتُ من فراشي لأرى إن كان أبي قد ألقى بنفسه عند عتبة البيت مثلما كان يفعل حين يعود منهكاً من الشرب ولا يريد أن يزعجنا برائحة خموره.

كان الليل هادئا إلا من نقيق الضفادع القادم من «حنفية الغسيل». تلك الضفادع التي لَم نعرف ابدا اين تختبئ في النهار. وقفت حائرا للحظات، وقبل ان اعود إلى فراشي، سمعت بعض الضجيج على مبعدة أمتار قليلة، بالضبط قرب غرفة السينما. لم أفكر باللصوص، اذ لم يكن في حيّنا سوى لص واحد، وهو حسوني، الذي تجرأ مرة وسرق احدى دجاجات سكينة، فلحقه شمشون وجلده خمسين جلدة بحزامه العسكري، الذي أهداه اياه أبي لاستخدامه في مثل هذه المواقف. يومها قال لنا شمشون ان حسوني كان منبطحاً على الأرض وهو يتلقى لسعات

الحزام ويصرخ «اقسم لك بالمسيح انني لن أعيدها ثانية». لكن شمشون استمر في جلده صارخا «سأسلخ جلدك كما تفعل بالدجاج، ان رأيتك ثانية في زقاقنا، يا سارق الدجاج». لكن «سارق الدجاج» انتظر اكثر من شهر وهو يعد لخطته الانتقامية. فحين علم حسوني ان أباه القصاب قرر الانتقال إلى مدينة الفلوجة قام بتنفيذ خطته الدنيئة. كنتُ عائداً من السينما في المساء، وكان حسوني مختبئاً خلف احدى زوايا «المرحاض العام» عارفاً الطريق التي أسلكها، عندما اقتربت منه هجم عليّ بصقاً وضرباً «قُل لأخيك ان حسوني لن يترك الحبانية، إلا بعد أن يفتح بطنك كما يفعل أبي مع خرافه»، ثم هوى بمنفاخ الدراجات الهوائية على رأسي، ورأيته يضع طرف دشداشته بين أسنانه وينطلق. في ذلك المساء اندهشت أمي لمنظر الدم الذي كان يغطي وجهي (بالنسبة لي كنت سعيداً بالدماء النازفة من رأسي، اذ أحسست أنني أشبه برجو) فأخذتني إلى منزل منظف المستشفى وسارق الأدوية، هارون، (والد صديقي زيّا) الذي ضمد الجرح ثم ربط رأسي وقال ضاحكا «ما زلت صغيرا يا جويي، ما زلت في سن التئام الجروح العابرة». وظلت أمي تشكره طوال الوقت، دون ان تعرف أن هارون كان سعيداً وهو يضمد لي رأسي، اذ انه كان يعتقد انه وُلِدَ ليكون طبيباً، أو على الأقل ممرضاً، وليس منظفا بائساً. وأخمن انه لم يكن يعتبر الأدوية التي يخبئها بين ثنايا جوربيه وعبّه عند الخروج من المستشفى كل يوم (كما وصف لنا ذلك، زيّا، ذات يوم وكان غاضبا من والده)، أدوية مسروقة، بل، بالعكس، كان مؤمنا بانه يجعل من بيته مستوصفا للطوارئ.

تذكرت حسوني، سارق الدجاج، الذي بقي في الحبانية بعد أن تراجع والده عن الانتقال إلى الفلوجة، وقلت ربما عاد ثانية إلى السرقة، رغم انني اعرف انه وشمشون قد تصالحا وصارا صديقين، بل وخططا سوية لبعض السرقات. حين اقتربت من غرفة السينما شممت رائحة نفط، ثم رأيت أبي يفرغ غالونا من النفط فوق العربة. ولما رآني أخرج

من جيبه علبة الكبريت، فاندفعت مسرعا نحو العربة ووقفت أمامه. بصق أبي على العربة ونظر اليّ بغضب. وبعد لحظات أعاد الكبريت إلى جيبه، وبدأ يرتجف ويسعل. ابتسمت له ثم رحت ادفع العربة بكل قوتي، صوب «حنفية الغسيل». ولا أدري ان كان أبي قد شعر بالندم، أم أنه أفاق من سكره، اذ جاء إلى حنفية الغسيل حاملاً علبة من مسحوق «التايد» أفرغها فوق العربة وغسلناها. ثم خلعنا ثيابنا وغسلناها هي الاخرى، رغم البرد.

في الصباح، دارَ نصرت شاه حول العربة أكثر من عشر دورات وأصابعه تندس تحت قبعته وتحك صلعته، مندهشاً من نظافة العربة ولمعان لونها الاخضر. كنت أدور خلفه وأكرر على مسمعه «أبي أبدى انزعاجه من وساخة العربة مساء أمس ونحن عائدان من البار، وهو الذي اقترح عليّ القيام بتنظيفها». بعد تفكير طويل أقتنع نصرت شاه بكلامي ومنحني اجازة لمدة يومين «لكي تعرض عليه أفلامك حتى يشبع منها» وأضاف وهو يربت على رأسي «وبدءا من اليوم، اعتبر كل يوم أحد يوم عطلتك، كما يفعل الانكليز، وشاكر الهندي». وقد فرح أبي، خصوصا وان الاجازة جاءت في الوقت الذي نجحت فيه بدرجة الاول على الصف، في امتحانات نصف السنة.

لكن أحدا لم يكن يعلم أن النيران، التي أراد أبي إشعالها في عربة نصرت شاه، كان لابد لها ان تشتعل في مكان آخر، وبفظاعة أكبر، في بيتنا.

***

في أحد صباحات ايلول (سبتمبر)، أيقظني نصرت شاه. وبدوري أيقظت أبي وأنا أضرب له على رسغي الأيسر (وقت النهوض). مددت له يدي وسحبته، حين وقف على قدميه، أرسل ركلة من قدمه اليسرى نحو مؤخرتي كتمرين يفتتح به يومه الجديد. كنت اقوم بتجهيز المناخل

وأكياس الخيش فيما كان علي يكرر «شمس أيلول لا تصنع ملحاً يا أبي». فيرد نصرت شاه: «قلت لكم اذهبوا وسترون».

«يا الهي، شمس أيلول لا تصنع ملحاً» كرر الاستاذ علي، الذي كان، حالما نعود من جمع الملح، يغتسل ويرتدي ثياباً نظيفة، ويتجه مسرعاً نحو بوابة المدينة، ومن هناك يأخذ الباص إلى مدينة الرمادي حيث يعمل معلماً.

«شمس البارحة كانت أكثر حرارة من شمس آب، افعلوا ما أقول» حسم نصرت شاه الموضوع وهو يضع «تربته» على السجادة الصغيرة ويؤدي صلاة الفجر، دون أن يعرف ان البارحة كان يوم أربعاء، وانه من الطبيعي أن تكون الشمس ساخنة «لأن الله خلق الشمس في يوم الاربعاء» استناداً إلى معلومات أمي.

كانت مشاعر الأسى تثقل ألسنتنا وخطواتنا، حين عدنا من مستنقعات الملح، بعد أن أمضينا أكثر من ساعتين ونحن نغطس مناخيلنا في المستنقعات دون أن نحصل إلا على كميات ضئيلة من الحبات البيضاء، التي كانت تذوب وتتلاشى ما أن نضعها جانبا.

كنا عائدين بخطى مثقلة، عندما رأت عيوننا النيران وهي تلتهم بيتنا الصغير. كانت أمي تحك بطنها المنتفخة وهي تبكي، فيما كان قرياقوس (ما الذي جاء به في تلك الساعة؟) وشمشون يتسلمان أسطال الماء من أيدي تيدي وفاطمة وابراهيم وشميران وبعض الجيران ويفرغونها في عمق النار.

«أين روبن؟» سألتُ شميران، بينما هرع علي وحسين للانضمام إلى فريق الاطفاء.

«أرسلته إلى المخبز لينادي أبي».

كنت أجري نحو حنفية الغسيل، أملأ السطل وأناوله لقرياقوس، وأنا أفكر بالهلع الذي سينتاب أبي حين يؤشر له روبن بأصابعه الناعمة نحو

نيران الفرن ثم يرسم بكفيه النحيلتين شكلاً هرمياً ويقرّب يديه من ثدييه (ان لهيباً كهذا الذي في جوف الفرن، يدب في منزل الأم). وقد يسقط أبي مغمياً عليه وهو يتخيل النيران التي تقترب من «قلبه» المخبأ في صندوق الشاي الخشبي.

كانت أمي كعادتها قد وضعت اناء صنع الشاي فوق الطباخ النفطي وذهبت لتغسل الثياب عند حنفية الغسيل ظلّت المياه تغلي في الاناء حتى فاضت ولامست الفتيلة المشتعلة، فارتفعت النار قليلا قليلا حتى وصلت إلى النافذة الخشبية التي تفصل بين غرفتي المنزل، ومن ثم لتصل إلى الاعمدة الخشبية التي تسند السقف. وقد فوجئت شميران، التي كانت نائمة مع بقية اخوتي عند عتبة المنزل، بحرارة غير طبيعية تسري في جسدها، فاستيقظت لتكتشف الحريق مبكرا.

حدّق قرياقوس فيّ وهو يأخذ مني سطل الماء، فبدا متعباً أو ربما يائساً من طريقة اطفاء النيران. نظرت اليه فأحسست انه يتقصد فتح عينيه على وسعهما، كأنه يدعوني للغوص فيهما. شيئاً فشيئاً، لمحت من بعيد (برجو يسقط من فوق حصانه، عند قدمي أمه ثم يخرج من عبّه المجوهرات التي استعادها من المرابي سيكولالا). ابتسم قرياقوس بخفية، كأنه شعر ان الأشعة التي اطلقتها عيناه العميقتان قد عكست صورها في قاعة العرض في رأسي. ابتسمت له وأنا أتناول كيسا من أكياس الملح الفارغة، أغطستها في الماء ووضعتها فوق رأسي وقفزت في عمق النيران «قرياقوس خوني، بيّتْ قطلت بروني. قامودي آلاها، قامودي بيّتْ قطلتيه؟»[1] كانت تصرخ أمي.

قطعت أنفاسي وأنا أجتاز الغرفة الأولى. كان البخار المتصاعد من الكيس يحرق كتفي ورقبتي. حين وطئت الغرفة الاخرى الصغيرة رحت

(١) «قرياقوس خوني، بيّتْ قطلت بروني. قامودي آلاها، قامودي بيّتْ قطلتيه؟»: أخي قرياقوس، أتريد قتل ابني، لماذا يا الهي، لماذا تريد قتله؟

ألمس الصندوق الاول ثم الثاني ثم الثالث. كنت أفرغ محتويات الصندوق وأنا أسعل طوال الوقت، إلى أن لمست يدي صرّة أبي، سحبتها وخرجت.

«شيدانا برونتْ شيدانا»[1] صرخت أمي فيما أفرغ قرياقوس عدة أسطال من الماء فوق جسدي.

«شيدانا برونت شيدانا» عاودت أمي وهي لا تدري ان كان عليها ان تضحك أم تبكي. بينما كان أبي منشغلا (وصل اثناء وجودي في عمق النيران) بفتح الصّرة بتلهف دون أن يأبه لجمهرة الناس. رفع الغطاء القطني ثم الغطاء النايلوني ثم غطاء الدانتيلا فظهرت «العلبة الفضية». نفخ فيها، مسحها على صدره، فازدادت لمعاناً، ثم ضغط على نتوء صغير فانفتحت العلبة وهي تدندن نغمات متناسقة من البيانو، ورأى الناس صورة بالأسود والأبيض للملكة الشابة اليزابيت الثانية كانت ملصقة داخل العلبة. ظل أبي يضحك ويضحك، حتى ضحك الناس جميعاً.

«والله العظيم، هذا الرجل مخبل». قالت أمي ضاحكة وهي تمسح دموعها.

«أخيرا احترق باكينغهام بالاس» قال قرياقوس ضاحكا.

في ذلك اليوم.قرر شمشون أن يترك المدرسة نهائياً. أمي وشميران انهمكتا بتنظيف البيت. تيدي وروبن وأنا ذهبنا إلى المدرسة بثياب الرياضة، فمنحتنا ادارة المدرسة بدلات شتائية بنية اللون مصنوعة من خيوط القنب، لم تكف أبدا عن حكّ أجسادنا.

وحده أبي ذهب إلى الوراء، إلى صيف العام ١٩٥٨، عندما كان طباخاً في نادي ضباط القوة الجوية الملكية البريطانية RAF في قاعدة

---

(١) شيدانا برونت شيدانا: مخبل ابن مخبل.
مشهد من فيلم «أم الهند» الذي يرد مرارا في الرواية.

الحبانية. في غروب ذلك اليوم، كان يرتدي زي الطباخين. كان يقطع البصل، وربما يقلي البطاطا، وربما كان يسلق فخذا من لحم البقر، ناظرا من نافذة المطبخ المطلة على الحديقة، حيث الضباط وزوجاتهم وأطفالهم يشاهدون على الشاشة المنصوبة أمامهم، فيلما وثائقياً عن نشاطات ملكتهم الشابة.

يومها اقترب منه آمر القاعدة الجوية وقدم له علبة مستطيلة الشكل، مصنوعة من الفضة الخالصة، يستخدمها الملوك والنبلاء والاثرياء لحفظ السجائر، ثم ضرب باصبعه على صدر أبي وأشار نحو كتابة منقوشة على سطح العلبة ثم أشار باصبعه نحو الملكة الشابة، التي كانت لا تزال تحيي الجماهير وتوزع الابتسامات. ففهم أبي (على سطح هذه العلبة نقش اسمك، وهي هدية لك من تلك الشابة التي تضع تاجاً على رأسها). وهنا أستطيع أن أخمن أن أبي لحظتئذ نظر إلى وشم الأسد ووحيد القرن حارسي التاج البريطاني المنقوش على ذراعه الأيسر، ثم أدار رأسه نحو نافذة المطبخ، متأملاً وجه الشابة صاحبة التاج. رآها تبتسم فسمع، لأول مرة في حياته، لحناً بهيجاً، أخذه بعيداً عن المطبخ، بعيدا عن الجنرال، عن الحبانية، بعيداً حتى عن أمي.

***

كانت رائحة الجص لا تزال تنبعث من الجدران، رغم مضي شهرين على ترميم البيت من آثار الحريق. وكانت أمي تغسل روبن القابع في الطشت. ولما فركت جسده بخشونة أبدى تذمره «خجا خجا يمّي خلابَخْ هاوِنْ»[1]. فردت أمي غاضبة «ماذا أفعل يا مريم العذراء، رغم المصائب التي تلاحقنا فأن أولاد الأخرس الأطرش باتوا ينزعجون حتى من النظافة». ثم راحت أمي تنظر، بمزيج من الحزن واليأس، إلى الصور المعلقة أمامها، على الحائط: صورة مريم العذراء وهي تحمل الطفل

---

(١) خجا خِجا يمي، خلابخ هاون: (قليلا قليلا يا أمي، فدوى لك).

النبي. صورة مار كوركيس ممتطياً فرسه ورمحه الطويل مغروسا في جسد التنين. صورة مؤطرة بعناية لمار شمعون، هذه الصورة التي لفتت انتباهي منذ الصغر. ذات يوم سألت شميران التي كانت ترقص وتغني «من يكون هذا الرجل، يا أختي؟» أجابتني دون أن تنقطع عن رقصها وغنائها «إنه الله». ومذاك صرتُ كلما سمعت كلمة «الله» ترتسم أمامي صورة الرجل الذي يرتدي ثياباً سوداء، ويده اليمنى متكئة على دكة من المرمر، وابتسامته الكنسية شاردة من بين ثنايا ذقنه السوداء. ثم التفتَتْ أمي اليّ وكنتُ ألاعب أخي الجديد، جون، وقالت:

«أنتَ، ضعْ أخاك في فراشه واملأ الفريموس بالنفط وانفخه بقوة».

«نعم أمي». أجبت وأنا أداعب الطفل الذي ولّدته سكينة في مساء ممطر منذ ثلاثة أسابيع، مساءئذ هرع قرياقوس وجلب قنينتين من العَرَقْ، فيما أعدت شميران وفاطمة كميات كبيرة من السمك المقلي بالزيت والكاري الهندي. في تلك السهرة، تساءلت أمي بما تسمي المولود النائم في سلّة القش، إلى جوارها. بعد صمت طويل نظرت أمي إلى أبي: بللت سبابتها اليمنى بلسانها، ثم ضغطت بسبابتها على جبين الرضيع (ماذا نسميه؟)، فأجاب أبي بأن هز كتفيه مبتسماً بشيء من الحياء (لا أدري). جرع قرياقوس كأساً كبيرة من العرق وقال، وعينيه صارتا حمراوين تماماً:

«جون».

«جون؟» تساءلت أمي بصوت واهن.

«أجل، جون، باسم الرجل الذي بكيته كثيراً منذ ثلاث سنوات، وفي مثل هذا الوقت بالضبط. هل نسيتِ جون كينيدي يا أختي كرجيه؟».

«أوه، كيف أنسى جون كينيدي؟» قالت أمي ثم ألقت نظرة نحو الرضيع وأكملت «أجل، جون، انه حقاً اسم جميل. شكراً يا أخي قرياقوس».

على أن قرياقوس قال لي بعدها بيوم، وكنا جالسين في غرفة السينما «أرأيت كيف ضحكت على أمك وأسميت أخاك الصغير باسم صديقنا جون فورد. فقلت له «ولكننا نحب جون كينيدي أيضا». «طبعاً، طبعاً» قال قرياقوس وأضاف «ولكن يجب أن لا تنسى جويي، نحن سينمائيون وجون فورد أقرب الينا من جون كينيدي».

وضعتُ جون في فراشه، ورحتُ أملأ الفريموس وأنفخه، فعادت أمي تصرخ (أصبحت عصبية منذ الحريق). «انزع ثيابك وحضّر نفسك». أخفيت أعضائي بيدي، شرّعت أزيح ثيابي ببطء وأنا أنظر إلى العذراء والنبي الصغير، اللذين كانا ينظران اليّ.

«يام، الله يخليك لنحول الطشت إلى الغرفة الأخرى».

سحبتني من يدي نحو الطشت مبتسمة كأنها فهمت مغزى كلامي. صبّت الماء على رأسي وراحت تدعك جسدي وتقول «عندما تكبرون أتمنى أن تعرفوا العيب. ولكن يا حسرة، من يضمن لي انكم ستكونون إلى جانبي في ذلك الوقت. كلكم تريدون السفر. أنت، قرياقوس أدخل في رأسك هوليوود. شمشون يريد السفر إلى استراليا بعد أن ينهي الجندية. تيدي إلى ديترويت كما فعلت ابنة يوشيا، وحتى روبن الصغير صار يتحدث عن الطيران. أما أبوكم فحدثوا ولا حرج. آخ، لو انه عرف الطريق لكان منذ زمن بعيد قد ألقى بي في الشارع والتحق بالانكليز».

«لكن قرياقوس قال لي ان أبي رفض الذهاب مع الانكليز» قلت بلهجة مدافعة.

«قم وقف على قدميك، رائحة الجيفة طالعة من أجسادكم ومع ذلك تهربون من الاستحمام.» قالت أمي وأضافت «قرياقوس مسكين، يقول ما يريد، لو أن أباك فقط شمَّ رغبة الانكليز بأخذه، لذهب إلى «انكلاند» على قدميه. لقد ضحكوا عليه بعلبة سجائر لا تساوي شيئاً.. الله أعلم ربما يأخذها البقال شاكر الهندي مقابل كيلوين من التفاح».

«أنا لا أحب التفاح، يام».

«انه مثال، ابني. التفاح والبصل وفضة الانكليز لها نفس القيمة».

«من زمان، كان هناك دبّ آشوري يعيش في جبل قريب من احدى قرى نينوى. وفي شهر تشرين الاول كانت الفلاحات تصعدن إلى المرتفعات المحيطة بالجبل لقطف الجوز. كان الدب يراقبهن كل يوم. وبمرور الايام أعجبته فلاحة اشورية اسمها نازيه، سمراء، طويلة مثل شعرها الاحمر، عيناها خضراوان وشفتاها ورديتان. كانت حقا جميلة، وقد ظل الدب ليالي طويلة يفكر بجمال نازيه. كان يشعر بالفرح كلما رآها تقطف الجوز، تمشي بين الاشجار وتغني. كان يخفي نفسه ويستمع إلى صوتها العذب:

سوف انتظرك يا حبيبي،

لا تصدق ما يقولون،

انا لك.

انني أنتظرك.

ذات يوم لاحظ الدب ان نازيه لم تعد تخرج مع بقية الفلاحات، رغم ان كرات الجوز كانت لا تزال تملأ الاشجار. ظل ينتظر وينتظر حتى سمع ذات مساء اصوات طبول ومزامير فخرج من مغارته وألقى نظرة نحو الوادي. رأى مئات الفوانيس مشتعلة في أرجاء القرية، والناس يرقصون ويشربون الخمر وهم فرحون. في البدء اعتقد الدب المسكين ان القرويين يحتفلون بـ «عيد الصليب»، لكنه، وبعد تفكير تذكر انه شارك هؤلاء القرويين، وهو في الجبل، احتفالاتهم بعيد الصليب الذي يوافق يوم ١٤ ايلول من كل عام، حتى انه افرط في الشرب ولم يذهب إلى الصيد في اليوم التالي، بل ظل يردد اغنية نازيه المفضلة:

سوف انتظرك يا حبيبي،

لا تصدق ما يقولون،

انا لك

انني انتظرك.

حزن الدب أيما حزن عندما علم ان الناس انما كانت تحتفل بزواج نازيه من أويقم ابن طبيب القرية. ارتدى الدب اجمل ثيابه ووضع ربطة عنق حمراء، مشّط شعره إلى الوراء تماما كما يفعل قرياقوس، ونزل إلى القرية. مشى بين الناس، شرب كأسا واحدة من النبيذ الاحمر، ثم دخل خلسة إلى غرفة نازيه التي كانت تمشط شعرها الاحمر الطويل، وضعها في سجادة كبيرة وحملها إلى الجبل.

عاشت نازيه مع الدب اكثر من سنة حتى انجبت له طفلة صغيرة، نصفها العلوي يشبه نازيه، والنصف السفلي يشبه الدب. كان الدب كلما خرج إلى الصيد يضع صخرة كبيرة على باب المغارة، ولكنه بعد فترة اصبح اكثر حنانا، فقرر ان يترك باب المغارة مفتوحا.

ذات غروب عاد من الصيد وهو يغني ويصفر فرحا حاملا على كتفيه غزالتين وما إن اقترب من مغارته حتى سمع بكاء طفلته فحدس ان نازيه قد فرّت نحو القرية. حمل الطفلة الباكية وراح يبكي هو ايضا. ظل الدب ينظر صوب الوادي ويصرخ بأعلى صوته:

نازيه طظا واق واق، نازيه طظا واق واق، نازيه طظا واق واق[١].

«وماذا فعل الدب بعد ذلك، يام؟» سأل روبن.

«ما زال يصرخ ويبكي حتى الآن. خلاص، ناموا. الساعة تقارب منتصف الليل، ناموا بسرعة.

لكن أمي نامت قبلنا. وبعد خمس دقائق أخذ شخيرها يتعالى، يتقطع

(١) نازيه طظا واق واق: نازيه الطفل يوقوق (أي يبكي).

تارة ويأخذ منحى اوبراليا تارة أخرى. كان شخيرها موسيقى الأمان بالنسبة لنا. حينما كنا نستيقظ من كوابيسنا ونسمع شخير أمي الاوبرالي، كنا نعرف ان الدنيا بخير، فنعود إلى نومنا.

كنا ننظر إلى عيني أمنا المصوبتين نحو السقف، ونصغي إلى الأنغام الخارجة من فمها المفتوح. ورويدا رويدا تتعب اهدابنا وتنسدل، تقطع عنّا ضوء الفانوس وأنين أمي، ونضيع، كلٌ في متاهات أحلامه.

***

تماما مثلما كنا نرى في الافلام الاميركية والانكليزية، البطل أو البطلة تشتري الخضار، أو وهي خارجة من عند البقال في طريقها إلى المنزل محتضنة كيسا أسمر. كان قرياقوس يزورنا دائما محتضنا كيسا أسمر كبيرا مملوء بالفواكه. كان في الأربعينات من عمره، طويلا، نحيلا. يصفف شعره الزيتي اللامع إلى الوراء. كان يأتي في الصباح ليفطر معنا ثم يختفي، ليظهر في وقت شرب الشاي بالحليب، عند العصر، واحيانا كان يأتي للعشاء، ثم يختفي طوال الليل. كان يقول انه يمتلك بيتا، ولكن لم ير أحد ذلك البيت.

كنت اقرب الاشخاص إلى قرياقوس. كان يحملني وأنا طفل رضيع، وفيما بعد اصبح يأخذني لمشاهدة الافلام وانا في الخامسة من عمري. كان يرغب ان يصبح سينمائيا، وللاسف الشديد ظلت تلك الرغبة مجرد أمنية.

كنت دائما أريد ان أعرف بعض المعلومات عن حياته الخاصة، ولا اعتقد انني كنت سأجرؤ على التدخل في حياته، لو لا انني سمعت أمي تكرر مرارا «مسكين قرياقوس، انه يتيم». ذات يوم، وكنا نجلس تحت شجرة رمان، وكان قرياقوس يقرأ لي بعض الاخبار السينمائية، قاطعته فجأة:

«هل صحيح أنك يتيم، يا قرياقوس؟».

نظر إلى قميصه ذي المربعات الحمراء والزرقاء، وضع سيجارة في فمه وقال: «نعم، أنا يتيم يا جويي. أبوك يتيم أيضا، وأمك يتيمة، وضعتها أمها ثم ماتت بعد ساعة من الولادة». ثم اضاف وهو يبتسم «معظم سكان الحبانية من الآشوريين اليتامى».

سألته بعفوية «وكيف أصبحت يتيما؟».

مد يده اليسرى ورفع شعري الذي كان يغطي جبيني إلى الوراء وقال «كنت سعيدا ذات يوم. كان عندي أب وأم وأخت اسمها فرجينيا، تكبرني بثلاث سنوات. فرجينيا العزيزة كان تحب الرسم، كانت تريد أن تكون رسامة، بينما كنتُ أنا مهتماً بكتب اللاهوت. أشعر ببعض الارتباك، حين أتذكر انني كنت أريد أن أكون رجل دين. كنا نقيم في الشمال، في أربيل».

كانت هذه هي المرة الاولى التي أسمع فيها هذه المعلومات من قرياقوس أو عنه. كانت أمي تقول لي دائما «أنت تسأل كثيرا يا جويي. هذا ليس جيدا لصغير في مثل سنك. ولكن آه ماذا نفعل إذا كان قرياقوس يدفعك لذلك!».

نظر اليّ قرياقوس وقال «ساتيسفايد».

قلت له «شنو يعني ساتيسفايد»

قال: «هل أنت راض عما قلته لك».

«لا أعرف» رددت مبتسما واضفت «ولكن لماذا أنت يتيم؟».

«أنت شيطان» قال قرياقوس. «حسنا سأروي لك الفيلم اذا. في صيف العام ١٩٣٣، كنت في الثانية عشرة من عمري. كان الوقت ليلاً، وكنا نطالع دروسنا على نور الفانوس. سمعنا طرقات على الباب، تماماً مثل الافلام يا جويي. نهضتُ لأفتح الباب، لكن أبي سبقني. ما أن فتح الباب حتى اندفع نحو المنزل خمسة أو ستة رجال ملثمين. رأيت أحدهم يدخل خنجره في عنق أبي ويلقيه أرضاً، وآخرين سددوا طعناتهم في

صدر أمي. هرعت إلى حيث كانت تجلس فرجينيا، في الداخل، حاولت اخراجها من النافذة الخلفية المطلة على الشارع، لكنها رفضت وارادت ان تذهب لترى ما يجري لأمي وأبي. كنت أرتعش خوفا وأنا أرى ملثمين يقتربان منّا بخناجرهما، ومثلما رأيت خنجرا ينغرس في صدر أمي، رأيت الشيء نفسه يحصل لفرجينيا. لا أدري كيف اتجهتُ نحو النافذة ملقياً بنفسي خارج المنزل، مهرولا في الدروب الضيقة والمنحدرة. كانت ليلة مرعبة. عشرات الرجال الملثمين يقتحمون منازل الآشوريين ويذبحون أهلها. رأيت أجساد نساء وأطفال ورجال شيوخ وشباب ملقية عند عتبات المنازل وفي الطرقات. عشرات الرؤوس المقطوعة ملقاة عند زوايا الطرقات مثل كرات ساكنة. كانت النساء يولولن، فيما القتلة يلاحقونهن بالخناجر والفؤوس والهراوات الغليظة. ظللت أجري حتى رأيت سيارة جيب عسكرية تتبعني ثم تسير بمحاذاتي. كنت ألهث وأرتجف حتى سمعت سائق الجيب يكلمني بالانكليزية ففهمت من اشارات يده انه يدعوني للركوب، ففعلت. ثم راحت السيارة العسكرية تهبط بنا الدروب الجبلية. طوال يومين فقدت النطق، ولم آكل شيئاً رغم محاولات مايك».

«من هو مايك»؟

«مايك أو مايكل هو اسم السائق الذي أنقذني. لقد ظل السرجنت مايك يهتم بيّ ويحاول أن يهدئني. كان يكلمني بالانكليزية وفي بعض الاحيان كان يستخدم بعض الكلمات العربية باللهجة العراقية. بعد اسبوع من بقائي في منزل مايك، في الموصل، قال لي (الانكليز كانوا يعلمون ان المسلحين الاكراد سيقومون بذبح الآشوريين بين لحظة واخرى. لكنهم لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً). فيما بعد عرفنا ان جنودا من الجيش العراقي ساهموا في هذه المجزرة التي اشتهرت باسم «مجزرة سميل». كان ملكنا غازي موافقا على ذلك».

«شنو يعني مجزرة، قرياقوس»؟

«يعني مثلما يفعل القصاب بالخروف».

قلت لقرياقوس «ولكن أمي تقول نحن نحب الملك».

«يقولون انه كان خائفا من الجيش. فقد كان هناك ضابط كردي مجرم اسمه بكر صدقي، هو الذي يقود الجيش، وكان ينوي مهاجمة القصر الملكي في بغداد بعد أن عارض الملك قرار الاكراد في ذبح الآشوريين».

«ولماذا يريد الاكراد ذبحنا؟ معظم اصدقائي من الاكراد»؟

«الأكراد مساكين يدّعون ان شمال العراق بلاد خاصة بهم، يسمونها «كردستان»، ولا يرغبون ان يقيم فيها أي من الأقوام الاخرى».

«ماذا يعني أقوام، قرياقوس»؟

«يعني بشر. الآشوريون، العرب، الاكراد، الفرس، التركمان، اليهود والأرمن، هم أقوام، أي جماعات بشرية، يقيمون في العراق».

وقبل أن أسأل قرياقوس سؤالا جديدا، قال لي: اسمع جويي، انني أخبرتك بالمجازر التي ارتكبها الاكراد بحق الاشوريين، فقط كي تعلم كيف أصبحتُ يتيماً، مثلما أصبح آلاف الاشوريين الاخرين. انه الماضي، لا تنتبه اليه على الاطلاق. وأستطيع ان اقول الآن، لو ان الاشوريين كانوا اقوياء لقاموا بذبح الاكراد، مثلما فعل العرب بالأكراد، لاننا في النهاية كلنا ضحايا التخلف».

«شنو يعني التخلف»؟

«عندما يفكر الانسان مثل الخروف، معنى هذا انه متخلف»!

«أين ذهبت بعد أن أصبحت يتيماً وأنت صغير؟»

«كان مايك يعمل عارضا للافلام في صالة سينما في القاعدة الجوية البريطانية في الحبانية، يعرض الافلام للضباط الانكليز وعائلاتهم. ولما

علم انني اصبحت يتيما، بلا أهل ولا أقارب، طلب أن آتي معه إلى الحبانية واعمل مساعدا له في عرض الافلام. ولا تدري، يا جويي، كم شعرت بالفرح وأنا أفكر بعرض الافلام. لقد نسيت المجزرة، نسيت أمي وأبي وأختي، نسيت كل شيء. كنتُ مجنوناً بالسينما، ولم يسمح لي مايك، بعد أن هدأت الأمور، أن أزور بيتنا ولو لساعة. قال لي، «اسمع يا كيرك» هكذا كان يناديني مايك وبقية الضباط الانكليز «لقد تم كل شيء. وليس هناك أسوأ من رؤية المدافن الجماعية. انها أكثر ايذاءً من مشاهد الحرب نفسها. أنصحك أن تدير ظهرك للماضي، مرة وإلى الأبد». سمعت نصيحته وجئت إلى الحبانية. ظللنا ثلاثة أيام في الطريق، ولم يكف مايك عن الحديث عن مخرج سينمائي اسمه جون فورد. كان يعشقه. وقد أسماني مايك منذ البدء «Strong Boy». تماما مثلما أسميك أنا الآن. كما أهداني عددا من قمصانه ذات المربعات، ما زلت أحتفظ بعدد منها حتى الآن. مسكين مايك، كان يرغب في أن يصبح مخرجا سينمائيا، لكن للاسف ظلت تلك الرغبة مجرد أمنية. كان ينوي السفر إلى هوليوود لمقابلة جون فورد. كان يقول لي انه عندما يصل إلى هناك سيقتحم الستوديو ويقول لجون فورد: «اسمع يا جاك، لقد جئتك من الحبانية، الواقعة في آخر الدنيا، لكي أعمل معك». تصور، يا جويي، إلى الان لا اعرف لماذا لم يسافر مايك إلى هوليوود. وقد كان ايرلنديا مثل جون فورد».

ألقى قرياقوس نظرة حزينة على مربعات قميصه، الزرقاء والحمراء، وأشعل سيجارة جديدة، قائلا: «بعد بضع سنين من وجودي مع مايك في القاعدة العسكرية، ذهبت ذات صباح إلى غرفته لكي أوقظه. وجدته ملقى على أرض الغرفة فيما ثلاث أو أربع قنان من البراندي الفارغة ملقاة على الأرض. حاولت حمله فلم استطع، كان ثقيلاً جداً. حين لاحظت انه لم يتحرك على الاطلاق هرعت إلى الدكتور رايموند، لكن الوقت كان متأخراً، اذ كان مايك قد فارق الحياة بأزمة قلبية».

«شنو يعني فارق الحياة»؟

«يعني مات. مات مايك بعد ان علمني كل شيء عن آلة عرض الافلام وكيفية لصق الاشرطة المهترئة. وفيما بعد صدر أمر من مكتب القاعدة العسكرية بأن آخذ مكانه وكل أغراضه، وعندما تعلمت السياقة، استلمت سيارة الجيب، تلك التي انقذتني من المجزرة! هل تصدق ذلك يا جويي»!.

بعد لحظات من الصمت، اخذ قرياقوس يقهقه وهو يهز رأسه ويحدق في الأرض «ذات مرة قال لي مايك، لو أنك كنت في أميركا لأصبحت بالتأكيد بطل فيلم STAGECOUCH بدلا من ماريون مايكل موريسون، الشاب الذي أصبح فيما بعد يدعى جون واين. هل تصدق هذا يا جويي، أن أكون أنا جون واين؟ فقط تخيل ذلك. هناك أكثر من عشرين طيارا وضابطا في القاعدة الجوية قالوا لي: لو ان جون فورد رآني قبل ان يصور YOUNG MR. LINCOLN لأسند لي دور البطولة بدلا من هانك فوندا. لكنني اعتقد ان مايك على حق، أنا أشبه جون واين أكثر».

«لماذا لم تسافر إلى هوليوود، يا قرياقوس»؟

«في العام ١٩٤٧ كنت قد قرأت ان مستر جون فورد انتهى من تصوير The Fugitive وانه يحضر لفيلمين جديدين Fort Apache وThree Godfathers وقد جهزت نفسي للسفر إلى لندن خلال يومين أو ثلاثة ومن هناك إلى أميركا، ولكني لم أسافر بسبب أبيك!».

«أبي»؟

«جاءني أبوك وقال لي انه تعرف على عائلة آشورية من الذين هاجروا من شمال البلاد إلى تركيا. لكن العائلة واجهت مشاكل هناك فعادت إلى العراق وأخيرا استقرت في الحبانية. قال انه يريدني ان أكون شاهداً في عرسه. ذهبت معه لأفاجأ بان العروس بنت في الثالثة عشرة، كانت

ترفض الزواج من أبيك، لكن زوجة الأب كانت تصر على اتمام الزواج بأي شكل كان. وقد رأيت زوجة الأب تصفع العروس وتهددها بالطرد من المنزل ان لم توافق على الزواج من أبيك، ومع ذلك فقد رفضت البنت الزواج. جنّ أبوك وراح يسكر اكثر فأكثر، وارتكب أخطاء كثيرة في عمله حتى أحسست ان الانكليز سيطردونه من عمله، فتخليت عن السفر، مؤقتاً، حتى أنهي مشاكل أبيك، الذي كان صديقا حميماً لي. بعد اسبوعين من الزيارات، تم الزواج، وأصبحت تلك البنت اليتيمة، أمك».

«ولكن بعد زواج أبي، ألم يكن بامكانك السفر»؟

«أولا، ثمة فرص لا تأتي إلا مرة واحدة. وثانيا، ثمة مفاجأة حصلت، مفاجأة رائعة أوقعتني في قصة حب لاهبة أنستني كل شيء، بما في ذلك السفر».

«ماذا حدث»؟

«كان وصول مارثا لونغ وود إلى الحبانية قد غيّر أفكاري كلها، بل وجعلني أعاقر الخمر أكثر فأكثر. كانت أجمل نساء الانكليز. حقا يا جويي، عندي رغبة شديدة في أن أروي لك تفاصيل قصة حبي، على الرغم من ان الانكليز كانوا يطلقون عليّ اسم THE SECRET MAN. لقد اتصل بي الميجور لونغ وود وقال ان عنده طلعة جوية روتينية، وطلب اليّ أن أكون متواجداً عند مدرج المطار لاستقبال زوجته وايصالها إلى المنزل. كنت جالساً في سيارة الجيب، هرباً من لهيب الشمس، أتطلع إلى الطائرة الآخذة بالاستقرار على المدرج. كانوا تقريباً أربعة عشر شخصا، من النساء والضباط والجنود، توزعوا على الفور باتجاه مستقبليهم. حين اقتربت مني السيدة الأجمل ومعها طفلة في الخامسة تقريباً، «مسز لونغ وود» قلت متسائلا. «نعم. وهذه JACKIE» قالت وهي تشير إلى الطفلة

«JACKIE اسم جميل» قلت لها وأضفت «انه اسم فيلم لجون فورد».

«هل هذا صحيح؟» تساءلت بدلع وهي ترفع قبعتها.

«نعم. مستر فورد أخرج فيلم JACKIE عام ١٩٢١، بالضبط في السنة التي ولدتُ فيها».

فتحت عينيها على وسعهما وسألتني «وماذا أخرج المستر فورد في العام ١٩١١»؟ لقد عرفت انها كانت تشير إلى سنة ميلادها، فشعرت ببعض الحرج وأجبت: «لا شيء للأسف، لأن المستر فورد بدأ العمل في السينما عام ١٩١٧».

«هل أحبتك المسز لونغ وود»؟ سألتُ قرياقوس.

«بل عبدتني، يا جويي. يا لها من مفارقة، تصور أنها لم تعرف أبدا أنني ألغيت مشروع سفري حالما رأتها عيناي. هي أيضا لم تعد إلى لندن بعد مجيئها إلى الحبانية قالت لي «سأبقى هنا، لأجلك يا كيرك».

عندما سألت قرياقوس «كيف بدأت قصة حبكما»؟ نظر اليّ وقال HEARTS OF OAK ثم قطع غصنا من شجرة الرمان وراح يضرب به سطح المياه الجارية في الجدول القريب من اقدامنا.

لقد أحببت قصة حب قرياقوس ومارثا، وظللت مفتونا بها لأيام. وعندما رويت بعض تفاصيلها لنصرت شاه أخذ يقهقه طويلا ثم سألني فجأة «عن أي فيلم كان يتحدث قرياقوس، عفوا أقصد كيرك»؟ وعاود قهقهاته وهو يداعب قطعة نقدية كانت بين يديه.

«لا عمو نصرت، قرياقوس كان يحكي لي قصة حقيقية عاشها هو مع سيدة انكليزية».

«يا له من صاحب مخيلة جبارة. أي سيدة انكليزية تمشي مع رجل عنين».

«شنو يعني عنين، عمو نصرت»؟

«يعني أخونا قرياقوس لا يستطيع النوم مع النساء» ثم اضاف بشيء من الأسف «لا حاجة للحديث عن هذا الموضوع المؤلم».

وقد اكتشفت لاحقا ان نصرت شاه، الذي شوّه قصة حب قرياقوس مع السيدة الانكليزية، انما فعل ذلك انتقاما من قرياقوس، الذي شوّه فيما مضى، قصة الحب التي عاشها نصرت شاه مع سيدة فاتنة أو «لا مثيل لها» كما كان يروي نصرت شاه.

يروي نصرت شاه قصته بالشكل التالي: كلكم تعرفون انني كنت تاجرا ذات يوم، وكنت ارتاد الملاهي الليلية. ذات يوم وقعت في غرام امرأة اسمها «معصومة»، كانت ساحرة الجمال، فنانة حقيقية، تغني بالعربية والانكليزية والفارسية بطلاقة وبدون أي لكنة. لم يكن احد يعرف عنها شيئا. وقد نافسني في غرام معصومة لبعض الوقت، ضابط انكليزي، سرعان ما تحديته. لقد جلبت سكينة حادة ووضعتها على الطاولة أمام كل الحاضرين في الملهى، صارخا في وجهه «اسمع ايها الضابط الانكليزي، أنا لا اسمح لأي كان ان يشاركني حبي لهذه السيدة الجميلة. سوف اقطع امامك هذا الاصبع من يدي اليسرى، فان كنت تحبها حقا فافعل مثلي». ثم قطعت خنصر يدي اليسرى. فأخذ الضابط الانكليزي السكينة، وفي لحظة واحدة، ألقى بخنصره أمامي. دون أن أفكر ولو للحظة واحدة، وضعت البنصر تحت السكينة، وبيدي اليمنى ضغطت على السكين، فانفصل البنصر من يدي. في هذه اللحظة رأيت وجه الضابط الانكليزي ممتقعا. كان ذكيا، وكان يعرف لو انه استمر في جلوسه طويلا، لفقد كل اصابعه، لذلك وضع قبعته على رأسه وخرج مهزوما من الملهى. يومها عشقتني معصومة وصار سريرها سريري».

كان قرياقوس يقهقه كلما سمع هذه القصة على لسان أحد سكان الحبانية. كان يقول «على الرغم من أن نصرت شاه لا يشاهد الافلام

كثيرا، الا انه يمتلك بحق مخيلة مذهلة» ويضيف قرياقوس «كان نصرت شاه يعمل في المخبز التابع للجيش البريطاني، وذات يوم وكان المسكين متعبا، سحب الباب الحديدي للفرن بيده اليمنى ولم ينتبه إلى ان يده اليسرى كانت قريبة من فوهة الفرن، أطبق الباب الحديدي على يده فقطعت اصبعيه. لقد رأيتهما بأم عيني وهما يحترقان داخل الفرن مثل المقانق».

***

وضعت بين كتبي ساندويتشة من جبنة «كرافت» «الصفراء، تلك الجبنة التي كلما لمحت على علبتها الزرقاء عبارة «صنعت في أستراليا» أسمع صوت أمي «عندكم يا أولاد أبناء عم يعيشون هناك، في مدينة اسمها سيدني». كان صباحا باردا جدا، ومن حسن حظي انه كان يوم أحد، أي يوم عطلتي من العمل. وهذا يعني انني كنت سأظل مرابطاً في دفء غرفة الصف، تاركاً نصرت شاه واقفا خلف العربة، يفرك اصابعه الثمانية من شدة البرد.

في طريقي إلى المدرسة، فوجئت برجال من المغاوير يهرولون في الشوارع، مرددين هتافات صادرة عن شخص يتقدمهم «حيفا فين، حيفا بلدي. عكا فين، عكا بلدي»، حتى انني عندما وصلت إلى المدرسة وجدت التلاميذ يتحدثون عن المغاوير ويقلدون حركاتهم، دون ان يتحلقوا حولي، كعادتهم كل يوم أحد، لأنقل لهم المعلومات التي كان يزودني بها قرياقوس عن الافلام الاميركية الجديدة. كانوا مندهشين بما رأوه حتى ان المعلم اضطر ان يضرب بعصاه على السبورة مرات ومرات كي يقطع وشوشاتهم داخل الصف، موضحاً «انهم جنود مصريون جاؤوا ليتدربوا في معسكر الحبانية استعداداً لمعركة تحرير فلسطين المغتصبة». وحين لاحظ المعلم اننا لم نفهم معنى عبارته اضاف وهو يقلّب كتابا كان بين يديه «ما زلتم صغارا ولا تفهمون هذا الموضوع. افتحوا كتاب الحساب».

أجّل التلاميذ حماستهم لتقليد المغاوير لفترات الاستراحة. وحين خرجنا من المدرسة، وجدت نفسي أهرول في رهط طويل من التلاميذ نجوب الشوارع ونحن نردد بحماس آخذ بالتصاعد «حيفا فين، حيفا بلدي. عكا فين، عكا بلدي». قطعنا الشارع المحاذي للسوق، مررنا من امام السينما (لمحت صورة روك هدسون. أمي تحبه كثيراً)، اقتربنا من حنفية الغسيل، واتجهنا نحو الجامع القديم، القريب من المدرسة الثانوية. كنت أهرول باتجاه بوابة المدينة وأنا أردد «حيفا فين، حيفا بلدي. عكا فين، عكا بلدي»، دون أن أعرف، من فرط الحماسة، ان الرهط قد انفرط من ورائي، وان كل تلميذ قد ذهب إلى منزله وانني كنت، منذ ان اقتربنا من الجامع، انما أجري وحيداً، تماماً مثل «عباس المخبل» الذي كان يدور في طرقات المدينة حاملاً فانوسه المشتعل ليلاً ونهارا.

كنت أهرول وأردد «اللازمة» وعيناي مصوبتان إلى أسفلت الشارع تراقبان ظلي اللاهث، حتى رأيت كتلة اخرى من الظل تندمج في ظلي، وحين رفعت رأسي، كان ثمة شاب يقود دراجة هوائية صدمني بمقدمة دراجته بقوة في فمي وألقى بي خارج الطريق ممدداً جنب برميل الزبالة الكبير. بقي راكب الدراجة ينظر اليّ للحظات وهو يرتعش، وكاد يفقد لهول المشهد شجاعته ويطلق العنان لعجلتي دراجته ويلوذ بالفرار، لولا انه رأى الدماء وقطع الاسنان المتناثرة في فمي تكاد تخنقني، فحملني على دراجته وانطلق نحو المستشفى الجمهوري، مكررا طوال الطريق بصوت مرتعش «والله العظيم ان الحق عليك يا ابن الأوادم، ألم تجد مكاناً تمارس فيه رياضتك غير هذا الطريق. الحق عليك والله شاهد على ما أقول. .آه أنت ما زلت صغيرا ولا تدري ما معنى الكيمياء والفيزياء وكيف تدوخان الرأس».

حين تلاشت تأثيرات البنج واستيقظت من خدري، كان الطبيب قد

اجتث معظم أسناني من جذورها، وملأ فمي بالقطن وهو يقودني إلى خارج العيادة لأجد أمي وأبي وشميران يستمعون إلى الممرض نيقولا «عندما ترون انه يتألم، ارجوكم اجلبوه اليّ لأفحصه، فهو مثل أخي الصغير. لا داعي للقلق، فعما قريب ستنبت معظم اسنانه». كان أبي يهز رأسه موافقاً دون ان يفهم ما يقوله الممرض، فالاشارات التي كانت ترسمها يدا الممرض غير موجودة في قاموس أبي. وفي طريقنا إلى البيت، قالت أمي، وهي تنظر إلى واجهة صالة السينما (إلى صورة روك هدسون، بالطبع) «المجرم، هل يعتقد ان ابني بلا مستقبل حتى يسحقه بهذه الطريقة؟».

«ولكن يا أمي، لو كان مجرماً فعلاً لما حمل جويي إلى المستشفى؟» ردت شميران وذراعها اليمنى تطوّق كتفي.

«ولماذا لم ينتظر في المستشفى»؟ تساءلت أمي بغضب.

لكن الطالب المسكين، أو «المجرم» حسب تعبير أمي، لم يكن هارباً. كانت سيارة بيك أب تقف أمام بيتنا، وثمة رجل طويل يرتدي دشداشة بيضاء وعقالاً أسود يتحدث إلى قرياقوس ونصرت شاه وسكينة، وبين لحظة واخرى يرفع عقاله ويجلد «الأرض» ولما اقتربنا رأينا «المجرم» ممدداً على الأرض وجسده يتلوى من لسعات العقال.

«هذا الكلب أمامك يا حاجة، انه ابني، افعلي به ما تشائين» قال صاحب العقال وهو يلهث. ثم، وبحركة مباغتة، سحب عقاله مرة اخرى وراح يجلد ابنه، مضيفاً «قُم يا حيوان، قُم وقبّل يدي الحاجة علّها تغفر لك». نهض المسكين وهو لا يدري اي منطقة من جسده يحك، وهجم على يدي أمي وراح يقبلهما.

«خلاص يا حاج، وقع ما وقع». قالت أمي بصوت خفيض.

«كان يجب ان يفتح الغبي عينيه» قال الرجل وهو يهم برفع عقاله، لكن قرياقوس أمسك ذراعه قبل ان تهوى على جسد الطالب، قائلا «يكفي يا حاج، انتهى الأمر».

بعدها ذهب الرجل إلى سيارته وجاء بخروف نحيل، وضعه بين يدي «اقبل مني يا ولدي، هذا الحيوان، علّه يخفف بعضاً من آلامك».

فيما بعد قال قرياقوس ان «الحادث الذي تعرض له جويي، انما وقع بسبب هؤلاء الغرباء الذين ظهروا فجأة. انهم نذيرو شؤم» ثم اضاف وهو ينظر إلى نصرت شاه «وليس ببعيد ان يجلبوا عائلاتهم من افريقيا ويوطنوهم بيننا».

«انهم من مصر، وليسوا من افريقيا» قال الاستاذ علي.

«صحيح يا علي... عفواً. (كنا جالسين في منزل نصرت شاه ومن المؤكد ان قرياقوس قد انتبه لصورة الامام علي المعلقة أمامنا، فوجد انه ليس من اللياقة ان يخاطب ابن نصرت شاه بـ«يا علي») عفواً ما اريد ان اقوله يا استاذ علي، ان مصر بلد افريقي».

راح قرياقوس ينتقي كرات «الكفتة» من صحنه ويضعها في الصمون على شكل ساندويتشة، بعد ان أبعد صحن الرز «طعام الشعبيين» حسب رأيه.

«ولكن هل تعتقد حقا، يا مستر قرياقوس، انهم سيجلبون عائلاتهم؟» سأل نصرت شاه.

«كل شيء وارد، عمو نصرت شاه، اذ ان الراديو والجرائد اليومية لا تكف هذه الايام عن الحديث عما يسمونه «القومية العربية» وان البلدان العربية جميعها وطن واحد، تؤكدها وحدة اللغة والدين والتاريخ المشترك. واذن، ما الذي يمنع هؤلاء الغرباء من الاستيلاء على منازلنا، استناداً إلى تلك الروابط العنصرية؟».

«انت تبالغ يا مستر قرياقوس» قال نصرت شاه بالفارسية.

«شكرا أختي سكينة» قال قرياقوس وهو يتناول من يدها قطعة من البطيخ الاحمر، ثم التفت اليّ واضاف مبتسماً «THE WORLD MOVES ON».

هززت رأسي موافقاً والقطن يملأ فمي، فأومأ أبي برأسه وكأنه فهم كلام قرياقوس.

***

مع ظهور المغاوير، بدأت المدينة تشهد عروضاً للأفلام المصرية. فذات غروب وقفت في وسط الساحة الكبيرة بالقرب من «الحسينية» سيارة كبيرة تابعة للبلدية، وراحت تعرض في الهواء الطلق فيلمين مصريين، واحداً تلو الآخر، تابعهما معظم الاهالي الذين افترشوا الأرض، منبهرين بالممثلين الذين يتحدثون باللغة العربية ولو بلهجة غريبة بعض الشيء، تلك اللهجة التي انتشرت بين الشباب، لسلاستها ورنين نغماتها العذبة، الحنون. ولم يتوان رفيق الهندي مدير السينما، وهو يرى الاقبال على هذه السينما الجديدة، ان يجلب من بغداد عدداً هائلاً من الافلام المصرية خصوصا الافلام الاستعراضية الغنائية، اذ ان نجوم هذه الافلام مثل عبد الحليم حافظ، محرم فؤاد، فريد الاطرش، محمد عبد الوهاب، محمد فوزي، ليلى مراد وكارم محمود كانوا معروفين كمطربين من خلال الراديو. وقد احتلت هذه الافلام قلوب الاهالي، وراحت شيئا فشيئا تطبع تأثيراتها في حياتنا اليومية، فأصبحنا نتبارى فيما بيننا بحفظ مقاطع طويلة من حوارات الافلام واقحامها في أحاديثنا. وذهب غلوبي النغل (لانه كان أفضل هداف في كرة القدم) إلى أبعد من ذلك عندما رأى ان تداول اللهجة المصرية فيما بيننا يعد أمراً سخيفاً. وقال ان المقياس الحقيقي لاتقان هذه «اللغة» انما يتم عن طريق تطبيقها.

«وكيف ذلك» سأل جليل الياباني.

رفع غلوبي بنطاله إلى مستوى سرته، وقال مبتسماً كمن يعرف انه يحتفظ بمفاجأة «نتحدث مع المغاوير».

«المغاوير!» قال ابراهيم.

«وهل تعتقد انهم سيكونون لطفاء معنا»؟. تساءلت بدوري.

«دعوني أجرب ذلك».. اجاب النغل بنبرة فخورة حسم بها النقاش.

في عصر ذلك اليوم، تجرأ غلوبي واعترض مغواراً مصرياً كان يسير لوحده في الشارع، فحياه قائلاً «ازايك يا بيه» فرد المغوار بكل تهذيب «كويس، وإزاي حضرتك». حين عاد غلوبي قال لنا ضاحكا «ان المغوار خاطبني كما في الافلام المصرية بالضبط»، مضيفاً ان المغوار قال له في نهاية حديثهما «أيه رأي حضرتك لو آجي بُكرة واخذك تتفسح معايه بالعربية؟».

قلنا لغلوبي «(بكرة) يعني غداً، فما معنى (عربية) يا نغل».؟

«يعني سيارة» اجاب وهو يرفع بنطاله إلى أعلى سرته.

يومها نخرت الغيرة قلوب الأولاد وهم يتبادلون مغامرة غلوبي مع المغوار المصري، حتى إذا ما جاءت ظهيرة اليوم التالي انتشر الاولاد في زوايا الشوارع القريبة من المعسكر، منتظرين خروج المغاوير الذين تحولوا، بفضل غلوبي، من مجموعة غرباء معزولين عن الأهالي إلى مخلوقات اكتست، بين عشية وضحاها، ملامح نجوم السينما المصرية وجاذبيتهم. وسرعان ما توطدت «العلاقة» بين المغاوير وأولاد المدينة، رغم ان قرياقوس أبدى تذمره لذويهم منبهاً إلى خطورة «استحواذ المغاوير على عقول أولادنا».

ولم يقل قرياقوس «وشرف بناتنا» لأن أحداً لم يكن يعرف بعد ان المغاوير المصريين كانوا قد توغلوا (ولا أحد يعرف كيف حدث ذلك) في فتيات الحبانية واحتلوا، بضربة واحدة، قلوبهن وأجسادهن معاً. وكانت قصص الغراميات ستظل خفية لولا الشجاعة التي أظهرتها جاكلين، بحيث بدت جرأة غلوبي، أمامها، مجرد عمل صبياني بدون أدنى معنى.

كان الوقت عصراً، وهو وقت تزدحم فيه الشوارع والمنعطفات بالناس ذاهبين أو عائدين، سواء إلى المقهى أو الأسواق. في هذا الوقت

وأمام أعين الجميع، اختارت جاكلين ان تعلن قصة حبها مع الضابط المصري الذي بدا إلى جانبها، بعد ان فتح باب سيارة الجيب العسكرية، ونزلت منها وهي تعدل تنورتها الضيقة القصيرة. بدا رجلاً قصيراً وبديناً وأصلع الرأس. لحظتها اشرأبت عشرات الرقاب وعيون أصحابها تتفرس المشهد بذهول، بينما ظلت جاكلين تبتسم لضابطها وهي تتبادل معه كلمات الوداع، دون ان تأبه لنظرات الفضوليين. وعندما همّ الضابط بالصعود إلى سيارته مدّت جاكلين يدها اليمنى وربتت بأناملها على كتفيه طاردة الغبار العالق بالنجوم الست الموزعة بالتساوي، على الكتفين الخشنين. كان هذا المشهد كافياً لتنبش الألسن ماضي جاكلين.

«AWOMEN'S FOOL» قال قرياقوس مبتسماً، حين وصله خبر نزول جاكلين من سيارة الضابط المصري.

كانت جاكلين طويلة ونحيلة، بوجه أقرب إلى شكل البيضة، ذات نهدين ضخمين وساقين ممتلئتين وفارعتين. وكان قرياقوس أمام «جمالها المدهش» قد عجز تماماً عن مقارنتها بنجمات هوليوود، ولذا لم يطلق عليها اي اسم فني. كانت جاكلين تقيم مع أمها الأرملة وأخيها نيلسون الذي كان معظم رجال المدينة يتوددون اليه ليس لجمال أخته فحسب، وانما لعلاقاته مع الكثير من الفتيات، حتى ان يوشيا البقال لم يجد أي حرج في ان يقول امام جمع من الناس «ماذا نستطيع ان نفعل بجاكلين إذا كان نيلسون نفسه يطارد البنات الشريفات؟!» ثم أضاف «الحمد لله سألتحق قريباً بأبنتي في ديترويت دون ان اشهد المزيد من حكايات الفساد». وظل يوشيا يكرر تعليقاته أمام زبائنه حتى تناهت إلى أذني نيلسون الذي اضطر إلى ان يدافع عن نفسه قائلاً «لماذا لا يريد هذا البقال النحس ان ينسى الماضي؟ ان ابنته، ومنذ ثلاث سنوات، تعيش في اميركا، ولا اعتقد ان أحداً هناك يعرف قصة البقال الذي دخل منزله يوماً فرأى ساقي ابنته مرفوعتين أمام نيلسون».

اثناء العشاء قال قرياقوس ان الأب روفائيل زار منزل جاكلين وتحدث معها. سألته أمي «وماذا قالت جاكلين؟»؟.

«THE WHOLE TOWN'S TALKING» أجاب قرياقوس وهو يقهقه عالياً. ضحكنا معه. فعادت أمي تضرب بيدها على صدرها لتنزل اللقمة التي علقت في بلعومها «قل لنا يا قرياقوس، ماذا قال الآبونا؟».

«قال لها يا جاكلين يا ابنتي، انك تتذكرين ولا شك، حين جئت إلى الكنيسة منذ ثلاث سنوات، وقلت انك تريدين السفر إلى لبنان لأن ابن داديشو الاسكافي سيرسل في طلبك من شيكاغو، أننا ساعدناك في سفرك حتى بيروت، ولكنك بعد خمسة شهور رجعتِ ولم تقولي شيئاً. انك تعرفين ان الناس قالت كلاماً كثيرا، منه انك عاشرت رجلاً من لبنان دون زواج. وها أنك تعيدين القصة ذاتها مع رجل من مصر».

«وماذا قالت جاكلين»؟ تابعت أمي اسئلتها.

«قالت انه ضابط قبطي، يعني مسيحي مصري، واسمه عماد بطرس، وقد وعدها بالزواج في اقرب فرصة، وهي سترحل معه إلى مصر».

أخرجت أمي ثديها الأيسر ووضعته بين شفتي أخي الرضيع جون، نظرت إلى شميران متسائلة «وماذا قال الآبونا؟».

«ماذا تريدينه ان يقول؟» أجاب قرياقوس وهو يعيد شعره الزيتي اللامع إلى الوراء، ثم أحنى رأسه وتفحص قميصه، واضاف «طبعاً تمنى لها الخير ونصحها بأن تعقل قليلاً، حتى يأتي هذا القبطي ويطلب يدها». ثم التفت اليّ «هيي جويي، رافقني إلى البار لنشرب البيرة مع صديقنا كيكا».

«جاكلين مسكينة». قالت شميران بصوت عال ووجه محتقن. نظرت اليها أمي باستغراب، فاضطرت شميران إلى ان تكمل كلامها بطريقة اكثر حماسية «طبعاً مسكينة، لو كان ابن الاسكافي وفياً لوعوده لما حصل لجاكلين ما حصل. لقد انتظرته مائة واربعة وستين يوماً في بيروت، لكن

الوغد بدلاً من ان يرسل في طلبها ارسل لها رسالة يعلمها بخبر زواجه من فتاة اميركية. ان ابن الاسكافي نذل وجبان». ثم نهضت وهي تمسح دموعها «كلب ابن الكلب». صرخت وهي تنتقل إلى الغرفة الاخرى.

لم يقل أحد منا شيئاً.

***

قبل أن ينسى الأهالي قصة جاكلين، خرج قاسم، حاملاً كيلوتاً من الدانتيلا وشرشفاً أبيض ملطخين ببقع حمراء، يطوف بها في الأزقة القريبة من منزل سمر، معلناً بأعلى صوته «يا ناس انظروا، انظروا يا ناس، انظروا إلى الدماء جيداً. هذا لباس سمر وهذا شرشفها. أين الشرف الذي تدعيه هذه القحبة. بالأمس جاكلين واليوم سمر، يا الهي، ماذا يجري في هذه المدينة الجميلة، هذه المدينة التي أحببتها وتركت من أجلها مدينتي وأهلي وأصحابي وعملي. كلكم تعرفون، كم أحببت هذه القحبة. لكن اليوم، خلاص، كل شيء انتهى، بعدما رأيت ما رأيت. من فضلكم اسمعوني جيداً، أريد ان أعلن لكم الحقيقة، كل الحقيقة. لقد فكرت طوال الظهيرة، وقلت في نفسي، يا قاسم يا ابن الحلال، اذهب وتكلم مع سمر للمرة الأخيرة علّها ترضى بك زوجاً. وفعلاً حين رأيت أم سمر في السوق، واخوتها الصغار يلعبون الكرة في الساحة، قررت التوجه إلى منزلها لأحدثها بغايتي الشريفة. انتظرت أمام الباب اكثر من ساعتين ولم أجرؤ على الدخول، فقد تربيت على مراعاة حرمة المنازل وأعراضها. وبعد ساعتين من الانتظار كالكلب.. يا الهي، ماذا رأيت؟! مزق الألم قلبي، وأقسم لكم انني بكيت مثلما تبكي النساء. رأيت ثلاثة مغاوير مصريين يخرجون من بيت سمر. وكم تمنيت ألا ترى عيني ما رأت. ولما اشتد بي الغضب اقتحمت المنزل، لأرى المشهد المرعب، بل المخجل. رأيت القحبة ممددة على سريرها عارية. أردت أن أخنقها لولا تراجعي في اللحظة الأخيرة، فأنا رجل عاطفي وحنون.

قلت في نفسي ان الواجب يتطلب ان أفضحها أمامكم، سرقت لباسها وشرشفها الملطخين بالدم لتروها بأم أعينكم وتعرفوا كيف تتصرفون مع هذه البنت الشريرة القحبة».

ثم أخذ قاسم يبكي ويمسح دموعه، قائلا «يا للعار، يا للعار، لن تروا وجهي بعد اليوم». واختفى.

بعد ذلك جاء دور سمر في التطواف على البيوت، بيتاً بيتاً، تكذّب ما قاله قاسم دون ان تتوقف عيناها عن سكب الدموع «يا خالة فهيمة، صدقيني لم يدخل أي غريب دارنا». «اقسم لكم ايها الناس انني لم أعاشر رجلاً في حياتي».

ثم جاءت إلى أمي: «صدقيني يا خالة كرجية ويا خالة سكينة أنا بريئة وهذا الوغد، كذاب، تسلل إلى دارنا من النافذة الخلفية، سرق ملابسي الداخلية ولطخها بالدماء. اقسم لكم انني بريئة. انني شريفة؟. انتم تعرفون ان قاسم تقدم للزواج مني عدة مرات ورفضته. أليس هذا كافياً لكي يحقد عليّ؟». «صدقوني أنا بنت شريفة، ان الله ورسوله شاهدان على ان مصرياً واحداً لم يدخل بيتنا أبدا».

وقد قالت فاطمة بنت نصرت شاه انها رأت سمر تضرب على صدرها وتقول «لا أحد يصدقك يا سمر، الوغد نفّذ خطته جيداً». أما قرياقوس فقال انه رأى سمر حزينة وشاحبة وانها «ذكرتني بالممثلة مارغو غراهام تسير متعبة وشاحبة الوجه في مشهد من فيلم THE INFORMER».

ومع اختفاء قاسم، بدأت ثرثرات الأهالي تنير بعض الجوانب المظلمة التي كنت أرى انها تكتنف شخصية قاسم. قيل انه جاء من مدينة الرمادي لأول مرة منذ أربع سنوات. كان في الثانية والعشرين من عمره، ومثله مثل العديد من شباب المدن والقرى المحيطة، نظر إلى الحبانية باعتبارها جنّة تتوسط محيطاً من الحياة العشائرية، البدوية

المتزمتة. وقد اعجب بالمدينة وبناسها، وظل يكرر زياراته كل شهر ثم كل اسبوع، حتى وقعت عيناه على سمر، فصارت زياراته يومية. قال الأهالي ان قاسم، منذ أن أعجب بسمر، أخذ يجلب لها ولعائلتها الكثير من الهدايا، ولكنها لم تستلطفه أبداً. حين توفي قمندار، والد سمر، اشترى قاسم كيسين من الرز والفاصوليا البيضاء، التي طبخت ووزعت على الناس في ليلة تأبينه.

لم يأبه قاسم لرفض سمر، بل ظل يطلب يدها المرة تلو الاخرى. والمصيبة ان سمر لم تكن تخفي كراهيتها له. حدث مراراً ان صرخت في وجهه «عليك ان تفهم يا قاسم انني لا أحبك». وظن قاسم انها ربما ستغير رأيها ذات يوم. وذلك ما لم يحدث. على العكس، ازدادت علاقتهما خراباً. فقد صرخت سمر في وجهه أمام حشد من الناس، عند حنفية الغسيل «والله العظيم، لو انك بقيت الرجل الوحيد على سطح الأرض فأنا لن أدعك تلمسني. انني أكرهك، هل فهمت؟» يومها، مسكها قاسم من يدها، وقال «لم يبق شاب واحد في المدينة لم يداعب جسدك. كوني عاقلة، ويكفينا فضائح» ولم تنفع صرخات سمر وهي تكرر «اتركني ايها النذل، انني أكرهك». حتى اضطرت إلى ان ترفع فستانها وتصرخ، مشيرة إلى ما بين فخذيها «هذا لي وأنا حرة به، هل تفهم؟ منذ ساعة فقط، اسمع جيداً، منذ ساعة واحدة فقط وهبت هذا الجسد لرجل أحبه، نعم لرجل أحبه».

«أعرفه» رد قاسم وهو يكبت انفعالاته.

«طبعاً تعرفه» قالت سمر وهي تنزل فستانها وتحجب عن الناس كيلوتها البنفسجي (البعض قال كان أصفر) وأضافت «كيف لا تعرفه وهو الذي أشبعك ركلاً ورفساً، وكنت أنت مثل المرأة ممدداً على الأرض تئن وتصرخ (يكفي يكفي)» احتقن قاسم ولم يتمالك اعصابه فهجم عليها ضربا بيديه وقدميه «يا قحبة. إذا كان اخوتك صغارا وأمك

المسكينة غير قادرة على تربيتك، فان قاسم يعرف كيف يعيدك إلى الطريق المستقيم».

***

بعد حكاية جاكلين وسمر مع المغاوير، توجه معاون الشرطة إلى مقر القيادة العسكرية، حيث قدم احتجاجاً شديد اللهجة ضد سلوك «اخوتنا المغاوير المصريين». وفي الظهيرة زار المعاون الأهالي وطمأنهم إلى ان المغاوير لن ينزلوا إلى المدينة إلا يوم الجمعة فقط «وستكون تحركاتهم خاضعة لمراقبة شديدة من رجالي». كما ارسلت ادارة الشرطة مذكرة توقيف إلى مدينة الرمادي تطالبها بايقاف المدعو قاسم لاعتدائه على سمر قمندار. وقد قام المعاون بهذه الاجراءات لتهدئة الناس، لأن قصة سمر ليست مثل قصة جاكلين «وكلكم تعرفون ان بنات أخوتنا المسيحيين يقلدن بنات الانكليز بعلاقتهن بالرجال والأزياء». قال معاون الشرطة.

«سأقيم أكبر حفلة إذا صح ما قاله شاكر الهندي». قال قرياقوس وهو جالس وفي حضنه كيس ورقي منتفخ. ومادام ردد اسم شاكر الهندي، فانني خمنت ان الكيس مليء بالتفاح.

«ماذا قال شاكر الهندي»؟ تساءلت سكينة.

«كلاماً يسر القلب يا ننه سكينة. وأرجو ان يبقى هذا الكلام بيننا. لقد ابلغني ان معاون الشرطة أخبره بان الغرباء..»

«المصريون» قاطعته سكينة.

«الأفارقة يا ننه سكينة» رد قرياقوس بسرعة واكمل «هؤلاء الغرباء سيرحلون بعد ان يقوموا بمهمة استعراضية في الاسبوع المقبل.. آه أخيراً سيرحلون».

«مهمة استعراضية؟» تساءل علي.

«نعم. والله أعلم ما هي هذه المهمة؟» تمتم قرياقوس وهو يلقي

نظرة على مربعات قميصه، السوداء والحمراء، ثم اخرج تفاحة وقدمها لي قائلاً بفرح:

«خذ Strong Boy»

«لا أحب التفاح» أجبت.

«خذ» عاود قرياقوس.

«لا أريد. . لا أحب التفاح. . لا أحب التفاح» أجبت وانا أنهض باتجاه غرفة السينما.

أخذ المغاوير ينتشرون في شوارع المدينة ومنعطفاتها. كانوا يرتدون ثيابا عسكرية مرقطة ويحملون رشاشات الكلاشينكوف. وفي الساعة العاشرة (تقريباچ) وكنت مع نصرت شاه نبيع ساندويتشات العنبة، سمعنا سيارات البلدية تعلن، وهي تقترب من المدرسة، ان «سيادة رئيس الجمهورية سيصل المدينة بين لحظة واخرى لافتتاح الجامع الجديد» وتدعو الناس بالتجمع عند مدخل البوابة الرئيسية وحتى جسر الحبانية «للترحيب بالضيف الكبير».

وقد استغرقت هذه الـ«بين لحظة واخرى» اكثر من خمس ساعات. كنا واقفين فوق الجسر، في تلك الظهيرة عندما حطّت طائرة الرئيس من بعيد، ثم مرت من فوق رؤوسنا، في طريقها نحو مدرج القاعدة الجوية.

«ما أجمل هذه الطائرة. انني أحب الطائرات كثيرا كثيرا» قال روبن مغمضاً عينيه إلى النصف.

«انها حقاً جميلة» اجبته ونظرت اليه «ماذا تفعل يا روبن إذا أعطيناك طائرة الرئيس؟».

«أنا» قال روبن مندهشاً وأضاف «آخذ شمشون إلى سيدني، وتيدي إلى ديترويت، وأنت وعمو قرياقوس إلى هوليوود. . ثم أطير بها لوحدي».

«إلى أين؟»

«لا أدري. أبقى في السماء». وبعد لحظات من الصمت وسط صخب الناس المحتشدة ووشوشاتها، قال روبن، فجأة، مستدركا «اذهب إلى كندا».

«إلى كندا» سألته.

هز رأسه موافقاً «نعم إلى كندا. انها بيضاء. رأيتها في الصور».

هل تحب اللون الأبيض؟»

هز رأسه موافقاً وراح ينظر إلى طائرة الرئيس وهي تسير ببطء فوق مدرج المطار.

لقد مرض روبن مرضاً شديداً بعد أيام، حين انفجرت طائرة الرئيس وتناثرت جثته إلى مزق. مرض روبن ولم يذهب إلى المدرسة لأكثر من عشرة أيام ليس حزناً على الرئيس، بل على طائرته التي أحبها، اذ انه لم يسمع ابدا بانفجار طائرة. لقد صرخ في وجهي، وأنا أشرح له الدروس التي تعلمناها اثناء غيابه.

«أنت لا تحبني، لماذا لم تخبرني ان الطائرات تنفجر».

«أنا لست الله لأعرف انها ستنفجر» قلت ذلك والتفت بسرعة إلى صورة المار شمعون المعلقة في المنزل.

«قل والله بانك لم تكن تعرف ان الطائرات تنفجر».

«برأس المار شمعون لم أسمع أبداً بانفجار طائرة». أقسمت وأنا أعرف جيداً انني قد سمعت بانفجار مئات الطائرات.

ولم يصدقني روبن إلى ان علمت، وبالصدفة، من زبون لاحظ انني أنظر إلى الجريدة التي كان يحملها وأنا أمد له الساندويتش، فقال لي وهو يريني الصورة المنشورة «انها صورة الهيليكوبتر التي انفجرت بالرئيس». في ذلك المساء عدت مسرعاً إلى البيت وأخبرت روبن ان

الرئيس انما كان يستقل هيليكوبتر وليس طائرة. في الصباح، شفي روبن وكان رفيق طريقي إلى المدرسة، كان يُطيّر راحته اليمنى في الهواء ومن فمه يُخرج صفير اقلاع الطائرات.

في «غرفة السينما»، قلت في نفسي، انني عندما أكبر لن أركب الطائرة في طريقي إلى هوليوود، مهما كلف الأمر. ولأبعد عني شبح طائرة الرئيس، طفتُ بنظري في الصور المعلقة على الجدران، فاختارت عيناي التوقف عند صور من فيلم FOUR SONS، صورة الأم الحزينة مارغريت مان ماسكة بيديها الاثنتين رسالة تعلمها بوفاة أحد اولادها في الجبهة، وساعي البريد، ألبرت غران إلى جانب النافذة المطلة على الحديقة. تملكني الحزن اكثر حين نظرت إلى الصورة الاخرى، جندي منبطح خلف المتراس، بانتظار الموت، هو الاخر. كنت أفكر بالموت، حين دخل أبي وهو يصفق ويصفر راسما الاشارات التالية: وضع كفه اليمنى على الجانب الأيمن من جبينه، أشار إلى ذكره ومرّرَ سبابته اليمنى فوق السبابة اليسرى وكأنه يقطعها، مدّ راحته اليمنى أمامه وهزها يمنة ويسرى، اصدر أصواتا غريبة وعجيبة من فمه، عفّط وهو يطلق يده في الهواء. ففهمت انه يقول لي «العساكر، مقصوصو القلفة، الذين نراهم يثرثرون في السينما، قد رحلوا».

***

عندما رأيت القس روفائيل ويوشيا والممرض نيقولا مقبلين صوب بيتنا، هرعت إلى القس روفائيل الذي مدّ لي يده فقبّلتها. في البيت، كان يوشيا هو الذي بدأ الكلام، فقد كان «شيطاناً» كما تقول عنه أمي. تحدث يوشيا مطولاً عن أخلاق نيقولا قائلا «انه صديقنا، وهو آشوري مثلكم. وهو يتيم، وهذا يعني يا أختي كرجية انه سيكون واحداً منكم. أنتِ تعرفينني جيداً، فلو لم أكن واثقاً من أخلاقه لما جئت معه، ولا أريد أن أخفي عليكم، انه سينتقل إلى بغداد، كما انه ترفع منذ أسبوع

وأصبح عريفاً». وبعد لحظات من الصمت نظر يوشيا إلى القس روفائيل الذي نظر بدوره إلى أمي وقال «نعم يا أختي كرجية، ما قاله العزيز يوشيا صحيح. فالسيد نيقولا ابن حلال، وأنا أعتقد ان موافقتكم ستكون لصالحنا جميعاً. وأنا علمت من أخي نيقولا انه لولا الأمر الذي صدر بنقله إلى بغداد لكان أنتظر بعض الوقت، حتى تكبر البنت أكثر».. فقاطعه يوشيا ضاحكاً «كلنا نعرف يا أختي كرجية انكِ تزوجت من صديقنا كيكا، وكنتِ ابنة ثلاثة عشر عاما (ابتسمت أمي بطريقة، أخمنّ انها لعنت ذلك اليوم) ومع ذلك، ما شاء الله، بنيتِ أسرة كبيرة، وأولادك كلهم خير وبركة».

جالت أمي بنظرها علينا جميعاً، ثم توقفت عند أبي وأشارت له، كمن يضع خاتماً في الخنصر الأيسر. وهزّ القس روفائيل رأسه، كاشارة اقتناع وإقناع. ولما كان القس روفائيل يعرف ان أبي مسيحي «مؤمن» رسم له اشارة الصليب ونظر إلى السقف وأشار إلى نيقولا، وهزّ رأسه مرة أخرى (الله شاهد على أخلاق هذا الرجل). فأشار بأن ضرب على صدره، ومرر يده اليسرى على خديه، ولمس شفته السفلى (تحدثوا إلى البنت الحلوة).

«كما ترون، يا أمي» ردت شميران مبتسمة بخجل. عندها قفز يوشيا مثل الثعلب، وقبّلَ يدي أمي وهو يردد «كنتُ واثقاً من قلوبكم الطيبة» وأضاف وهو يلتفت إلى نيقولا «هيا قُم قبّل يدي أهلك وأجر بسرعة، اشتر لنا الكباب وثلاث قنان من العرق».

بعد اسبوعين فقط، أقيم العرس في حديقة النادي الاجتماعي. كان أبي فرحاً، يشرب الكاس تلو الأخرى، متنقلاً بين الراقصين والراقصات على أنغام الموسيقى الفولكلورية الاشورية. حين وضعت موسيقى غربية هادئة سحب نيقولا أمي من يدها ليجعلها تراقص أبي الذي رفض مراقصتها، فقالت أمي ضاحكة «رضينا بالفقر، والفقر ما رضى بنا».

كثيرا ما كنا نتساءل، عن غرابة العلاقة بين أمي وأبي. ذات مرة سأل شمشون، «كيف أصبح أبي أصم وأبكم، يا أمي؟». يومها كانت أمي تبدو سعيدة فأجابت بنبرة فخورة «آه، يا أولاد، كان أبوكم طياراً فأصابت طائرته قذيفة حولته إلى أصم وأبكم». كنا سنصدق كلام أمي هذا لولا انها كانت تقول كلاما مغايرا في لحظات غضبها «آه، اللعنة على ذلك اليوم الذي زوجوني فيه من هذا الاخرس الاطرش». كنا نرد عليها «ولكنه كان طياراً يا أمي»، فترد أمي بحسرة «أي طيار هذا الذي خرج من بطن أمه أخرس وأطرش!».

حين رأى أبي انفراط حلقات الرقص الفولكلوري وكل رجل أخذ يراقص امرأته، دار بين الراقصين حتى وجد شابة جميلة، سحبها إلى الحلبة وأخذ يراقصها. وشيئا فشيئا أخلى الراقصون الحلبة لأبي و«صديقته» وظلوا يتفرجون عليهما. اتذكر جيدا كيف اخذ المطر يتساقط بنعومة في ذلك الغروب، وكيف هرع الحضور إلى داخل المبنى، وراحوا يتطلعون إلى حلبة الرقص، من شرفات النادي ونوافذه ومطبخه وحمامه. رأوا كيف دفع أبي بشريكته بعيداً عنه وشرع يرقص وحيداً تحت زخات المطر الذي اشتد أكثر مما مضى. لم يكن معنا، بل كان يرقص على انغام ذلك اللحن الذي لا يسمعه سواه، اللحن الذي أخذه إلى صالة الرقص الملكية، مرتديا السموكينغ، وسط الأميرات والأمراء، يرقص «الفالس» مع صديقته اليزابيث. ظل يرقص هكذا إلى ان خرجت أمي تحت المطر لتوقظه من غيبوبته، مرددة وهي تقبله وتجرجره إلى داخل النادي «ايها المجنون، من يطعم اولادك إذا مرضت».

حزنت أمي لغياب شميران عن البيت مرة وإلى الأبد. كانت أولى ذريتها «ذهبت البنت الوحيدة يا سكينة، وبقي الاولاد الخمسة» كانت تقول، فترد سكينة «لا تحزني يا أختي كرجية، سيكبرون بسرعة وسيعينونك».

***

ألحَ عليّ أبي لمرافقته إلى النهر لنصطاد السمك. فقبلت. في البساتين، كنا نقفز من ساقية إلى أخرى بحثاً عن الدود لنستخدمها كطعم. هناك، وعند حافة ساقية وجدنا طابعة سوداء بحروف عربية. كنت أعرف الأبجدية الانكليزية، فتهجيت ماركتها C.A.R.P.E.N.T.E.R فرحت بالطابعة وفرح معي أبي. وباشاراته اوضح لي انه لا داعي لأخذ الكاربنتر إلى البيت فورا، وانه يعرف مكاناً آمناً، نخفي فيه «كنزنا» حتى عودتنا من النهر. على مضض وافقت مثل كل الاطفال. عبر أبي ساقيتين أو ثلاث، اختفى للحظات خلف شجرة شوك كبيرة ثم عاد مبتسماً.

كانت الصنارة غاطسة في الماء، وكنا ننتظر اهتزازها مرة أخرى، حين رأيت الكاربنتر تطفو على سطح الماء، سابحة باتجاه الضفة الاخرى من النهر. أشرت لأبي أن نعود إلى البيت. ضحك وهو يمدّ يده في عبّه ويخرج صفحة مقتطعة من مجلة انكليزية. أشار إلى صورة امرأة شقراء ورسم الاشارات التالية: هزّ قبضة يده اليسرى عدة مرات إلى الامام وإلى الوراء، ضرب بسبابته اليسرى على صدره (يقصد انه ضاجعها) وضحك مفتخراً. أغمضت عينيّ وهززت رأسي محاولاً أن أبعد عن ذهني كلام أمي «يا أولاد، الله لا يظلم أحداً، وهو يعرف لماذا قطع لسان أبيكم». وبعد لحظات أشار إلى السمكات الصغيرة المحبوسة في كيس النايلون، إلى جانبي، ثم إلى ذكري، وإلى طول صنارته. عمل بيديه حركة كمن يقشر موزة. ففهمت انه يقول «ان ذكرك الآن مثل السردينة، وحين تكبر سيصبح مثل الموزة» وضحكنا.

لم تكن الكاربنتر في مخبئها حين عدنا من النهر. ولما رأى أبي الدموع تتجمع في عينيّ. بحركة خاطفة عصرَ بقبضته اليسرى غصناً من شجرة الشوك فتطايرت الدماء من بين أصابعه، أحسست أن شيئاً يخز قلبي أو شيئاً يسقط من قلبي. خلعتُ قميصي الازرق، وربطت له يده، مبتسما.

ظلت صورة الكاربنتر في مخيلتي طوال الوقت. كنت أبيع ساندويتشات «العنبة» أمام صالة السينما وافكر بكاربنتري. ومما زاد في ألمي وحرقة قلبي أن قرياقوس قال لي «قرأت منذ أمد بعيد، ان الطابعة تمتلك سحراً خاصاً في اجتذاب دواخل من يداعب حروفها، وأنه من المستحسن للفنان أن يطبع أعماله على الطابعة بنفسه، لأنه عندها سيكتشف كم هي خائنة كتابة اليد». وقال أيضاً «ان الطابعة، عدا عن جمالية الشكل وسهولة القراءة، تمنح العمل، ومنذ السطور الأولى جدّية ووقاراً». وأضاف متنبئاً «ان الطابعة التي ظهرت أمامك عند حافة ساقية، وسط البساتين، لا اعتقد انها تختفي بهذه السهولة. ثمّة قصّة قد رسمت بداياتها، ولا بد من ظهور تلك الطابعة آجلا أم عاجلاً».

بعد يومين أو ثلاثة من «سرقة» الكاربنتر، قال لي قرياقوس «ان الفنان بلا طابعة مثل سائق بلا سيارة» وكنا نعرف أن قرياقوس كان في شبابه سائقاً.

وجاء اليوم الذي قرر فيه يوشيّا البقال اقفال دكانه الصغير والهجرة إلى ديترويت، ملتحقاً بأبنته فكتوريا. كان الوقت ظهراً حين ناداني يوشيّا «تعال يا لعين يا كاوبوي، لقد وضعتُ لكَ جانباً صندوقاً كاملاً من مشروب «المشن» وعشر قنان أخرى لصديقتك نسرين». أخذت حصة نسرين وطرقت باب منزل الخالة زهرة. فتحت نسرين الباب وهي تبتسم. قبلت هديّة يوشيا وهي تفسح لي الطريق نحو المطبخ. كنت أضع القناني على الطاولة، حين سقطت عينيّ على الكاربنتر، فرأيتها هناك مضطجعة على الأرض، عند الجهة اليسرى من المطبخ.

«أوه..».

«ما بكَ؟» قالت نسرين.

«لا شيء، لا شيء». قلت ثم هممت خارجاً وشبح الكاربنتر أمامي. قلت في نفسي «اذا كنت مستعدا لأن تفعل أي شيء لارضائها، لتكن

الكاربنتر عربون محبتك لها». لكن الذي ظل يقلقني ويشغلني لأيام وأيام هو كيف انتقلت الكاربنتر من تحت شجرة الشوك إلى مطبخ خالة نسرين؟

***

كنت أبيع الأزبري أمام مدرسة البنات، حين اخذت بعض التلميذات بالصراخ. «حيّة، حيّة، حيّة». كانت أفعى كبيرة جداً، طولها متر ونصف تقريبا، بدت لي متعبة. تناولت الحجارة ورحت أركز ضرباتي على رأسها، حتى تجمدت في مكانها. وبجرأة، لا أعرف من اين جاءتني، جرجرت الأفعى من ذيلها أمام أعين البنات اللواتي رحن يهتفن «جويي قتل الحيّة، جويي قتل الحيّة». ولولا فراش المدرسة الذي اخذ الافعى وألقى بها في مكان خرب، ربما كنتُ خلعت قميصي، مثل هرقل، وأدخلت يدي بين فكي الأفعى لأشقها إلى نصفين.

حين رويت لأمي كيف قتلت الأفعى وأنقذت البنات، أخذت تضرب على خديها بكلتا يديها وتصرخ «يا مجنون، يا ابن المجنون، هل رأيت انساناً عاقلاً يقتل أفعى في شهر أيار؟. لماذا أنت بالذات؟ لماذا لم يقتلها شخص آخر؟ ها؟ ألا تعرف ان الأفعى تملك روح الثأر؟» واضافت بعد ان هدأت «يا ابني لو انك كنت قتلتها في آخر الصيف فأن فترة الشتاء ربما كانت تنسي صغار الأفعى أو زوجها، بأخذ الثأر. أما وانك قتلتها في بداية الصيف، فأن أهلها سيخططون طوال الصيف للأنتقام منك».

«ماذا تقولين، يا أمي». أجبتها باكيا.

«والله العظيم، هذه الأفلام لم تترك في رأسك أي قطرة من العقل، صرت أسوأ من أبيك. اسمع، أنت بدءا من الليلة سوف تنام في الغرفة وتغلق على نفسك الباب. هل فهمت؟»

«نعم أمي». قلت مرتجفا.

وقد روت لي أمي قصة جدها وأولاده السبعة، قائلة «كان جدي يحتفظ في منزله بأفعى، وذات مرة تجرأ أحد أولاده واقترب من الشق الموجود بين الحائط والسقف، حيث تعيش الأفعى منذ سنوات. ولما وجد بيضتين، أخذهما ولعب بهما مع اصحابه في الشارع. وفي الليل نزلت الأفعى من «بيتها» وظلت تدور بين أولاد جدك النائمين جنباً إلى جنب، حتى عرفت الولد الذي أفسد البيضتين، غرزت أنيابها في قدمه اليمنى، حتى انفجر رأسه ومات».

بعد هذه الحكاية، أصبحت أفكر بالموت طوال الوقت. أنظر في العربة قبل أن أمّد يدي لأتناول أي حاجة. التفت إلى كل الاتجاهات كلما سرت في طريق مظلم. وفي الليل، رغم الحر الشديد، كنتُ أغطي نفسي بالبطانية واغلق الباب، دون أن أنسى غلق الفتحة الموجودة تحت الباب، واشعل الفانوس لمراجعة دروسي خشية أن يستدل على مكاني «أقرباء» الأفعى أو أحد أولادها. بقيت على هذه الحال بضعة أيام.

وعلى الرغم من ان نصرت شاه أخبرني ان ما روته أمي هو نوع من القصص الخرافية الا انني ظللت خائفا. قالت لي سكينة «اقرأ سورة الوسواس الخناس عشر مرات قبل النوم، ولن يقترب منك لا أنس ولا جان». وقد أخذت بنصيحة سكينة، ورحت اقرأ السورة عشر مرات كل ليلة قبل النوم. وكنت حين أشك في بعض الاحيان ان كنت قرأت السورة تسع أو عشر مرات أولا، كنت أعيد قراءتها خمس مرات أضافية لكي أحسم المسألة نهائياً.

**

قبل يومين من بدء الامتحانات المدرسية، ذهبت مع أبي إلى السينما لمشاهدة الفيلم الهندي «دو بدان» (جسدان). كان الفيلم حزيناً جداً، كلما غنى بطل الفيلم أو البطلة كان أبي يضع رأسه على كتفي، ويغني: «هم م م م مم آه آه آه آه ها ها هو هو هو هو هو م م م م م م هه

ههههه ممم م م مممممم هههمممهمهيم »، وقبل أن ينتهي الفيلم وشوش في أذني وخرج من الصالة، ففهمت انه ذاهب إلى البار.

بعد لحظات قليلة من خروج أبي بدأ أحد الجالسين في المقعد الخلفي يلقي بقشور «الحب» فوق رأسي وكتفي. كنت أزيل القشور واتابع مشاهدة الفيلم، فيعاود الشخص، لعبته. عندما التفت إلى الوراء، رأيت الولد الأرمني خاجيك، يأكل الحب وينظر إلى الشاشة. ثم فجأة بصق بقشور الحب في وجهي، متشجعاً بجلوسه إلى جانب أحد العاملين في مخبز أمه. وقفت فوق مقعدي وألقيت بنفسي فوقه ورحت أوجه اللكمات إلى وجهه السمين الأحمر المدور وأخذت أخنقه بقوة. كنت سأقتله لولا ان ادارة السينما أوقفت عرض الفيلم وأشعلت الأضواء، وحين رأيت عامل السينما يقترب منا، عرفت انه سيستغل الفرصة لينتقم مني. فانسللت هاربا من الصالة، متجها إلى البار حيث شرحت لأبي ما حدث. ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى جاء شرطي وسحبني من ياقة قميصي قائلا «ماذا فعلت بابن الأرمنية الطيبة، ايها الولد الشرير! هيا اخبرني. تعال إلى المخفر لأريك كيف تكون بطلا».

أخذ أبي قنينة البيرة وجرعها مرة واحدة، ثم قهقهه بصوت عال «هل كان يقول لنفسه ان جميع الوساطات التي كان يقوم بها ليشتغل في مخبز أم خاجيك قد ذهبت أدراج الرياح؟». تساءلت مع نفسي.

كنت ممسكا بالقضبان الحديدية لباب السجن في مخفر الشرطة وأنظر صوب الحديقة المظلمة. بعد ساعة جاءت أمي وقرياقوس وتوسلا بمعاون الشرطة لكي يطلق سراحي، لأن عندي امتحانات في المدرسة في اليومين المقبلين. لكن المعاون أبلغهم انه سوف يبقيني على الاقل ليلة واحدة «لكي لا يعيد فعلته مرة أخرى». طبعا، قبل أن يذهب قرياقوس، قال لي مبتسما: THE PRISONER OF SHARK ISLAND.

كان نقيق الضفادع القادم من الحديقة يكسر هدوء الليل. وفي غرفة

السجن كنت وحدي، تارة أتفحص الثقوب الموجودة في الجدران، وأنظر إلى الحديقة تارة أخرى. شيئا فشيئا أخذ شبح الأفعى يقترب مني. وقفت في وسط الغرفة، وأنا ألتفت في كل الاتجاهات، ضاربا بقدمي في أرض الغرفة المظلمة علني أسحق الأفعى! لكنني لم أحتمل الأمر فظللت أصرخ «الحقوني، أريد أن أخرج من هنا. هناك حية تطاردني، لا أريد أن أموت، الله يخليكم اخرجوني من هنا» لم يأبه أحد لنداءاتي إلى أن غلبني النعاس.

فتحت عينيّ في الصباح فوجدتني مكوماً في زاوية مدثراً ببطانية، وكان قاسم في الزاوية المقابلة يدخن سيجارة.

«صباح الخير أسطة جويي» قال قاسم بصوت مبحوح وحزين. انتفضتُ مذعوراً وأنا أفتش في ثنايا البطانية، فأردف قاسم مبتسماً «لا تخف، لقد جاءت الحيّة وذهبت. لم تكف طوال الليل من الحديث عن الحيّة..». وضع سيجارة أخرى في فمه واضاف «هيي جويي، هل رأيت سمر؟».

«نعم، أراها كل يوم، إنها لطيفة جدا».

«سوف أتزوجها وأصلح الأمور».

«ولكن، كيف تتزوجها بعد أن رأيت الجنود المصريين في فراشها»؟

«لا، لا يا جويي، تلك القصة ملفقة».

«ماذا يعني ملفقة»؟

«يعني غير صحيحة».

«ولكنك رأيت ثيابها ملطخة بالدم».

«لم يكن دما، بل حبر أحمر».

«حبر أحمر»!

«نعم، حبر أحمر». قال بهدوء واشعل سيجارة اخرى وواصل. «لقد

استغللت خلو منزلهم، فدخلت من الشباك الخلفي وأفرغت في ثيابها وفراشها قنينة من الحبر الاحمر، جلبته معي من الرمادي».

«هل ستخبر الشرطة بذلك؟».

«طبعا. وقد اخبرت العديد من الاهالي، قبل أن آتي إلى هنا بقدميّ».

«هل سيحبسونك؟».

«لا يهمني الحبس. كل ما أطلبه هو أن أحبس هنا، في هذا السجن، وليس في سجون الرمادي».

«لتكون قريباً من سمر؟» قلت مبتسما.

«أنت ولد ذكي، جويي» قال ضاحكا.

عندما جاء معاون الشرطة قال لي وهو يشدني من أذني اليسرى «سنطلق سراحك الآن لتذهب وتؤدي امتحاناتك المدرسية، ولكن في المرة القادمة سوف نجلسك على الكرسي الكهربائي. أنت تعرف اننا نملك واحدا، هل فهمت، ها».

«ولكن خاجيك هو الذي تهجم عليّ». قلت له.

«لا أريد أن أسمع أي كلام، يللا اذهب إلى البيت».

كنت على وشك العودة إلى السجن من جديد، بعد أيام قليلة فقط. اذ تقدمت سليمة، أم مهدي، بشكوى ضدي لدى مخفر الشرطة. وقد أقسمت لمعاون الشرطة بانني كنت بريئا. وقد حدث الأمر كالتالي: كنت مع اصدقائي في ملعب كرة القدم القريب من البساتين، عندما خطرت لي فكرة ان نمثل فيلماً في الهواء الطلق، وباعتباري «سيناريست» ومخرجا، قمت باسناد الادوار للاولاد، لكل منهم الدور الذي يناسبه.

كان دور ابراهيم (البطل) وغلوبي (الشرير) والبرت (الشريف، أما مهدي الذي كان في الثامنة فيلعب دور (البطلة). وقد أشرفتُ على تنفيذ

السيناريو: يقوم الشرير بخطف البطلة وينطلق بها في البساتين، فيأتي البطل راكباً حصانه، باحثاً عن الشرير، وعندما يحدث اشتباك بين الشرير والبطل يتدخل الشريف. بعد ان اتفقنا على السيناريو صرخت بأعلى صوتي «أكشن». انطلق الجميع صوب البساتين. كانوا يركضون وكأنهم يمتطون الخيول، مقلدين الكاوبويز.

بعد انقضاء نصف ساعة، جاءني (البطل) و(الشريف) ليقولا لي انهما بحثا طويلاً عن (الشرير) و(البطلة) دون فائدة. ولا ندري من أين طلعت غلاديس. كانت في الثالثة عشرة، وكنا نعتبرها فتاة مؤذية، فسارت معنا لنبحث عن البطلة والشرير. كنا نسير بين الاشجار والسواقي، فرأينا غلوبي نائماً فوق مهدي وهو يقبل صدره، تماماً مثل المشاهد التي نراها في افلام الكاوبوي (هذا المشهد لم يكن مدرجاً في السيناريو) فهرعت غلاديس وأخبرت أم مهدي بما شاهدته. فجاءت سليمة غاضبة وهي تمسك بولدها وفي يدها سكينة، تصرخ وتولول «الله أكبر، الله أكبر، ابن كرجية جلب لنا العار، والله سأذبح ابني بالسكين، سأذبحه الآن أمامكم، انظروا. انظروا» ولما لم يقترب منها أحد، عادت تقول «اذا كنتم غير قادرين على تربية ابنكم، خريج السجون فأرسلوه إلى الاصلاحية.. سوف أذبح ابني، والله سأذبحه لكي ترتاحوا» وخرج بعض الناس ليهدئوا سليمة. لكنها لم تبتعد عن بيتنا الا بعد أن رأت أمي تهجم عليّ وتغرز انيابها في أضلاعي. في الوقت الذي كان فيه البطل والشريف والشرير واقفين فوق السطح وهم يراقبون مصير «مخرجهم». (فيما بعد قال لي غلوبي، انه حين رأى أمي تغرز أسنانها في اضلاعي تذكر دراكولا. لم أغضب منه، ولكني قلت له ان امي طيبة القلب).

وعلى الرغم من ان سليمة لم تسحب شكواها ضدي، فان معاون الشرطة لم يدخلني السجن، لسببين: الاول ان قرياقوس شرح للمعاون

تفاصيل وقواعد «اللعبة» قائلا ان «جويي رسم سيناريو لتحركات مجموعة من الاولاد وهو ليس مسؤولاً عن كل ما هو خارج السيناريو». والسبب الثاني، ان المعاون يعرف جيداً سجل سليمة، الحافل بالشوائب الاخلاقية. فالمدينة، ولنقل نصفها، تعرف ان سليمة كثيرا ما كانت تدور في الأزقة، في الليل، وهي تغطي جسدها العاري تماماً، بالعباءة السوداء وحدها.

كنت ممددا في فراشي وانا انظر إلى السماء، طلبت من الله (تراءى لي المار شمعون بثيابه السوداء ولحيته الناعمة) أن يحقق أمنيتي لأصبح مخرجا سينمائيا كبيراً، فلكزني تيدي في بطني هامساً «توقف عن الحركة». فشرعت في قراءة سورة الوسواس الخناس عشر مرات، وربما ثلاث عشرة، وربما اكثر. وقبل أن أنام، ولكي أجعل الأمور تختلط في عين الأفعى التي تلاحقني، مددتُ قدمي اليمنى بين قدمي تيدي، ودسست بين قدمي روبن، قدمي اليسرى، دون أن انتبه إلى ان أمي كانت تصغي لتراتيلي القرآنية، حتى سمعتها تقول لي وكأنها تحدث نفسها:

«أخشى أنك ستبيع دينك ذات يوم».

***

في الطريق إلى البساتين، قال غلوبي ان رزوقي، منظف المرحاض العام، ضرب ألبرت القرد (لأنه مشعر) ضرباً مبرحاً، بينما تمكن جليل الياباني وجليل الدب من الفرار. وقال غلوبي انهم كانوا ينظرون من خلال الفراغات المحيطة بأنابيب المياه الموصلة بين (المرحاض العام) من الداخل، و(حنفية الغسيل) من الخارج، إلى أفخاذ بعض النسوة المنهمكات بغسل أشيائهن، وتحديداً صوب ساقي صبيحة المفتوحتين. كانوا يدعكون ذكورهم عندما هجم عليهم رزوقي وتمكن من الظفر بالقرد وأشبعه ضرباً بجزمته المطاطية. فعلّق القرد من ان صبيحة كانت

تعلم بما نفعله. وحين سألته «كيف عرفت ذلك؟» أجاب انه سمع سكينة تقول لها «لماذا لا ترتدين ثوباً طويلاً يا صبيحة»؟ لكن صبيحة ظلت تغسل ثيابها وهي تغني، بل وتعمدت ان تفتح فخذيها أكثر فأكثر، وقد رأينا كيلوتها الذي كان وردياً في هذه الظهيرة».

ولم يتوقف القرد عن الحديث عن فخذي صبيحة، الا عندما أشار غلوبي إلى ذكره صارخاً «لنر من يملك ذكراً أكبر؟». «ذكري هو الاكبر» رد القرد. «لكنك لست مختوناً» قال الياباني. «لا» صرخ القرد «في هذه المسائل، البنات يفكرن في الحجم». نظرتُ إلى ذكري فوجدته صغيراً وغير مختون. لم أحزن لمسألة الختان، فمقصوصو الذكور حسب أشارات أبي «أناس وسخون» عندما نظرت إلى ذكر الدب ووجدته صغيراً شعرت بالطمأنينة.

«هنا، تحت شجرة الشوك هذه، وجدنا، أنا وشمشون، طابعة عربية» فجأة صرخ النغل.

«وأين هي؟» سألته، مغمضاً عينيّ من أشعة الشمس المتسللة من بين الأشجار.

«أخذها أخوك بعدما أعطاني خمسين فلساً».

ولم يتوقف غلوبي، الذي كان قد ولد في نفس الشهر والسنة التي ولدت فيها، عند هذا الحد. فقد أضاف موجهاً، دون أن يقصد، سهاماً إلى قلبي الصغير «شمشون ونسرين كثيرا ما يقضيان الظهيرة هنا، بين أشجار البساتين».

ذهبوا جميعاً وبقيتُ وحدي حتى ضاعت الاشجار في الظلام، وعلى هدى القمر الساقط في مياه السواقي عدتُ إلى البيت. كنت حزينا لذلك فكرتُ بالثأر. ولكن كيف أثأر من شمشون، أخي الكبير، وسكان المدينة يتحدثون طوال الوقت عن الحرب (كنا في صيف ١٩٦٧ هنا) وأمي

لم تكف عن التحديق في وجه شمشون، الذاهب خلال أيام قليلة إلى الجندية، ومن هناك إلى الجبهة السورية أو الجبهة الاردنية؟.

في أحد أيام تشرين الأول، وأنا عائد من المدرسة، لم أستطع إلا أن أضرب بعرض الحائط مقولة قرياقوس «الذي يحب السينما حقاً، عليه أن ينسى الذكريات التي تفوح منها رائحة الثأر». كانت كتبي تحت ابطي وأنا أرى من بعيد، حلقات العقال الأسود وحلقات الراقصين ودقّات أقدامهم القاسية، طبول ومزامير وغبار يتصاعد من الأرض الترابية كأنه بخار. «هذا عرس» تمتمتُ متجهاً صوب الرجل الذي كان يوزع صحون الرز والفاصولياء. أكلتُ صحنين وأنا أراقب أم العريس تعرض للناس الخرقة الملطخة بالدم.

«هذا عرس، يجب أن نشاركهم في الأكل» قلتُ لقرياقوس الذي كان منزوياً لوحده. ابتسم ثم قهقهه عالياً وهو يحني رأسه ليلقي نظرة خاطفة إلى المربعات والمستطيلات الزرقاء والصفراء والسوداء في قميصه «ها ها ها انها مجزرة، ها ها ها». وكأن أم العريس سمعت تعليق قرياقوس، فعادت تهلهل بأعلى صوتها وتلوّح بخرقتها المدماة.

«لا تأكل كثيراً، الخالة زهرة جلبت لنا قدراً كبيرا مليئاً بالكبة والكفتة بمناسبة عرس نسرين». قالت أمي وهي تهم بالجلوس قرب قرياقوس.

«عرس مَن»؟ قلتُ مندهشاً. .

«عرس صديقتك، نسرين، هل نسيتها»؟

شعرتُ بدوار في رأسي ووهن يتسلل إلى قدميّ. عدت إلى البيت باكياً.

مسحتُ دموعي بظاهر كفيّ وقررت الثأر. وحالما رأيت أبي عائداً من المخبز: شكّلت بيديّ شيئاً شبيهاً بصندوق، وبأصابعي العشرة صرت أضرب في الصندوق (فهم أبي اني أشير إلى الطابعة كاربنتر). هزّ كفه اليسرى (أين هي؟). وضعتُ سبابتي اليسرى تحت عيني وأشرت إلى منزل الخالة زهرة.

جلبت سلماً خشبياً من منزل نصرت شاه، وأسندته على الحائط الخلفي لمنزل الخالة زهرة. صعدتُ أولاً ولحقني أبي. ألقينا نظرة نحو الراقصين و«البخار» الطالع من تحت أقدامهم. سحبنا السلم ونحن فوق السطح وأنزلناه في وسط الحديقة، من الجهة الاخرى. عندما دخلت منزل الخالة زهرة كانت الكاربنتر لا تزال في مكانها، على الأرض، في الجهة اليسرى من المطبخ. حملتها وصعدت السلم حيث ناولتها لأبي. داعب أبي الكاربنتر مثلما كان يداعبني وأنا طفل. وقبل أن ننزل من فوق السطح نظرنا إلى الراقصين والجمهور (يا له من منظر رائع)، في هذا الصدد، أتذكر ان قرياقوس كان قد شرح لي، انه في لقطات سينمائية كهذه، يستحسن أن تكون وضع الكاميرا OVERSHOULDER نحو مكان التجمع. ثم تقوم الكاميرا بحركة TILTUP وبعدها ZOOM ON شفاف نحو الصورة المنتخبة: الخرقة المدماة، مثلا، أو العريس الطالع من غرفة الزفاف، أو لسان أم العريس وهو يترجرج أعلى وأسفل، ثم تتماهى في اللقطة المنتخبة (ونقطع) إلى مكان آخر من المشهد.

في البيت، وعلى وقع الطبول والمزامير الآتية من الخارج، رحتُ أضرب على حروف الكاربنتر فيما كان أبي يشرب «العرق». وبين حين وآخر ينفخ في علبته الفضيّة ويمسحها بقميصه، فينعكس لمعان فضتها، تارة في وجهي، وأخرى في حروف الكاربنتر.

***

صيف العام ١٩٦٨ كان آخر أصياف مدينتنا، الحبانية. كانت شميران قد رحلت مع زوجها نيقولا إلى بغداد. ويوشيا هاجر إلى ديترويت. والتحق شمشون بالجبهة، وكذلك انتهت قصة نسرين. في ذلك الصيف سمعنا أصوات أطلاق النار في القاعدة الجوية. بعدها صدرت الأوامر بمنع التجول لمدة ثلاثة أيام، فعلمنا أن انقلابا عسكريا قد وقع في

العاصمة بغداد وأن مجموعة من العسكريين البعثيين سيطروا على الحكم في البلاد.

بعد ثلاثة أشهر من الانقلاب، قام بعض المسؤولين العسكريين بزيارة أهالي الحبانية ليبلغوهم «ان حكومة الثورة قررت اخلاء الحبانية من السكان المدنيين لتصبح قاعدة عسكرية فقط». وعندما تجرأ بعض الأهالي وسألوا عن السبب، كان جواب العسكريين: «الحبانية تمتلك موقعا استراتيجيا في النضال ضد الامبريالية والصهيونية وعملائها في المنطقة الذين يعملون على تدمير العراق». وفي الحقيقة، لم تشمل أوامر الطرد سوى العائلات الآشورية والكردية والتركمانية، ومن كان يطلق عليهم من «أصل فارسي». وقد قيل أن الحكومة العسكرية الجديدة كانت تعتبر هذه الأقوام «من مخلفات الاستعمار البريطاني».

«يا الله، إلى أين سنذهب؟ إلى أين سنذهب يا الله»؟ ظلت معظم نساء الحبانية يولولن وينتحبن ويلطمن على خدودهن. وقالت سكينة لأمي «انتبهي للطفل الذي تحملينه في بطنك، يا كرجيه». لكن أمي كانت تواصل لطمها وتقول «إلى أين سآخذ اولاد الاخرس الاطرش، يا سكينة؟». حتى معاون الشرطة، المسكين، حين ذهبت بعض النساء وتجمعن عند بوابة المركز خرج عليهن بسحنة كئيبة قائلا «لو كان الأمر بيدي، لسمحت لكن بالبقاء هنا ألف سنة أخرى. وأنا مثلكن يا أخواتي، لقد تسلمت قرارا باحالتي على التقاعد. أنصحكن بترك بيوتكن في اسرع وقت، لأن الحكومة الجديدة ستنفذ أوامرها بلا رحمة».

قبل يومين فقط من مغادرة الحبانية، وضعت أمي طفلة صغيرة، أسمتها «ماري». ورغم الظروف واللحظات المأساوية التي كنا نعيشها الا أن قرياقوس أخذ يداعب ماري وهو يقول لها «MARY OF SCOTLAND». كانت أمي لا تزال تستعيد صحتها اثر الولادة، فيما العسكريون يأمروننا باخلاء بيتنا الصغير فورا. وبعد ساعات شاهدنا البولدوزرات تهدم بيتنا أمام أعيننا.

كان قرياقوس الشخص الوحيد المتابع لما يجري في العاصمة. قال انه قرأ بعض الأخبار الرهيبة في الصحف متنبئا «سوف يتغير العراق نهائيا. الحكومة الجديدة تؤمن بالقومية العربية الشوفينية. نعم أنهم ينظرون إلينا كمخلفات من الاستعمار البريطاني».

وقد سألت قرياقوس: «ماذا يعني مخلفات انكليزية؟ ألسنا عراقيين»؟

«طبعا. نحن أصل هذه البلاد، نحن تماما مثل الهنود الحمر في أميركا».

«اذا كنا مثل الهنود الحمر، فكيف تحب إذن جون فورد وهو الذي يصنع دائماً أفلام الكاوبوي»؟ قلت بعفوية.

«هذا سؤال مهم جداً» قال قرياقوس «معظم أفلام جون فورد تحترم الهنود الحمر. كان يحاول دائما أن يكون منصفا في تقديمهم في أفلامه. كان يعرف لغتهم، وكان صديقا لبعض زعماء القبائل الهندية، الذين لم يسمحوا لأحد بتصوير مواقعهم المقدسة مثل أماكن العبادة ومدافن زعمائهم الروحيين إلا لجون فورد».

في ذلك اليوم أختفى قرياقوس، ولم يره أحد ثانية.

لحسن الحظ أننا لم نكن نملك أي نوع من الأثاث. قمنا بوضع أفرشتنا القليلة وثيابنا في عربة خشبية صغيرة، رحنا ندفعها أنا وأبي وتيدي، فيما كانت أمي تحمل الأطفال. في ذلك الغروب، جلسنا عند مفترق الطريق العام القريب من سلسلة الجبال المشرفة على الحبانية: كان الطريق يؤدي إلى الفلوجة وبغداد من جهة اليسار وإلى الخالدية والرمادي من الجهة الأخرى. ولما لم نكن نعرف إلى أين نذهب، فرشت أمي بطانية على الأرض ووزعت علينا بعض الخبز والطماطم والخيار. كنا نلتهم طعامنا وكأننا في رحلة «بيكنيك».

في آخر الأمر ذهب تيدي وروبن مع أحدى العائلات إلى بغداد ليقيما عند أختي شميران. وقررت أمي أن نقيم بشكل مؤقت في الخالدية.

ربطنا عربتنا بسيارة بيك آب كبيرة كان استأجرها نصرت شاه لينقل عائلته إلى مدينة الرمادي. عندما وصلنا الخالدية، سأل نصرت شاه أمي ان كانوا يستطعون أخذي معهم.

يا الله، كم أشعر بالندم وأبكي كلما تذكرت، كيف انني بدوت خائنا في عيني أمي حين قفزت فرحا لذهابي مع عائلة نصرت شاه؟

أين نعمة النسيان يا ربي؟

***

فوجئ تلاميذ الصف بوجود تلميذ مسيحي بينهم، ويحمل اسما غريبا جدا. لا ادري ان كان ثمة مسيحي قد سكن مدينة الرمادي من قبل. قدمني المعلم بنبل قائلا «شموئيل، زميلكم الجديد، من عائلة آشورية، من ابناء بلدنا العريق». وأذكر انه تحدث عن عظمة العراق، تنوع شعبه واختلافاته الدينية والقومية، ووحدة العراق التي لا يمكن قهرها. كان المعلم لطيفا معي إلى اقصى الحدود. فيما بعد، علمت انه غريب مثلي. كنا في غرب البلاد، وكان المعلم من جنوبها.

لم يكد المعلم ينهي تقديمي لزملائي حتى جاءتني ضربة مسطرة في مؤخرة رأسي. لم ألتفت رغم الألم. كان المعلم منهمكاً بالكتابة على السبورة، ولم يكن ألمي قد خف بعد حتى جاءت الضربة الثانية.

«استاذ، هناك من ضربني على رأسي». قلت وانا أقف.

«كذاب، كذاب ابن كذاب» انطلق صوت من ورائي، التفت اليه، كان تلميذا في الرابعة عشر اسمر وبملامح عنيفة. كان جالسا باسترخاء وهو يمسك بيده مسطرة معدنية.

«محمد اخرج من الصف فورا». قال المعلم. خرج محمد حاملا مسطرته وكتبه. وقف عند باب الصف ونظر اليّ بعينين غاضبتين وهو يشد قبضته ويعض شفتيه، فلحقه تلميذان آخران دون ان يستأذنا المعلم. ملأني الخوف وأنا في مقعدي.

كنت، وأنا هارب من الشمس القوية، أسير محتميا بظلال سياج المقبرة في طريقي إلى البيت، فسمعت صوتا يقول «انتظر، أريد ان اكلمك». اقترب مني محمد واثنان من «عصابته» وقبل ان يكلمني وجّه إلى وجهي ضربة من مقدمة رأسه بلمحة خاطفة، ثم راح زميلاه يسددان إلى بطني ركلات منتظمة. كنت منحنيا حاميا وجهي (قرياقوس قال لي ان الذي يريد ان يشتغل في السينما عليه ان يكون وسيما)، وكانت الدماء تنزف من فمي وأنفي. كنت أتلقى الضربات وأهمس لنفسي «يا الهي، لم أر مثل هذا العنف إلا في الأفلام».

«هذا درس أول يا حقير.. حتى تعرف ان المعلم لن يفيدك في شيء». قال محمد وابتعد مع رفيقيه.

لم يقتنع نصرت شاه أبدا بأنني كنت الضحية. كانت سكينة تضمد الشق الموجود في أعلى حاجبي الأيسر (سيظل أثره باقيا دائما)، وكان نصرت شاه يصر على كلامه «ما كانوا يعتدون عليك لو لم تتحرش بهم».

«صدقني انني لم أفعل أي شيء».

«أبناء العشائر لا يعتدون على الناس بدون سبب» رد نصرت شاه وهو يضع «تربته» وسط السجادة وأخذ يصلي المغرب.

بات الذهاب إلى المدرسة مثل الذهاب إلى حفلة تأديبية، اذ لم يتركني محمد وعصابته في سبيل حالي. كانوا يبحثون عن أي حجة لكي يعنفوني. وقد أمرني محمد مرة ان ألاعبه كرة المنضدة، لاعبته وخرجت خاسرا.

«أنت جبان، كنت تستطيع الفوز، لكنك مخنث». قال وهو يلقي بالمضرب فوق الطاولة.

كان منزل نصرت شاه يقع في مواجهة الضلع الأطول من المقبرة المستطيلة الشكل. كنت أسير خمسا وعشرين دقيقة في طرق ترابية،

ملتفا من خلف المقبرة حتى أصل الطريق العام، ومن هناك احتاج إلى خمس دقائق لأكون في وسط المدينة. فبعد الساعات المضجرة في المدرسة، ثم رسم الخطط لتجنب «العصابة» كنت اعود إلى المنزل لأقضي ساعتين في اللعب مع الكاربنتر، وتقليب صور نجوم السينما الاميركية، وأفيشات الافلام. ثم اذهب إلى وسط المدينة لأحل محل نصرت شاه في بيع الساندويتشات أمام السينما.

ذات يوم سألتني سكينة «لماذا لا تأخذ الطريق الذي يخترق المقبرة، فهو يوصلك لوسط المدينة في خمس دقائق فقط». «طريق المقبرة!» تساءلت. «ولم لا» اجابت سكينة.

«انني اخاف من السير بين القبور».

ابتسمت سكينة وهي تسحب كرسيا صعدت فوقه وجلبت كيسا اخضر كان موضوعا فوق الراديو المثبت في أعلى الحائط. أخرجت من الكيس، القرآن. ظلت تقلب صفحاته حتى توقفت، قائلة «تعال، انت تعرف القراءة. انقل هذه الاية، في ورقة بخط يدك، وعندما تضع قدميك في المقبرة اقرأها عدة مرات حتى تجتاز المقبرة، لن يصيبك أي مكروه». جلبت ورقة وقلما وشرعت بالكتابة: «الله لا اله إلا هو الحي القيوم. لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات والأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض. ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم».

«هل انتهيت» سألت سكينة.

«نعم» قلت.

«صدق الله العظيم» قالت سكينة.

وقفت أمام ثغرة في سياج المقبرة، وضعت قدمي اليسري في أرض المقبرة ورحت أقرأ «آية الكرسي» وأسير بين القبور. خلال خمس دقائق

وجدت نفسي في الطريق العام. اعجبتني الحكاية، فصرت اكررها كل يوم، حتى حفظت الآية عن ظهر قلب.

وكنت قبل أن أنام في الليل اقرأ «سورة الناس» عشرة مرات أو اكثر. دون ان انسى ان ارتجل دعاء يحفظ أمي وأبي. وقد أضفت منذ وصولي إلى مدينة الرمادي دعاء آخر اطلب فيه من الله ان يقيني شر الاعداء في المدرسة، وكثيرا ما كنت انسى دعائي القديم الذي اطلب فيه من الله ان يساعدني في ان اكون سينمائيا عظيما.

ويبدو ان الله تقبل دعائي.

في أحد الأيام كنت أسير بين القبور، فاذا بعيني تقعان على شاهدة قبر صغير (متر تقريبا) كتب في الشاهدة:

«يا قارئا كتابي،

إبك على شبابي،

بالامس كنت حيا

واليوم تحت التراب».

أعجبتني قصيدة الشاهدة وآلمني ان الميت كان شابا. جلست حزينا انظر إلى القبر وأعيد قراءة الشاهدة. في تلك اللحظة، رأيت محمدا وعصابته مقبلين باتجاهي. تملكني الخوف، فظللت جالسا.

«ماذا تفعل هنا؟» صرخ محمد، وهو يوجه ركلات متلاحقة، لكن خفيفة، إلى ظهري.

«وماذا يضرك ان كنت قد أحببت هذا القبر؟» قلت وأنا أنهض منظفا التراب العالق ببنطالي. كانت عيناي تتنقلان بسرعة بين قبضة محمد وصديقيه، مترقبا ركلة من هذا أو لكمة من ذاك «الله يرحمه، كان شابا». قلت.

أرخى محمد قبضته، ثم بحركة مباغتة أرسل لطمتين متتاليتين إلى

صدرَي مرافقيه، صارخا بغضب «ابتعدا أيها النذلان». ثم جلس متكئا بظهره على القبر، يجهش باكيا.

«انه قبر أخي» قال محمد بعد لحظات من الصمت.

«الله يرحمه.. كم كان عمره» سألت بنبرة حزينة.

«خمسة عشر عاما» أجاب محمد. ثم قبّل القبر ونهض. ربت على كتفي اليمنى كأنه عجوز (كان يكبرني بعامين) وقال بابتسامة ممزوجة بالأسى «دماؤه لن تذهب هدرا، هذا وعد ودين في رقبتي، يا صديقي».

«ألف رحمة على قبره» قلت مرة أخرى. فربت على كتفي مرة اخرى وقال «ارجوك اعذرني واغفر لي ما فعلته بك. أنا نادم. اقسم لك بقبر المرحوم أنني نادم».

ابتعد محمد، فيما ظلت عيناي ترقبان التراب العالق بدشداشته. شعرت بوخزة في قلبي، أو شيئا يسقط من قلبي.

في اليوم التالي، فوجئ المعلم وهو يرى محمدا جالسا إلى جانبي في نفس الرحلة. اقترب منا مبتسما. فقال له محمد مشيرا الي «شموئيل من أعز أصدقاء المرحوم». كان المعلم والتلاميذ يعرفون جيدا ان محمدا عندما يتحدث عن المرحوم فانه يقصد صاحب القبر، ذلك الشخص المقدس الذي ذهب ضحية تصفية حسابات بين العشائر.

مذاك لم يجرؤ أحد على الاقتراب مني، حتى محمد نفسه صار خجولا ولا يقوى على النظر في عيني. وأذكر انه عندما طلب مني ان نلعب كرة المنضدة سوية خرج مهزوما، فقال لي «أرأيت، أعرف انك لاعب ممتاز» وضحكنا متجهين يدا بيد نحو الصف.

***

بعد أن أمضيت ثلاث سنوات مع عائلة نصرت شاه في الرمادي، طلبت أن اعود إلى أهلي. هز نصرت شاه رأسه موافقا بشيء من عدم

الرضى (اعرف انه كان يحبني مثل أولاده). كما كانت سكينة في غاية الحزن.

دخلت المقبرة وشرعت اقرأ «اية الكرسي» حتى وصلت إلى «قبري». جلست عنده وأخذت أقرأ الشاهدة مرات ومرات حتى بدأت الشمس بالمغيب. نظرت إلى الكاربنتر (أجمل ما أملك) اخرجت آية الكرسي المكتوبة بخط يدي وادخلتها في ثنايا الكاربنتر، في المكان الذي توضع فيه الورقة. ثم وضعت الكاربنتر فوق القبر، وهرولت خارجا، للحاق بالباص الذاهب إلى الخالدية.

كان الوقت ليلا عندما وصلت إلى الخالدية. ولكي أعثر على منزل عائلتي، كان عليّ أن أطرق أبواب أكثر من خمسة منازل. كنت أسأل «هل تعرفون أين تقيم عائلة آشورية فقيرة جاءت من الحبانية منذ ثلاث سنوات»!.

عندما طرقت على ذلك الباب، سمعت صرخاته الشبيهة بصرخات الهنود الحمر وهم يهجمون على قوافل الكاوبويز. على الفور أخرجت من حقيبتي ملصق أحد أفلام نورمان ويزدوم ودسسته من فتحة تحت الباب الذي فتح على الفور.

إشارات

* عندما عاد شمشون من الجبهة السورية، بعد أن ظل هناك لأكثر من سنة، اكتشف ان بيتنا كان قد هدم، وتشتت العائلة. جلس شمشون بثيابه العسكرية وحقيبته في نفس المكان الذي جلسنا فيه عند مفترق الطريق العام عند جسر الحبانية، لا يعلم إلى أين يذهب. لا يعلم أيضا أن العائلة كانت في الخالدية على مبعدة ١٠ كيلومترات منه. في الأخير استقل باصا وذهب إلى بغداد ليبحث عن منزل شميران.

* عندما قامت الحرب بين العراق وايران، التحق شمشون بالجبهة وعاد مصابا. تيدي أيضا التحق بالجبهة وأصيب هو الآخر. روبن الصغير، أدى خدمته العسكرية في تلك الحرب لأكثر من ست سنوات إلى أن أصيب بشلل نصفي. وما زال إلى الآن يحب الطيران ويحلم بدراسة هندسة الطائرات.

* بالنسبة لشميران: إثنان من أولادها الثلاثة أرسلا إلى تلك الحرب. فيما بعد أبلغوها أن سركون قد قتل في الحرب، فيما فقد ولدها الآخر، آشور. بعد أربع سنوات علمت بأن آشور كان أسيرا في ايران. وحين عاد إلى المنزل بعد عشر سنوات، أخبر أمه، أنه هو والعديد من الأسرى الآخرين أمضوا كل أوقاتهم في بناء العمارات والمنازل الفخمة لملالي ايران.

* قرياقوس ظل وفيا لجون فورد حتى النهاية. بعد اختفائه في

الحبانية، علمنا لاحقا انه كان قد اعتقل من قبل أجهزة الأمن البعثية بتهمة «التجسس للغرب». عندما أطلق سراحه بعد ثلاث سنوات، كان يضحك وهو يقول انه كتب رسالة شكوى إلى مديرية الأمن يطالبهم فيها باعادة أرشيفه الخاص بصور الأفلام. بعض الأصدقاء نصحوه: «يا قرياقوس، يجب أن تشعر بالسعادة لأنك ما زلت حيا. إنس الصور». لكن قرياقوس رد عليهم بطريقته المعهودة، ضاحكا: «أعرف جيدا أنهم لن يردوا لي صوري، لكنني فقط أردت ان أضع بعض عناوين أفلام جون فورد في ملفاتهم». كان قرياقوس قد صاغ رسالته بالشكل التالي:

أطالبكم باعادة أرشيفي الخاص بالصور بالسينمائية. وهي صور لا علاقة لها على الأطلاق بالأمن الاستراتيجي لبلادنا. إنها صور من أفلام مخرج أميركي يدعى جون فورد، واسمه الحقيقي شون ألوسيوس أوفيرنا Sean Aloysius O'Fearna. من مواليد الأول من شباط (فبراير) ١٨٩٥ في ولاية «مين» الأميركية. وقد توفي في الحادي والثلاثين من آب (اغسطس) عام ١٩٧٣ في ولاية كاليفورنيا. والصور التي أطالب باعادتها لي هي من الأفلام التالية:

Cheyenne Autumn, Donovan's Reef, How the West Was Won, Two Rode Together, Sergeant Rutledge, The Horse Soldiers, The Last Hurrah, The Rising of the Moon, The Wings of Eagles, The Searchers, Mister Roberts, The Quiet Man, The Tornado, Wild Women, The Scarlet Drop, A Fight for Love, Rio Grande, Drums Along the Mohawk, The Long Voyage Home, Wee Willie Winkie, The Plough and the Stars, Arrowsmith, The Lost Patrol, She Wore a Yellow Ribbon, They Were Expendable.

وصور أخرى.

توفي قرياقوس أثناء وجودي في بيروت، وكان في الستين من عمره.

* لم أر نصرت شاه أبدا بعد أن تركت الرمادي. وهو الآخر توفي، أثناء وجودي في بيروت.

* أما بالنسبة لقاسم وسمر. فذات يوم وأنا أؤدي خدمتي العسكرية، كنت في سيارة جيب مع جندي آخر، نقطع طريقا صحراويا على مبعدة بضع كيلومترات من مدينة الرمادي. في تلك الظهيرة الساخنة جدا طلبت من الجندي السائق ان يتوقف لنشتري مشروبا باردا من دكان بدا وحيدا في ذلك الطريق. كان صاحب الدكان منحنيا مشغولا بشيء ما، وكانت ثمة امرأة مع طفلين في عمق الدكان. «من فضلك أعطني قنينتين باردتين من السينالكو». قلت لصاحب الدكان الذي كان ما زال منحنيا. حين التفت اليّ الرجل، كان قاسم. حدق فيّ لوهلة ثم طفرت الدموع من عينيه «جويي، أنت جويي!» قال قاسم وعانقني بقوة. واستمرت المفاجأة عندما صرخ «سمر، تعالي يا سمر هذا جويي، ابن كيكا وكرجية» فجاءت جين راسيل مع ابنتيها الصغيرتين، وكانت حاملا بطفل ثالث.

شكر

هذا الكتاب يتألف من قسمين: الأول بعنوان «عراقي في باريس» وقد كتبته في مراحل متقطعة بين ١٩٩٠ و٢٠٠٣. بينما القسم الثاني «البائع المتجول والسينما» كتبته في خريف العام ١٩٨٥ على شكل سيناريو لفيلم طويل بعنوان «الحنين إلى الزمن الانكليزي». وبدءا من العام ١٩٨٩ قمت بتحويل السيناريو إلى رواية سيرة ذاتية، ونشرت معظم فصوله في الصحف والمجلات الأدبية مثل «كتاب الاسئلة» و«فراديس» و«القدس العربي» و«بريد الجنوب» و«الحياة» و«قصص».

وبهذه المناسبة اقدم شكري الجزيل للمحررين الثقافيين في تلك الصحف والمجلات.

كما أقدم شكري الجزيل لقرية الفنانين والكتاب في Kunstlerdorf Schoppingen في ألمانيا حيث أمضيت هناك أربعة أشهر رائعة مكنتني من انجاز جزء كبير من هذا الكتاب.

كل الشكر والتقدير لصديقيّ الشاعر العراقي فاضل العزاوي والشاعر المغربي محمد بنيس لمراجعتهما المخطوطة وتصويب الاخطاء.

المؤلف

الفهرس

هذا الكتاب

يصعب أن نجد في العربية كتاباً مثل كتاب «صموئيل شمعون عراقي في باريس» بل لن نجد فيها كتاباً مثله على الاطلاق. انه يكتب لانه تبادل مع الحياة اللعب ولانهما ضحكا من بعضهما البعض، ولان شهية الحكي وشهية الحياة لا تنتهي بدرس ولا بعبرة، شيء يذكر بهنري ميلر، قوة الحياة قوة الحكي.

عباس بيضون، جريدة السفير

فشل صموئيل شمعون في تحقيق حلمه السينمائي بل حلمه الأميركي، لكنّه ألّف كتاباً هو من عيون ما وضع في أدب السيرة الذاتية في العصر الحديث، عصر الصورة والثورة المشهدية. ولا أخفي شخصياً، أنني بقدر ما قرأت هذا الكتاب بألم قرأته بمتعة ناجمة عن السخرية الذكية والعبث الكامنين في صميم السيرة المزدوجة، علاوة على الفرادة والسلاسة اللتين وسمتا الكتاب.

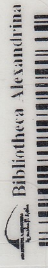
عبده وازن، جريدة الحياة

من نافل القول، اعتبار كتاب صموئيل شمعون «عراقي في باريس» كتاباً رائعاً. إذ أنه أكثر من ذلك. ومن البداهة أن نعتبره فريداً في الأدب العربي، إذ من الصعب أن يستطيع أحد أن يكتب مثله، على الأقل في الفترة القادمة. كتاباً، لا شك في أنه سيبقى نقطة متميزة، في تاريخ كتابتنا الحديثة. «عراقي في باريس» واحد من تلك الكتب الـ
أنا نفسي أن أكون كاتبها.

اسكندر حبش، جريد

ممتعة، مشوقة خالية من «تصفية الحسابات»، بلا أحقاد و
انها على الأرجح بيان تسامح، وحجة للهو ولإعلاء ش
الانسانية، نص هو على شبه أن يكون بمذاق النبيذ، حلو وم
ومنعش ومعطّش ولاذع وسلس. هكذا رواية، تضفي على
المنافي العراقية (والعربية) قيمة أدبية انتظرناها طويلاً.

يوسف بزي، جريدة المستقبل





9786000016913
56.00